حنينٌ إليك
رواية
سارة سيف الدين
شخابيط وردية

رواية
حنيني إليكِ
سارة سيف الدين

الهدوء والسكون هما أكثر ما يميزا تلك البقعة... حيث يرقد الأموات في صمت.. صمت لا يعلم أحد ما قد يخفي خلفه..

وقفت هي أمام أحد القبور تبكي.. وتتمتم بكلمات غير واضحة، تقبض على ياقتي معطفها ذو الفراء تستمد منه بعض الدفء... لكن البرودة التي تشعر بها كانت برودة داخلية... شعرت بها فور أن فقدت أباها.. الرجل الوحيد في حياتها.. والذي كان يعني الكثير والكثير لها.. فهو لها المعنى الحقيقي لكل المشاعر الايجابية التي قد تشعر بها ابنة لأبيها.. ولكنه رحل... رحل ليتركها وحيدة... فلقد فارقتهما أمها منذ سنوات... وها قد ذهب هو أيضاً.. وعليها الآن أن تعتاد على فكرة كونها وحيدة.

رفعت كفها الى جبهتها ثم هبطت بها إلى جانب صدرها الأيمن ثم الأيسر في صلاة صامتة:

- فلترقد بسلام أبي.. أفتقدك.. كثيراً.

جففت عبراتها لتودع قبر أبيها بنظرة مطولة، والتفتت وهي ترفع غطاء رأس معطفها لتدفيء به رأسها ووجنتيها اللاتين تضربهما نسمات البرد القوية.. فليلة أمس كانت ثلجية...

تساقطت الثلوج لتغطي أرض مدينة امستردام عاصمة هولندا.. المدينة التي ولدت فيها وترعرعت.. وبرغم أن المدينة تعتبر أفضل أنواع المناخ شتاءً مقارنة بمدن أوربية أخرى لكنها عندما تثلج تترك الأجواء باردة جداً... ولم يكن هذا يضايقها فلطالما أحبت الثلوج بلونها الناصع البياض... لكنها انتبهت إلى أنها لم تعد ترى لون الثلوج الأبيض بسبب العتمة.

نظرت لساعتها لتحدق بها مذهولة:

- يا الهي.. لقد تأخر الوقت... لم أشعر به أبداً.

كان المكان هادىء بطبيعته لكن مع غرقه في ظلام الليل زاد سكونه ورهبته، تلفتت حولها فلم تجد حركة لأي شخص كان...

لا تعلم لما دب الخوف في أوصالها حثت خطاها للمسير بسرعة.. فسيارة أبيها التي كانت تستخدمها تحطمت معه في الحادث ولم يوفر التأمين لها غيرها حتى الآن.. اقتربت كثيراً من الخروج من المقابر لكنها وقفت للحظة بعد أن وصل لها همسات خافتة جداً..

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تدير عينيها في المكان.. ليسقط بصرها على ثلاث مراهقين على ما يبدو يتعاطون المخدرات، وفي نفس الوقت الذي انتبهت لهم انتبهوا هم لها أيضاً.. ليقفوا على أقدامهم يحدقون بها..

فأدارت ظهرها لهم وأكملت طريقها بهدوء لكنها أسرعت أكثر فور أن ناداها أحدهم لتتوقف، لتفاجئ بمن يتشبث بغطاء رأس معطفها ويجذبها معه للخلف حتى أنها سقطت على ظهرها لتحيطها ضحكاتهم غير السوية لأشخاص لا يعون ما يفعلون.

تمالكت قواها لتهب واقفة على قدميها وهي تتشبث بمعطفها قائلة:

- ماذا تريدون مني؟!... أرجوكم دعوني وشأني.

ترنحوا وهم يدورون حولها بينما تتابعهم بعينين فزعتين خائفتين... ليقترب منها أحدهم وكاد يلصق وجهه بوجهها وهو يحدق بها قائلاً لرفاقه:

- إنها جميلة جداً...

أنهى جملته وهو يدفعها لترتمي في أحضان أحدهم لتصرخ وهي تحاول الابتعاد عنه، ليقوم بدفعها للأخير بضمها له بقوة ثم يدفعها مجدداً لتعود للأول الذي نجح في خلع معطفها ذو الفراء عنها لتسقط بعدها أرضاً وهي تصرخ برعب، ليتمسك بذراعيها محاولاً تثبيتها أرضاً وما زالت صرخاتها تصل لعنان السماء ولم يسكتها إلا صوت أحدهم:

- توقفوا.

تجمدت الأجواء وهي تلتفت ناحية الصوت الذي بعث الأمل في صدرها بأنها ستنجو من هذا المصير الوحشي..

سقطت عيناها على رجل يقف في مواجهتهم لكن الظلام لم يسمح لها برؤية ملامحه جيداً... ليصيح مجدداً:

- ما تظنون أنفسكم فاعلين؟... ابتعدوا عنها حالاً.

ظل من يمسك بذراعيها على حاله، بينما وقف زميلاه أمام الرجل ليخرج أحدهم سكيناً صغيراً قائلاً:

- وما شأنك أنت؟.. ابتعد من هنا إن أردت أن تبقى حياً!!

صرخت هي من بين دموعها:

- أرجوك... أرجوك ساعدني.. أرجوك.

- لا تخافي.

قالها بثبات.. لا تعلم لمَ اطمأنت لكلمته برغم أن الاوضاع حولها تقول أنه الأضعف.. حدق بالشاب حامل السكين ليقول:

- بل عليك أنت أن تذهب من هنا ، أنت ورفاقك إن أردتم أن تعودوا بوجوهوكم كما هي!.

ظهرت بسمة استهزاء على وجوه الثلاثة ليندفع الشاب حامل السكين نحوه، فتفادها بسهولة قبل أن يدور على عقبيه ليركله بقوة دفعته أكثر ليرتطم بشجرة ضخمة في طريقه ويسقط أرضاً ، ودون أن يتوقف قفز للشاب الثاني لاكماً وجهه بقوة مع ركلة قاسية لمعدته تاركاً إياه في رحلة سقوطه، حتى وصل للأخير الذي مازال متشبث بالفتاه يتابع ما يحدث فحسب، ليتشبث برقبته ويرفعه بسهولة عن الفتاة وأحاط بعنقه بقوة هامساً في أذنه:

- أنتم مخدرون أصلاً.. التغلب عليكم ليس صعباً... اذهبوا من هنا.

دفعه ليصطدم برفيقه ليحدقا به، ويقول أحدهم:

- فليكن.. خذها أنت لا يهم.

ساند رفيقه ليحملا معهما رفيقهما الثالث مبتعدين عن المكان، بينما ظلت الفتاة على حالها تنتفض في مكانها منتحبة، خلع الرجل معطفه الجلدي ليقترب منها ووضعه على كتفيها قائلاً:

- لا عليكِ... هل أنتِ بخير؟!!

انكمشت على نفسها أكثر وكلمتهم الأخيرة تتردد في عقلها.."خذها أنت".

ترك المعطف على كتفيها ليتراجع قائلاً:

- دعيني أساعدك... أين تسكنين؟!!

لم تنظر نحوه بل دفنت وجهها بين كفيها واستمرت في البكاء، وبدت كمن يريد الاختفاء داخل نفسها.. وزاد انكماشها بشكل لا إرادي، فابتعد عنها عدة خطوات ليقول:

- آسف.. لا أقصد اخافتكِ... أعلم أنكِ مذعورة.. لكني لا أريد تركك وحيدة هنا.. دعيني أوصلكِ، لا بأس.. سأنتظر حتى تهدئين قليلاً.

وبالفعل تراجع أكثر ليمنحها خصوصية ما وقد أولاها ظهره، مر بعض الوقت والحال كما هو..

رفعت رأسها وكأنها تستوعب من جديد أين هي؟!!.

انتفض قلبها لشعورها أنها وحيدة الآن... ماذا لو عادوا لها؟!!...

أين هو؟!!... قال لها أنه لن يتركها وحيدة.. مازال صوته يتردد في عقلها.. بحثت عنه لتجده على مسافة ما منها كان يستند على شجرة ما دون حراك فقط ينظر إلى الطريق.

حاولت الوقوف واستعانت بجذع شجرة ما، حتى تمكنت من الاستواء على قدميها.. لم يشعر بها فظلت تحدق به للحظات هو لا يعرفها ومع ذلك ينتظرها.. هل حقاً يريد مساعدتها؟.. أم انه يستخدم اسلوب مختلف عن هؤلاء الصبية؟.

لاحت منه التفاتة فرآها على قدميها، اعتدل ليقترب منها بهدوء وحرص وحافظ على مسافة ما بينهما ليقول:

- أنتِ أفضل الآن؟!

لم تنظر له بل ظلت عيناها على الأرض وكأنها تخشى رؤيته، صمت للحظات ليردف:

- أعلم أنكِ قلقة... أنا فقط أريد مساعدتكِ... تركك هنا وحيدة خطراً عليكِ.. دعيني أوصلكِ للمنزل... لن أوذيكِ.

لم تمنحه أي رد، فتحرك قائلاً:

- هيا... سيارتي هناك... دعيني أوصلك.

تحرك بالفعل لكنها لم تتبعه... التفت لها ليرى ارتعاش شفتيها، حرك رأسه في يأس ليقول:

- حسناً.. هل تريدين أن أتصل بأحد ليأتي إليكِ؟!

بمن سيتصل؟!... الشخص الوحيد الذي كان أمانها موجود هنا بالفعل... تحت الأرض!!

تتعرض إلى أسوأ موقف على الاطلاق.. ولا تجد سندها الوحيد لتختفي بين ذراعيه.. لتنال من أمانه وحنانه الذي طالما منحها إياه... هل يمكنها أن تطلب من هذا الشخص أن يفتح قبر أباها ويجعلها ترقد بجواره؟!!.. لعلها تجد الأمان الذي تنشده.

انتحبت مرة أخرى بحرارة وهي تتشبث بذاك المعطف الجلدي ليأتيها صوته الغريب عليها مجدداً:

- أرجوكِ اهدئي... أعلم أنه ليس من حقي أن أقول ذلك... لكني سأقولها... أرجوكِ ثقي بي.. دعيني أعيدك لبيتك.. بقاءك هنا وحيدة ليس حلاً.. لن أؤذيكِ.

كانت تستمع له وهي لا تزال تبكي، "ثقي بي... لن أؤذيكِ".. وجدت نفسها تقول:

ـ أتعدني؟!!

كانت دوماً تقولها لأبيها إذا قال لها شيء، ولا تعرف لمَ تقولها لذلك الغريب الذي ردد بدهشة:

ـ ماذا؟!.. آآه... نعم.. أعدكِ.. سأساعدك حتى تصلين لبيتكِ.

بدأت التحرك فتقدمها لتتبعه وهي تحتضن ذراعيها، فتح لها باب السيارة لتركبها دون تردد...

انطلق بها بعد أن أخبرته بهمس عنوانها... لم يتبادل معها أي كلام... فربما خشي عليها بسبب ما مرت به منذ دقائق فانتبه للطريق فحسب.

ظلت على حالها هي الأخرى تبكي بصوت أحياناً وبدون صوت أحياناً أخرى... لا ترى شيئاً من كثرة دموعها.. فقط تنتظر أن تتوقف السيارة لتهرع لبيتها لتنام على فراش أبيها كما اعتادت منذ فقده.

"وصلنا"

رفعت رأسها لتنظر لمنزلها الذي توقفت السيارة أمامه، فتحت باب السيارة ودون أن تلتفت له قالت:

ـ شكراً لك.

ـ عفواً... انتبهي لنفسك.

لا يعلم إن كانت سمعت كلمته الأخيرة فلقد أسرعت لتصعد درجات قصيرة تفصلها عن باب بيتها واختفت داخل منزلها في لحظات..

ظل يرمق الباب للحظات لتظهر بسمة غامضة على وجهه قائلاً:

ـ لقد أخذت المعطف معها.. هذا جيد.

انطلق بالسيارة مجدداً ليأخذ طريق العودة والذي لم يكن بعيداً جداً عن منطقة سكنها..

أوقف سيارته ودخل بناية سكنية ليصل لشقته وما أن دلف اليها حتى أتاه صوت أجش:

ـ تأخرت!.

التفت قائلاً:

ـ باسم!.. أنت هنا؟!.

ـ بالطبع.. كيف تم الأمر؟!

جلس على الأريكة بجواره:

- كما خططنا.

التفت باسم قائلاً:

- وما هو انطباعك؟؟

اعتدل وقد عقد حاجبيه:

- إما أن هذة الفتاة تجيد التمثيل حقاً.. أو إنها ليست كما نظن.

- تعرفتما؟!!

مط شفتيه وهو ينفي برأسه:

- لا.. كانت في حالة سيئة جداً... مما يجعلني أتساءل هل اختارنا الطريقة الصحيحة للظهور؟!!.

أرخى باسم جسده على الأريكة قائلاً:

- بالتأكيد.. أنت بالنسبة لها الآن ملاكها الحارس.. ستهدأ بعد قليل ولن تفكر في شخص غيرك.. وهذا هو المطلوب.. صدقني أكثر من تفضل النساء الرجل القوي الذي يظهر لمساعدتهن في الوقت المناسب.

- إنها لم تنظر لوجهي حتى.. لا تعرف حتى كيف أبدو!... لعلها تظن أنني هولندي.

- ألم تسمع صوتك؟!!.. سيكون هو دليلها في التعرف عليك... بالمناسبة أين معطفك؟!!

ابتسم قائلاً:

- لا تتذاكى!.. حدث ما توقعت.. نسيته ولم ترده لي.

وقف قائلاً:

- جيد... سيكون عذراً جيداً في اللقاء التالي.. ستراها غداً.

- لا أعتقد أنها ستخرج من منزلها... أعتقد أنني سأراها بعد غد.

أومأ باسم برأسه:

- حسناً.. عجل الأمور قدر استطاعتك.

- لا تقلق... أريد أن أعجلها قدر استطاعتي.

- سأذهب الآن.. أراك فيما بعد.

****

وقف في النافذة يتذكر.. نظراتها المرتعبة.. صرخاتها.. خوفها منه.. وأخيراً.. طلبها بالوعد!!..

كم شعر بالدهشة حين طلبت منه وعد بعدم ايذائها، وكأن الوعد صك حماية غير محدود.. معقول أن تكون بتلك السذاجة!!.. أم أن حالة الرعب التي كانت فيها هي السبب؟.

رفع صورة لها ليرمقها للحظات، كانت تبتسم بوجة طفولي.. تبتسم بالشكل الذي دفعه هو للابتسام ليحدث نفسه:

"هل ما بداخلك يشبة تلك البسمة الطفولية؟!!"

ألقى الصورة جانباً ليقول:

- سنرى حنين.

****

الظلام بدا لا نهائي... والأصوات خلفها تدفعها للهرب.. وبرغم عدم رؤيتها لأي شيء.. أطلقت ساقيها للرياح وهي تأمل ألا تتعثر في شيء.. لكنها سرعان ما ارتطمت بشيء لتصرخ وهي ترى أيديهم تمتد لها.. صرخت وصرخت... لتفتح عينيها على صوته...

" لا تخافي"

انتفضت لتدور بعينيها في المكان وقد تسارعت أنفاسها، انتبهت إلى أنها على فراش أبيها في غرفته..

مسحت عرقاً وهمياً عن جبهتها، وقد عاد لذاكرتها كل ما حدث.. ضمت ركبتيها إلى صدرها لتوقف ارتجاف جسدها وهي تنظر هنا وهناك.

ارتدت للوراء حين سمعت صوت جرس بابها، ظلت مكانها وما زال صوت الجرس يتعالى إلى أن وصل لها نداء تعرف صاحبته جيداً:

- آني... آني... أين أنتِ؟!!... آني افتحي الباب... هل أنتِ بالداخل؟!.. آني أرجوكِ.. لمَ لم تأتِ للمدرسة؟!!

إنها مِيا صديقتها المقربة، نظرت للساعة لتجد أن النهار قد انتصف بالفعل..

يبدو أن مِيا أنهت اليوم الدراسي وجاءت تتفقدها.. هدأت قليلاً وهي تترك الفراش.. كانت تترنح وهي تهبط الدرج في طريقها للباب، فتحته وهي مختفية خلفه لتندفع مِيا للداخل قائلة:

- ماذا أصابك؟!! كدتُ أن أُجن وأنا أحاول الاتصال بكِ.

اتسعت عيناها حين رأت وجه رفيقتها الباكي.. والشاحب جداً.

- يا الهي!!... آني!.. ماذا حدث؟!

ارتمت آني في صدر رفيقتها لتبكي بحرقة، ربتت مِيا على صدرها في أسى:

- آني... ألم نتجاوز هذة المرحلة؟!... ماذا حدث؟!... كنتِ أصبحتِ بحال أفضل.

تصورت رفيقتها أن حزنها على أبيها قد تمكن منها مجدداً وأرادت أن تواسيها بكلماتها، رفعت آني رأسها لتقول كلمات مبعثرة:

- أمس... أبي... المقابر... كانوا... كانوا..

عقدت مِيا حاجبيها وهي تأخذ رفيقتها لأقرب مقعد لتجلس أمامها على ركبتيها:

- آني... أنا لا أفهم... ما الذي تحاولين قوله؟!

حاولت التماسك ليقل انتحابها تدريجياً، ثم بدأت تقص على رفيقتها الوحيدة كل ما حدث لها أمس.

ارتشفت رشفة من كوب القهوة الساخنة المفضلة لديها والتي أعدتها لها مِيا بعد أن هدأت تماماً، وجلست مِيا أمامها تتناول كوبها هي الأخرى قائلة:

- يا الهي.. كانت لحظات عصيبة جداً... حمدلله أنه أرسل لكِ هذا الرجل لينقذكِ... هذا يفسر سبب ارتدائكِ لهذا المعطف الرجالي.. تصورت أنه لوالدكِ.

انتبهت آني للتو انها لا زالت ترتدي ملابس أمس وكذلك المعطف الجلدي لهذا الغريب الذي ساعدها، تلمست المعطف بأناملها:

- لقد نساه معي... لم يطلبه حتى!.

- يبدو أن لديه أخلاق الفرسان... كيف يبدو؟!

سألتها بحماس جعل آني تحدق بها للحظات لتقول:

- كيف يبدو؟!... لا أعرف.. لم أكن في حالة تسمح لي بالنظر لوجه أي رجل.. لقد كنت مرتعبة منه.. ولم أتحرك معه قبل أن يعدني بأنه لن يؤذيني.

رفعت مِيا أحد حاجبيها مرددةً:

- ماذا؟!... يعدكِ!.. طلبتِ منه هذا؟!!

- نعم.. لا أعرف لماذا؟.. تصرفت بسذاجة وكأن وعده لي يكفي.

ضحكت مِيا:

- سذاجة فقط!... بل أكثر من ذلك... إذاً لا تعرفين ملامحه ولا حتى اسمه على ما أعتقد.

أومأت برأسها إيجاباً.. ثم اعتدلت قائلة:

- مهلاً... صوته... أذكر صوته جيداً... حادث أمس وكأنه مسجل في رأسي.. وجوه هؤلاء المراهقين أصواتهم... وصوته.. لو سمعته سأعرفه في الحال.

- المعطف يبدو غالي الثمن... سيعود من أجله.. أو سيعود ليطمئن عليكِ.

وقفت آني تنزع عنها المعطف:

- أرجو أن يعود... لم أشكره كما يجب.. أرجو حقاً أن يعود.

وقفت مِيا أيضاً لتتعلق بذراع آني مرددة:

- أنتِ محظوظة.. لقد عثرتِ على ملاكك الحارس.

دفعتها آني برفق:

- توقفي عن هذا.. أنا لست في حالة تسمح بالمزاح.

- مفهوم.. عليّ الذهاب الآن.

أوقفتها آني:

- لا.. أرجوكِ.. أنا لن أخرج اليوم.. أشعر بالخوف فعلاً.. ابق معي.. لنذهب للعمل غداً سوياً.

فكرت للحظات ثم قالت:

- حسناً.. لا مانع عندي.. سنقضي اليوم معاً.. سأتصل بعزيزي باولو وأخبره أنني سأبقى هنا.

- هل عاد من ايطاليا؟!!

- لا.. ليس بعد.. لكنني أحب أن يعرف أين يجدني دوماً.. إنه ايطالي عزيزتي لا تنس.

ابتسمت آني وقد ارتاحت كثيراً لوجود رفيقتها معها، ولاحت منها التفاتة للمعطف الذي وضعته جانباً وتمنت حقاً أن ترى وجه صاحبه.

****

"آني... آني... هيا سنتأخر"

وصل لها صوت رفيقتها بشكل مشوش إلى أن شعرت بمن يحرك كتفيها بقوة..

فتحت عينيها بصعوبة لتنظر لوجه مِيا التي لم تبدو بأنها كانت نائمة بجوارها على الإطلاق!!..

تمتمت بكسل:

- كيف تستيقظين باكراً بتلك السهولة؟.. رغم نومنا في ساعة متأخرة.

- أخبرتك من قبل... عزيزتي أنا منبة متحرك.. هيا لا يجب أن تتغيبي عن العمل ثانية اليوم.

تثاءبت وهي تمدد ذراعيها على الفراش قائلة:

- حسناً.. لا تنس كوب قهوتي المفضلة.

- إنه جاهز... هيا.

ابتسمت لتصيح:

- أحبك مِيا.

أجابتها باقتضاب مصطنع:

- أعلم.

لتضحكا معاً..

تركتها مِيا تستعد... وترتدي ثيابها.

مِيا رفيقتها المقربة والوحيدة.. لا تذكر أنها تقربت من أحد من قبل كما تقربت من تلك الفتاة الصغيرة.. حين كانت معها بالمدرسة الاعدادية، فلقد اعتادت أن تكون وحيدة.. اعتادت أن تكون أمها فقط صديقتها.. ولكن فجأة وبدون سابق إنذار ماتت أمها.. فقدت أمها وصديقتها الوحيدة في لحظة واحدة.. كانت تذهب للمدرسة فقط لتبكي بعيداً عن عينيّ والدها الذي يحزن لرؤية دموعها، ولم ينتهك أحد عزلتها إلا مِيا.. هي الوحيدة التي قررت كطفلة أن تنقذها من أحزانها..

كانت تجلس بجوارها فترات طويلة تقص عليها الكثير من القصص التي تحب.. قصص خيالية.. قصص حقيقية... ومواقف مضحكة..

كانت تسمعها وفي نفس الوقت تبكي.. وبعد عدة أيام استطاعت حقاً أن تضحك.. تضحك من قلبها حين اندفعت نحوها مِيا بقوة وهي تلوح لها إلا أنها تعثرت وتلطخت بالطين حتى وجهها.. وبدلاً من أن تغضب مِيا ضحكت مما جعلها هي أيضاً تضحك.. ومنذ تلك اللحظة.. لم يفترقا.. ونجحتا في هذا إلى الآن.

خرجتا من المنزل في طريقهما للمدرسة التي تعملان بها معاً كمدرستين لمرحلة الروضة، حيث فضلتا التعامل مع الأطفال الصغار عن المراهقين الأكثر عناداً، فبعد أن أنهتا المرحلة الثانوية اتجهتا لدراسة مناهج التربية والتدريس للأطفال، ومنها حصلتا على عمل في إحدى المدارس الشهيرة بأمستردام.

فور دخول آني الى مدرستها اندفع نحوها طفل دون الخامسة منادياً إياها باسمها ليتعلق بقدمها وهي يسألها أين كانت؟!..

ابتسمت لتحمله بين ذراعيها مقبله رأسه باعتذار:

- سامحني.. كنت مريضة.

قال بطفولية:

- لا تمرضي ثانية.

ضحكت قائلة:

- سأحاول... هيا.. عد لرفاقك.

اقتربت منها مِيا قائلة:

- أليكس.. متعلق بكِ بشكل مرضي... برغم أنه هنا منذ عدة أيام فحسب.

- لا تقولي هذا.

- طبعاً... فأنتِ لم تر ما فعله أمس حينما لم تظهري.. لقد ظل يبكي وهو ينادي عليكِ.. ولم يسمح لأحد بالإقتراب منه، وظل على هذا الحال حتى عاد والده لأخذه.

تأملته آني بآسى:

- مسكين.. ماتت أمه منذ شهر واحد.

- أيذكرك بنفسك؟!!

- بالعكس.. كنت أوفر حظاً منه.. لقد رأيت أمي وعشت معها سنوات بعكسه هو... هيا دعينا نهتم بعملنا.

مع بدأ اليوم الدراسي استطاعت آني أن تتناسى كل ما حدث لها وساعدها على ذلك ابتسامات وضحكات الأطفال التي يستطيعون بها حقاً أن يلونون أي حالة رمادية لها بألوان الطيف كلها... وإن كانت تنتابها لحظات حزن كلما تعلق أليكس بقدميها إذا ما ابتعدت قليلاً عنه... يكره أن تفارق بصره ولا يطمئن للمغادرة قبل أن تعده أنها ستكون هنا بانتظاره حين يأتي غداً.

لا يمكنها تخيل شعور هذا الأب، وهو ينظر لابنه في عجز مرير.. فلقد نامت أمه للأبد ولن تستيقظ أبداً!!.. لكن كيف يفهم طفل مثله هذا الأمر...

تذكرت حين حدثها والدها بعدما ماتت أمها... كانت مستوعبة لما حدث لكنها لم تفهم أبداً لما اختار الرب أمها لتتركها وهي في أمس الحاجة لها... ضمها أبيها لصدره هامساً..

"أتعرفين أين هي الآن؟!... إنها في السموات العُلى.. حيث لا ألم.. لا حزن.. إنها الحياة الأبدية التي وعدنا بها يسوع.. يجب أن تكوني سعيدة من أجلها.. فلقد أحبها الرب فأراد لها السعادة.. ويوما ما سيحبنا أكثر وأكثر ويأخذنا إليها... علينا أن نحسن التصرف حتى نتمكن من ذلك... عليكِ أن تحسني التصرف دوماً كي تبتسم أمك كلما رأتك.. اتفقنا"

لولا أباها ما كانت لتتحمل، كان نعم العون لها إلى أن كبرت.. صحيح أنها ظلت فتاة منطوية لا تملك غير رفيقة واحدة.. ولا تحب الاختلاط كثيراً... لطالما تسخر منها مِيا لأنها حتى الآن لم تتعرف على حبيب قط.. ودوماً ترفض تلك النوعية من العلاقات.. فلقد رباها أباها على أفكار شرقية تبعا لبلدته الأم... ولم يرحب أبداً بتناسي ذلك.. بل كان يقول لها..

"لن تجدي المسيحية الحقيقية إلا في بلاد الشرق الأوسط"..

وأحبت هي حبه لبلاده وعاداتها فآمنت بها وقررت الإلتزام بما يرضيه منها والحفاظ على هذا مدى الحياة.. ولهذا يندهش كل من يعرف أن فتاة هولندية في الثامنة والعشرون من عمرها ولا تزال عذراء.

كان موعد راحة الغداء... فخرجت كعادتها إلى المقهى الصغير المقابل للمدرسة والذي يقدم وجبات صغيرة لروادة والتي هي أحدهم منذ عملت بتلك المدرسة أي منذ ٦ سنوات وترافقها كالعادة مِيا.

جلستا في طاولتهما المعتادة والتي تقريباً كتبت باسمهما، لتطلبا شطيرتيّ البرجر المفضلة لكلتيهما مع قهوتهما التي تعتبر المشروب الرسمي لهما في كل وقت..

وكان أول ما تحدثتا بشأنه... صاحب المعطف.

لتقول ميا وهي تلوك لقمة من الشطيرة:

- هل تعتقدين أنه سيعود؟!

زفرت آني في حيرة:

- لا أعلم... أتمنى حقاً أن يعود.

ابتسمت مِيا بمكر قائلة:

- لماااااذاااا؟!

عقدت آني حاجبيها:

- لأشكره.. ولأعيد له معطفه.

- هذا فقط!!

- وهل يوجد سبب آخر؟!!

عادت تقضم مِيا من الشطيرة قائلة:

- ربما... ليس كل يوم نلتقي بملاكنا الحارس!!.

ابتسمت آني مرددة:

- هل كل من يساعدنا يوماً يصبح ملاكنا الحارس؟!!

- الأمر مختلف معكِ... فلقد ظهر لكِ من العدم... ساعدك واهتم بأمرك في أضعف لحظاتك... ومع ذلك لم تر ملامحه .. ولا تذكرين إلا صوته... واااو... أشعر أن الأمر مثير.

اتسعت ابتسامة آني... فهي توافق رفيقتها ، الأمر فعلاً مثير... فصوت منقذها يتردد في عقلها طوال الوقت حتى أنها حين يمر بجانبها أحد ترهف سمعها له لعلها تسمع ذالك الصوت مجدداً.

"كيف حالك؟!!.. افتقدت المكان"

اتسعت عيناها فور سماعها لتلك العبارة وتعرفها على الصوت الذي حفظته عن ظهر قلب، لاحظت مِيا ما أصاب رفيقتها لتقول:

- ماذا حدث؟!...

- صوته!!

- صوت مَن؟!!

- إنه هو.. لا يمكنني أن أخطيء صوته.. الذي تحدث منذ لحظات.

مدت مِيا عنقها لترى ذلك الزائر صاحب الصوت العالي لتسقط عيناها على رجل ذو ملامح شرقية.. ببشرته القمحية.. وشعره القصير حالك السواد... ولحية خفيفة لم تزده إلا وسامة، فعادت ببصرها لآني قائلة:

- أمتأكده أنه هو؟!!..

أومأت برأسها وقد زاد توترها، فهزت مِيا كتفيها قائلة:

- حسناً.. لا بأس به... لكنه ليس هولندياً... لا يبدو أروبياً حتى.

تخيلت آني الكثير والكثير من الوجوه التي تلائم صوته، لكن معظم تخيلاتها كانت تحمل الطابع الأوربي وبما قالته مِيا فكل تخيلتها كانت خاطئة.

- هيا.. التفتي... ألن تنظري له؟.. يبدو أنه من رواد هذا المكان... لكني لم أنتبه له من قبل.

التفتت بحذر لا تعرف سببه، لتراه يقف يتناول قهوته محدثاً ساقي المقهى، الذي بدا وكأنه يعرفه جيداً...

لم تتمكن إلا من رؤية ملامحه الجانبية تمنت لو اقتربت أكثر لتحدق بوجه وتستمع لصوته لتتأكد... لكنها تشعر أنها واثقة من الصوت الذي سمعته.. إنه هو... بالتأكيد هو.

- ألن تفعلي شيئاً؟!!

سألتها مِيا فأجابت:

- وماذا يمكنني أن أفعل؟!!

- إنه لم يركِ... على الأقل أشكريه وردي له معطفه.

انتاب آني بعض التوتر والحرج لتهز رأسها قائلة:

- لا أستطيع.. ماذا إن كان شخصاً آخر... لا أستطيع... لن أذهب.

زفرت ميا في ضيق:

- باللّه عليكِ.. ستتركينه يذهب؟!!!.

عادت آني ترمقه بنظرات جانبية بدا أنه أنهى قهوته سريعاً والتفت ليغادر:

- يا الهي سيغادر!!.

وقفت مِيا قائلة:

- ليس بهذه السهولة... ولكن... إن لم يكن هو نفسه... سأقتلك... أو سأدع باولو يفعل.

حدقت بها آني:

- ماذا ستفعلين؟!!

- لن نفقده بهذه السهولة.. ماذا لو لم يعد؟!!

تركت آني وهي تحمل كوب قهوتها لتتابعها نظرات آني بقلق، كان الرجل في طريقه للخارج فعلاً لولا أنه توقف بعد ارتطام تبعه سكب شيء سائل على معطفه..

عقد حاجبيه ليحدق بوجه تلك الشابه صاحبة الاصطدام التي وضعت كفها على فمها وهي تتأسف:

- اووووه... أعتذر.. أعتذر بشدة لم أنتبه لحركتك أسفة.. أسفة حقاً.

ظل يحدق بها وقد بدا الغضب على ملامحه للحظات ثم تلاشى وهو يقول:

- لا بأس... بالتأكيد لم تنتبهي... فما الذي ستستفيدينه من تلطيخ معطفي؟!.

أخفت آني وجهها بين كفيها حرجاً:

- يا الهي، مِيا... يا لكِ من مجنونة!!

رفعت مِيا كفها قائلة:

- أعطيني معطفك.. توجد مغسلة قريبة جداً... ستنظف البقع وتجففها في وقت قصير جداً... اسمح لي بدعوتك على أي مشروب كاعتذار مني... تفضل.. أجلس أنا ورفيقتي هناك.

تبع إشارة يدها لتلتقي عيناه بعينيّ آني التي هربت بعدها للنظر بعيداً، فقال:

- يبدو أن رفيقتك لا تحبذ هذا.

- لا على الاطلاق.. هي فقط خجولة كثيراً.. ولا تعتاد على الغرباء سريعاً.... تفضل... تفضل... مهلاً.. معطفك أولاً.

خلع معطفه قائلاً:

- حسناً.. أرجو أن تنتبهي له... فلم يتبقَ معي غيره.

رفعت حاجبيها قائلة:

- ماذا؟!!

- لا عليكِ.

تبعها لطاولة آني لتقول:

- آني... رأيتِ ما حدث طبعاً.. سيجلس معنا حتى تنظيف معطفه.

رددت بهمس:

- لا بأس..

وإن منحت مِيا نظرة معاتبة، وصل لها صوته الذي أعاد لقلبها رجفته:

- آسف على الازعاج.

رفعت بصرها نحوه لترى وجهه أخيراً، تعلقت بعينيه السوداوين التي ضاقتا للحظة وهو يرمقها طويلاً. ليظلا محدقان ببعضهما البعض لتقول مِيا مبتسمة:

- ماذا هناك؟!... هل تعرفان بعضكما؟!!

ابتسم الرجل قائلاً:

- لا أصدق.. إنه أنتِ حقاً.. كيف حالك؟!... أفضل؟!!

أومأت برأسها وهي تقف في مواجهته لتقول:

- أنت هو إذاً... أنا أسفة.. لم أتمكن من رؤية وجهك... فلم أتعرف عليك؟!!

هز رأسه متفهما:

- لدي دليل على أنه أنا.. لا زال معطفي عندك.. ومعطفي الثاني مع صديقتك... مما يجعلني أتساءل.. ألديكما مشكلة ما مع معاطفي؟؟!!.

ضحكت مِيا ملأ فيها بينما ابتسمت آني بهدوء، لتقول مِيا:

- أنت إذاً الفارس الذي ظهر لها وأنقذها... يا لها من مصادفة رائعة!!

- هي كذلك فعلاً.

قالها وهو يجلس وكذلك آني بينما قالت مِيا:

- سأعود بعد لحظات.. فقط سأرسل المعطف مع أحدهم.

تركتهما ليحل عليهما الصمت للحظات قبل أن يقطعه هو بقوله:

- من الجيد أنكِ بخير... لقد كنتِ في حالة انهيار شديد.. تصورت أنها ستستمر لأيام.

- وأنا أيضاً تصورت هذا... لكن.. أنا بخير... آسفة لأنني لم أشكرك كما يجب.. أنت لا تعرف كم أنا ممتنة لمساعدتك لي.. لقد عرضت نفسك للخطر دون أن يكون بيننا أي صله سابقة.

هز كتفيه قائلاً:

- فعلت ما كان سيفعله غيري.. لست مختلف كثيراً.

عادت مِيا لتنضم اليهما قائلة:

- لم أتأخر صحيح؟!... أنا مِيا فيليكس.

قالتها وهي تمد يدها لتصافحه، فصافحها قائلاً:

- أهلا.. وأنا آدم مراد.

ثم التفت لآني قائلاً:

- صحيح.. لم أعرف اسمك بعد.

- آني رفقي.

قالتها بخفوت ليقول:

- آني... اسم رقيق... لكني اعتقد أن اسم رفقي اسم عربي؟!.

أومأت برأسها قائلة:

- هذا صحيح.. فوالدي من الشرق الأوسط... عربي... وأنا أيضا احمل اسم عربي... آني هذا الاسم المتداول هنا... أما اسمي الأصلي فهو حنين.

- حنين..

لا تعرف سبب تلك الرعشة التي اجتاحتها وهو يردد اسمها بهذه الطريقة الحانية وبلهجة عربية واضحة، فحملت كوب قهوتها الذي تقريبا قد برد لترتشف منه بحثاً عن التماسك مرة أخرى، وكأن مِيا شعرت بما أصاب رفيقتها فابتسمت لتلفت انتباهه لها قائلة:

- وماذا عنك ملامحك تبدو شرقية؟!!

- نعم... فأنا أيضاً من الشرق الأوسط.

حركت مِيا رأسها قائلة:

- توقعت هذا فملامحك تدل على ذلك.

تعلق بصره بآني قائلاً:

- على عكسكِ أنتِ.. فملامحكِ أوربية جداً.

ابتسمت في حياء بسبب تحديقه بها لتقول:

- أشبه أمي كثيراً.

ظهرت بسمة على طرف شفتيه:

- إذاً فهي جميلة جداً.

بدت كمن لم يستوعب ما قال وهي تحدق به فحسب لتصيح مِيا وهي تضرب كفاها معاً:

- يا له من اطراء مهذب.

خفضت بصرها عندما فهمت قصد مِيا.. وشعرت بالسعادة التي جعلتها تنهر نفسها.. لطالما سمعت كلمات الاعجاب من الكثير لكن هذه المرة هي سعيدة بما سمعت.. وكأنها كانت تتمنى أن تعرف كيف يراها... وهذا جعلها تتساءل... ما المختلف في هذا الرجل الذي تلتقيه للمرة الثانية فقط... ما المهم في رأيه بها وبجمالها؟..

قالت مِيا وكأنها تذكرت شيء:

ـ صحيح .. اتفقنا ان أدعوك على مشروب.

لوح بكفه قائلاً:

ـ لا عليكِ... وكأنكِ فعلتِ.. لقد أنهيت قهوتي للتو.. ليس لدي رغبة في شرب أخرى.

هزت رأسها نفياً وهي تقول باصرار:

- أنت لا تعرف مِيا.. مادام وعدتك بهذا.. فيجب أن أفِ بوعدي.

ـ حسناً.. فلنجعلها في وقت آخر إذاً.. أنا آتي هنا كثيراً.

ـ فليكن.

لم تستطع آني أن تمنع نفسها من تأمله أثناء حديثه مع مِيا، كان يحتفظ بابتسامه هادئة على شفتيه.. تشعر بالنظر إليه أنه يمتلك شخصية ثابتة ومتزنة.. ليس من النوع الذي يضحك بالصوت العال أو يتحرك كثيراً في جلسته.. كان رزيناً جداً حتى في كلماته..

لاحت بسمة على شفتيها وهي تتذكر لكماته وركلاته التي أطلقها في وجوه الشباب من أجلها.. فعل هذا من أجلها.. وكأنه تحول إلى حارس شخصي لها... لم تمنع نفسها من الجلوس بارتياح وثقة في أنه ما دام هنا لن يؤذيها أحد.. وكم هي محظوظة في أنه يكون حارسها الشخصي بهذة القوة والوسامة أيضاً.

انتبهت لنظراته لها فهربت بنظراتها إلى جانب آخر.. لم تعرف بالضبط متى نظر لها.. هل رآها وهو تتأمل ملامحه وتبتسم.. يالاحراج... تدفقت الدماء إلى وجهها بسرعة ليزداد حمرته بشكل مفاجيء، وعادت بحذر تنظر له لكنها وجدته منتبه لمِيا مجيباً على أسئلتها التي لا تنتهي..

تنفست الصعداء وصفت ذهنها من تلك الأفكار التي تدور فيه لتشاركهما الحديث.

استمر حوارهم لدقائق أخرى تعرفا فيه عليه أكثر... وشعرت آني ببعض السعادة حين علمت أنه من نفس بلدة أبيها الأم... أي كلاهما في الأصل من وطن واحد... مما جعلها تعتقد أن سبب ارتياحها له سريعاً أن له نفس الأصول التي كانت لأبيها...بعد ذلك سألته ميا.. عن سر اتقانه للغة الهولندية، فأعلمهما أنه يجيد أربع لغات... العربية، والإنجليزية، والهولندية، والألمانية... وأنه يعمل حالياً في دار نشر كبيرة كمترجم، لتكتشف آني شيئاً آخر مشتركاً بينهما.. شغف القراءة ومطالعة الكتب، واندهشت بعد أن أخبرها أنه يزور المكتبة العامة دوماً مثلها ومع ذلك لم يلتقيا من قبل.

عاد أحدهم بالمعطف ليوقف حوارهم، فوقف آدم ليغادر لكن مِيا أوقفته قائلة:

- لا تنسَ.. لديك دعوة هنا.

ابتسم لها:

- لن أنسى طبعاً.

وقفت آني قائلة:

- ومعطفك أيضاً... هل ستكون هنا غداً لأحضره معي؟!!

- لا تشغالي بالك بالأمر.

قالها ملوحاً فأصرت على ذلك، فوعدها أنه سيكون هنا غداً في نفس الوقت تقريباً.

ملأتها السعادة أن لقائها الثالث به لن يتأخر كثيراً، التفت ليغادر ليودع ميا... ثم نظر لآني قائلاً:

- أراكِ غداً حنين.

بهتت لمنادته باسمها العربي، وتابعته ببصرها حتى اختفى، سحبتها مِيا قائلة:

- هيا تأخرنا.. سيقتلوننا!!.

تبعت رفيقتها وأن ظل عقلها يردد اسمها الذي نطق به، ليكون ثاني شخص فقط بعد ابيها يناديها باسمها العربي.

****

من الجيد أن تشعر أن القدر يعاونك، أنه يُيسر لك ما تصورت أنه صعب المنال، لم يتصور أن تكون صديقتها هي السبيل لها ثانية، فلقد كان ينوي أن ينظر لها وهو في طريق خروجه وكأنه انتبه لها في اللحظة الأخيرة ثم يقترب منها ليتحدث معها، لذا تعمد الحديث بصوت عال لتنتبه لصوته، وهذا ما حدث بالفعل... لكنه لم يتصور أن تقوم رفيقتها بالمهمة بدلاً منه...

ابتسم في سخرية وهي يتصور أن الأمر بالكامل من تخطيط حنين بمساعدة رفيقتها.. فلم يخفَ عليه أن مِيا تعمدت أن ترتطم به وتلطخ معطفه بقهوتها... لينتهي به الأمر جالساً معها على طاولتها.

حنين تلك تربكه كثيراً... تصورها شخص آخر تماماً، لكنها تبدو خجولة.. هادئة... رقيقة... رقيقة جداً..

أصابته دهشة حقيقة لرؤية الخجل على ملامحها كثيراً في جلسته معهما... كان يعتقد أنها جريئة وأكثر قوة لكنها تبدو على العكس...

أحياناً يشعر أنها تتصرف كالأطفال... مستحيل أن يكون كل هذا محض ادعاء.. يبدو أنها لا تعلم شيئاً... لكن عليه ألا يتسرع في الحكم.. مازال أمامه الكثير من الوقت... هو يسعى لشيء ربما تعلم عنه وربما لا تعلم، لكنه واثق أنها السبيل الوحيد له... ولن يتراجع أبداً مهما كانت النتائج... لن يفشل هذه المرة.. لن يسمح لنفسه بالفشل.

ومع مجيء اليوم التالي... عدل هندامه وهو يستعد للقاء الجديد بينه وبينها... عليه أن يجعل تحركاته أسرع.. يجب أن يستميلها له بشكل غير مباشر وناجح في نفس الوقت..

واليوم هو البداية الحقيقة.

"فلنبدأ آدم... وإياك والخسارة"..

****

هل يمكن أن تترقب رؤية شخص قابلته مرتين فقط؟!..

هل يمكن أن تتأنق في ملابسك وتغيرها أكثر من مرة لتقتنع أنه سيراك في أبهى صورة؟!..

كان هذا حال حنين وهي تبدل ثيابها أكثر من مرة، لتختار الأفضل للقاء آدم اليوم... تشعر بحماسة غير عادية... حماسة تعجبت منها فلم يكن الجنس الآخر داخل دائرة اهتمامها... لكنها طالما أمنت بفكرة توأم الروح.. كأبيها وأمها... شخصان من بلدين وثقافتين متخلفتين ومع ذلك نشأ بينهما حب عظيم... فكانت تسمع أبيها يذكر أمها بلقب توأم روحه، مما جعلها تتمنى أن تلتقي يوماً بتوأم روحها.. فلم تتأثر أبداً بكلمات إعجاب وحب لم تمس شغاف قلبها ، ولكنها في لحظات تعلقت بصوته...

دق قلبها لدى سماعه يذكر اسمها العربي.

"حنين"

"أبي.. لمَ تناديني بهذا الاسم... اختارت لي أمي اسم يناسبني أكثر"

"لا تقولي لي أنك لا تحبي هذا الاسم... فهذا يحزنني، حنين... أنا أحبك ابنتي واسميتك حنين لأنني دوماً أحن لوطني... وأنتِ تمثلين لي حنيني له... اسمك غالي لدي.. وسأكون الوحيد الذي يناديكِ به... فأرجوكِ أحبيه لأجلي"

"حسناً أبي... سأحبه لأجلك"

ألقت نظرة أخيرة على طلتها النهائية.. لتبتسم برضا... وهي تعدل كوفية صوفية على عنقها لم تخفِ ياقة كنزتها البنية العريضة، ذات الأكمام المتسعة نسبياً، وقد ارتدت بنطالاً من الجينز لتخفي قدميها ومنتصف ساقها في حذاء شتوي طويل العنق.

وأنهت تلك الطلة بقبعة رأس صوفية تحمل خطوط ملونة متعرجة.. منحت وجهها المزيد من الوضوح لملامحها الطفولية الجميلة.. وتحرر بعض من خصلات شعرها البنية من الجانبين...

استعدت للخروج حاملةً المعطف الجلدي وتضعه في حقيبة ورقية أنيقة.. مرددة:

- ستعود لصاحبك... بلغه سلامي.

ضحكت على نفسها وهي تخطو بنشوة لم تفهم سببها لتلتقي برفيقتها مِيا، لتستوعب أنها ربما بالغت قليلاً في تأنقها مع نظرة مِيا لها وهي تقول:

- ما كل هذا؟!... تبدين رااائعة... هل تنوين الالتقاء بشخص مميز؟!!

لوحت لها غير مبالية لتؤكد لها أنها في مزاج أفضل اليوم فحسب، لكن بسمة مِيا الماكرة أقنعتها بأن كلامها غير مقنع أبداً... لكن هذا لا يهمها.. فهي كالصفحة البيضاء لرفيقتها يمكنها أن تقرأها في أي وقت.

ترقبت حنين الوقت في انتظار اطلاق ساعة الغداء، وما أن دخل وقتها فعلاً أسرعت مع مِيا للمقهى، ولكن اعترض طريقها الطفل أليكس متعلقاً بقدمها، نظرت له قائلة:

- أليكس.. عزيزي.. ماذا هناك؟!

ظل متعلقاً بها قائلاً برجاء:

- اطعميني.. كما كانت تفعل أمي.

مطت مِيا شفتيها مرددة:

- أليكس.. ليس اليوم...

لم يهتم أليكس بكلمات مِيا ليقول:

- اطعميني آني... أرجوكِ.

بدا التأثر على وجه حنين لتربت على رأسه الأشقر قائلة:

- حسناً أليكس.. سنتناول الطعام معاً.

جذبتها مِيا لتقول باستنكار:

- ماذا؟!!... وآدم... أعتقد أنه في انتظرنا الآن.. أتريدين أن يذهب تألقك كله هباءً؟!

زفرت بيأس:

- وماذا يمكنني أن أفعل؟!... إنه مسكين.

رفعت الحقيبة التي تحوي المعطف لرفيقتها قائلة:

- اذهبي بدلاً مني واعطيه له.. واعتذري له لعدم تمكني الحضور.

- أواثقة أنتِ؟!!

أومأت برأسها لتترك الحقيبة لها وتحمل أليكس على ذراعيها مقبلة اياه:

- حبيبي أليكس... هيا لنأكل معاً.

****

نقر آدم بأصابعه على الطاولة العريضة التي استقر عليها محدثاً ساقي المقهى تارة ومراقباً المدخل تارة أخرى، تسرب بعض اليأس لقلبه..

يبدو أنها لن تظهر اليوم... ليس من المفترض أن يتركها هي تتحكم في الأمور، عليه أن يقودها إليه.. دون حتى أن تشعر؟؟!!

فهل فتاة مثلها ستقتنع بفكرة الحب من النظرة الأولى؟... هل عليه السير اتباعاً لتلك النظرية؟!..

ضاقت عيناه وهو يفكر في الخطوة التالية التي عليه القيام بها، لكن قطع تفكيره نقرة خفيفة على كتفه ليستدير ويرى مِيا مبتسمة..

اعتدل محيياً إياها، جلست على مقعد بجواره لتطلب قهوتها وشطيرتها المعتادين..

بحث آدم بعينيه سريعاً.. فتأكد أن مِيا وحدها ،لاحظت هي بحثه فابتسمت قائلة:

- تعلق بها أحد أطفالنا فلم تستطع تركه.. قلبها رقيق جداً مع الأطفال.

أومأ برأسه متفهماً ليقول:

- لا بأس... لكني لم أفهم... ما المقصود بأحد أطفالنا؟!!

- أأووه... صحيح أنت لم تتعرف على عملنا.. كلتانا تعملان كمدرستين لرياض الأطفال في المدرسة المقابلة للمقهى.

- حقاً!!... هذا رائع.

- نعم... ومتعب.. ومسبب للصداع... وأشياء كثيرة لا تشغل بالك بها.

ضحك على كلماتها وهو يرشف آخر ما تبقى من كوبه، لينهض قائلاً:

- يجب أن أذهب.. لدي عمل.. بلغي حنين سلامي.

أوقفته قائلة:

- مهلاً... لدي أمانة لك.

رفعت له الحقيبة الورقية مردفة:

- إنه معطفك.

أخذه منها شاكراً، وأراد الإنصراف لكنها أوقفته ثانية مذكرة إياه بوعدها لدعوته فابتسم في هدوء قائلاً:

- لم أنسَ.. ولكن اجعليها في يوم آخر.. حين تكون حنين معكِ.

حدقت به للحظات لتتتسع ابتسامتها وهي تلوح بكفيها قائلة:

- أووووه.. فهمت.. لك هذا.

تابعته ببصرها حتى انصرف..

التفتت لتلوح لساقي المقهى الذي اقترب منها محيياً اياها، فابتسمت بدروها لترد التحية مع بعض كلمات الترحيب البسيطة، ثم سألته عن آدم.. ليخبرها أنه يأتي إلى هنا منذ فترة، وحين اندهشت لعدم لقاءها به مطلقاً استنتج الساقي أن هذا بسبب أنه يجلس دوماً على الطاولة العريضة ولم يجلس وحده على طاولة منفردة قط، كما أنه يبقى حتى انتهاء قهوته ثم يغادر في الحال....

هزت مِيا رأسها لتقول:

- فهمت... ولكن هل يأتي دوماً وحده؟.. لم يأتي من قبل بصحبة صديق.. أو.. صديقة؟.

هز رأسه نفياً:

- لا.. دوماً يأتي وحده... حتى سألته مرة أليس له صديقة؟.. قال أنه لا يحب هذه العلاقات؟.

رفعت إحدى حاجبيها لتتمتم:

- إنه يشبهها.. يا الهي!!.. أيكون هو فعلاً؟!!

****

انتهى اليوم الدراسي وقد أنهكت حنين كثيراً... خاصة من أليكس.. ولم تتمكن حتى من محادثة مِيا عن لقاءها بآدم.. كل ما عرفته أنها التقت به وردت له المعطف، لذا فور انتهاء اليوم أسرعت إليها، وكان لا يزال اليكس متمسكاً بها.

هزت مِيا كتفيها وهي تقول:

- أما زال متعلقاً بكِ... ألم يأتِ أبوه بعد؟!!

- لا.. ليس بعد.

حكت رأسها وهي تقول:

- لقد أتعبني أليكس كثيراً اليوم... حقاً أتعبني.

"آسف جداً"

وصلت لهما تلك الكلمة بصوت مليء بالحرج، لتلفتا إلى من أسرع نحوه أليكس مردداً:

- أبي.. أبي.

احمرتا وجنتا حنين في الحال، وهي تقول:

- أهلاً.. أهلا سيد ديفيد... كيف حالك؟!!

حمل طفله مجيباً:

- بخير شكراً لكِ.. وآسف على ما يسببه أليكس من إرهاق لكِ.

لوحت بكفها معتذرة:

- لا.. لا.. لم أقصد ذلك... صدقني... أنا أحبه كثيراً... اليوم كان متعلق بي طوال الوقت... لم أتمكن من متابعة زملائه.. هذا قصدي فحسب... أرجوك لا تسيء فهمي.

ظهرت بسمة خفيفة على شفتيه وهو يقول:

- أفهم... شكراً جزيلاً لكِ... أليكس تعلق بالمكان بسببك.. شكراً لكِ.

- إنه طفل رائع..

- أشكرك.

قالها ليستدير مبتعداً لتضع حنين يدها على قلبها:

- يا الهي... كاد قلبي أن يتوقف.. هل تعتقدين أنه يظن أنني أشعر بالضيق من أليكس؟.

مطت مِيا شفتيها قائلة:

- أعتقد أن تعلق ابنه بكِ.. كفيل بمنحه الاجابة المناسبة.

نظرت لساعتها لتقول:

- يا الهي علي العودة، باولو ينتظرني على الانترنت... أراكِ غداً.

تعلقت بها حنين قائلة برجاء:

- مِيا.. لا... لم تخبريني ما حدث مع آدم.

- آسفة عزيزتي، سأخبرك غداً... يجب أن أذهب.. آسفة.

- مِيا.. مِيا...

رددتها حنين بغيظ بينما رفيقتها تعدو مبتعدة.

زفرت بضيق وهي تستعد للمغادرة..

كان من عادتها إذا لم تتوفر معها السيارة أن تستقل سيارة أجرة للبيت، لكن بعد ما تعرضت له في المقابر بدت تشعر بالارتياب قليلاً، فإما أن تقلها مِيا.. أو أن تستخدم المواصلات العامة.

اتخذت طريقها إلى حيث يمكنها أن تستقل إحدى الحافلات العامة..

جلست على المقعد المخصص لذلك في انتظار الحافلة التي لم تتأخر كثيراً، لتستقلها مع بعض الركاب الآخرين..

وما أن استقرت في مقعدها وتحركت الحافلة شعرت كغيرها بمن يطرق باب الحافلة لتفتح مجدداً، وكفضول بشري عادي انتظرت لترى هذا المتأخر الذي يصر على الركوب هنا.

اتسعت عيناها حين سقطت عليه!! وكانت في دهشة حقيقية.. إنه آدم!!

جلس في أقرب مقعد له ولم ينتبه لها على الإطلاق..

عقدت حاجبيها وهي ترمق مؤخرة رأسه..

لمَ تشعر أنه أصبح يظهر في كل مكان تقريباً؟...

المقهى.. والآن الحافلة...

والغريب أنها لم تنتبه له أبداً في أي من تلك الأماكن قبلاً!!... هل يطاردها مثلاً بعدما حدث في المقابر؟.

هزت رأسها نفياً وهي ترفض سخافة تفكيرها... هي لم تكن تهتم بحفظ وجه كل من يمر عليها.. لربما مر بجانبها كثيراً وهي فقط لم تنتبه له..

هي لا تذكر أنها انتبهت لأحد من قبل... سواء هو أو غيره.. لا يجب أن تسيء الظن به بدون سبب.

لعله يسكن في الجوار.. من يدري؟!!

مرت محطتان ولم يتحرك من مكانه، بينما هي دورها في النزول المحطة القادمة....

ستمر بجانبه..

ماذا عليها أن تفعل؟!!

أتدعي أنها لم تنتبه له وتغادر الحافلة فحسب؟...

أم تلتفت إليه لتحيه بإشارة بسيطة وتغادر بعدها بهدوء؟!!

****

وقف يراقبها من بعيد، بعد خروجها من المدرسة..

سار خلفها وحافظ على مسافة مناسبة بينهما ، إلى أن توقفت في محطة الحافلات...

ظل يترقب تحركاتها ، وما أن ركبت الحافلة هرع ليلحق بها ، ليقرع باب الحافلة بقوة..

قرر أن يركب دون أن ينظر نحوها ، يكفي أنها سترتاب به فعلاً عندما تراه.. عليه أن يقنعها أن الأمر غير مقصود... وأنه يسكن بقربها بشكل طبيعي.

مرت محطتان وعلم أنها حتماً ستتحرك... فمحطتها هي القادمة، وسيكون عليها السير على الأقدام لمسافة ما قبل أن تصل لبيتها ، كل ما عليه فعله أن يبقى مكانه... ستقف أمامه الآن.. وسينظر لها في دهشة..

مهلاً...

ماذا لو لم تنظر له؟!!

هل يمكن أن تتجاهله؟!...

هل يمكن أن ترتاب فيه فتقرر تجاهله؟!...

أنقذها وشكرته وردت له معطفه... وتنتهي القصة بعد ذلك؟!

عقد حاجبيه وهو يتمتم:

- لا يهم... سأنزل خلفها سواء نظرت إليّ أو لم تفعل؟!.. لن أسمح لها بانهاء القصة.

تحركت حنين من مكانها ، لا تعرف لم تشعر بالتوتر!!...

لقد قررت ألا تنظر له.. وكأنها لم تنتبه له... فهذه هي طبيعتها.. هي ليست ممن تتابع الرجال.. وتلتفت لهم.

مرت بجواره لتقف أمام باب الحافلة شعرت به ينظر إليها... لكنها قررت تجاهل ذلك.. لن تتراجع.

"هيا أيتها الفتاة.. التفتي إليّ.. كُفي عن المكابرة... تريدين ذلك.. هيا.. التفتي"

جز على أسنانه حينما بقيت على حالها ولم تلتفت له، ودون قصد منه أو بقصد.. تأمل ملامحها..

تأمل بشرتها البيضاء الناعمة.. وقد تلون بعضها بحمرة جعلتها أكثر جاذبية... وجهها طفولي بعض الشيء.. لكن هذا لم يُزدها إلا جمالاً..

عقد حاجبيه غيظاً مما يفعل...

لمَ يحدق بها هكذا؟!..

ما الذي يهمه أن تكون جميلة أو قبيحة!!..

عليه الانتهاء مما يريد فعله وبسرعة

رفع أحد حاجبيه.. حينما فُتِح باب الحافلة ومع ذلك لم تتحرك من مكانها وبدت شاردة تماماً...

ابتسم في سخرية..

"تفكرين بي حتماً!!".

"آنسة.. ألن تغادري؟!!"

انتبهت حنين مع صوت السائق إلى باب الحافلة المفتوح على مصرعيه أمامها... فالتفتت إليه معتذرة..

لا تصدق أنها شردت لهذه الدرجة!!..

ظلت تفكر أتحدثه أم لا؟... إلى أن وضعت نفسها في هذا الموقف المحرج.

تحركت بسرعة لتغادر الحافلة وهي تلوم نفسها على شرودها غير المفهوم، تنفست بعمق وهي تعدل ثيابها... وتذكرت كيف كانت تعد نفسها للقائه... لتبتسم مرددة:

- لا بأس.. على الأقل مجهودي لم يذهب هدراً... لقد رآني ولو للحظات.

"آنسة حنين؟"

وصلتها تلك الجملة باللغة العربية.. استطاعت تمييزها بسهولة فلقد أصر أبوها على أن يعلمها لغة موطنه وتعلمتها فعلاً.. وانتهى استخدامها معها بعد وفاته.. ولم تتوقع أن يخاطبها أحد بتلك اللغة مجدداً.

التفتت وقد علت الدهشة ملامحها، ليقترب آدم منها مبتسماً:

- كيف حالك آنسة حنين؟

ظلت تحدق به للحظات ثم قالت بتوجس:

- كيف عرفت أنني أتحدث العربية؟!

رد بثقة مرحة:

- لم أعرف... لقد خمنت أنه ربما تكوني تعلمتيها نظراً لأن أباكِ عربي.. ويبدو أن تخميني كان صحيحاً..

رمقته بشك ملحوظ فحك جبهته قائلاً:

- هل أخطأت في شيء؟!!..

- وهل خمنت أيضاً أنني أستقل تلك الحافلة؟... فركبتها!... ثم أليس معك سيارة؟؟

رأت على ملامحه مزيج من الإحباط والغضب وهو يقول:

- أتتهمينني بشيء ما؟!!

بدا على وجهها الحرج فأردف قائلاً:

- معك حق.. أنا أيضاً شعرت بالدهشة حينما رأيتك في الحافلة، فأنا أستقلها معظم الوقت.. ويبدو أنكِ أيضاً تستخدمين الحافلة أحياناً... ولكن سيكون الأمر مفهوماً عندما تعلمين أنني أسكن في المنطقة المجاورة لكِ.....يبدو الأمر غريباً... لكن.. لعله لسبب.

عقدت حاجبيها مرددة:

- لسبب!!.. أي سبب؟!

- لا أعلم.... سنعرف مستقبلاً... هذا إن التقينا مستقبلاً... وإن كانت رؤيتي تثير فيكِ الريبة فثقي أنني لن أضايقك ثانية.. تمنيت أن ألتقي بكِ في المقهى... وشاء الله أن ألتقي بكِ هنا... شكراً على رد المعطف... وآسف على الازعاج، ولا... ليس لديّ سيارة... السيارة التي أقليتك بها يمتلكها أحد أصدقائي.. وداعاً.

بدا كمن يلقي كلمات دون انتظار لأي رد..

وبالفعل لم يمنحها أي مساحة للرد فقط دار على عقبيه مبتعداً.

مدت ذراعها... أرادت أن تناديه.. توقفه.. لكنها تراجعت، لتراقب ابتعاده عن ناظريها، ثم التفتت لتأخذ طريقها لمنزلها..

وإن بدأ أنين ضميرها في الإزدياد.

****

"ماذا!!!... وداعاً.. أنهيت اللقاء بتلك الكلمة؟!!"

صاح باسم بتلك الجملة وهو يحدق بآدم الذي جلس مرتاحاً على أريكته، مردفاً:

- بعد كل ما فعلناه... أنهيت كل شيء بهذه البساطة؟!!.

استرخى آدم أكثر على الأريكة قائلاً:

- كان هذا ضرورياً.. رأيت الشك والريبة في قسمات وجهها... كان يجب أن أقتل هذا الشك قبل أن يزداد.

ضرب باسم كف بكف قائلاً:

ـ أحسنت.. رااائع!!!... وأنهيت الأمر معها... ماذا سنفعل الآن؟!

هز آدم رأسه قائلاً:

ـ لا شيء.. لقائنا القادم سيكون بالمقهى.. وهي من سيتحدث إليّ... وستعتذر لي عن سوء ظنها.

ابتسم باسم بسخرية:

ـ ما هذه الثقة؟!... وماذا إن لم تتحدث؟!... ماذا لو فضلت الإبتعاد عنك؟... تعلم مثلما أعلم أنها لا تصادق الرجال عموماً.. ولم يكن لها حبيب قط...

ـ ولا أنا.. وستصل لها هذه المعلومة حتماً من صديقتها مِيا... لا تقلق، باسم... كل شيء سيكون على ما يرام.. وفور أن تتحدث معي... ثق أننا سنكون قطعنا نصف المسافة.

ـ سنرى أيها الواثق.

ـ أنا متعب سأدخل لأنام... البيت بيتك كما تعلم.

اتجه لغرفة نومه وأغلق بابها خلفه..

ألقى بجسده على فراشه واستكان للحظات، ثم دس يده في جيبه وأخرج حافظته، ليفتحها ناظراً لصورة صغيرة تجمعه بشاب آخر بدى أصغر منه بعامين أو ثلاثة..

كانا يضحكان في سعادة بالغة وقد رفعا كليها يده بعلامة النصر وهما يطوقان عنق بعضهما البعض...

ظل يرمق الصورة وقد بدا التأثر على ملامحه وهو يهمس:

ـ أفتقدك أحمد... أفتقدك كثيراً... شكراً لك... شكراً لك يا عزيزي.. ولا تقلق.. لن يذهب موتك هدراً.

قال جملته الأخيرة وعينيه تحمل الكثير من التصميم والغضب.

أعاد الصورة لحافظته ليضعها جانباً..

عاد نفس الأنين إلى قلبه مجدداً.. لا يعرف إن كان سيتخلص منه يوماً، أحمد لم يكن صديقه فقط، بل كان كالأخ الأصغر الذي يعلمه الكثير والكثير، ولم يتصور أن يعارضه في أحد أهم ما علمه إياه ليكون الثمن هو حياته!...

كم أعاد لفظة لو؟!!... لو؟!!... لو؟!!!

ولكنها كلمة لا تسمن ولا تغني من جوع..

قُتل أحمد..

قُتل بين يديه ولم يتمكن من فعل أي شيء... إلا مراقبته وهو يموت.. مع وعد لن يفيد رفيقه بألا يذهب موته هباءً.

أغلق عينيه مطلقاً زفرة حارة... هامساً:

- فقط أريد لهذا الأنين أن يتوقف... أريد أن أنام دون هذا الألم الضاري في صدري...

أعاد فتح عينيه لتعود نظرته الغاضبة:

- سترين أسوأ أيام حياتك، حنين لو اكتشفت في النهاية أنكِ تخدعينني... تُرى ما الذي دفعك للشك بي؟... هل هي طبيعتك؟!... أم تخشين أن أكتشف الوجه الآخر الذي لا يعلم أحد عنه شيء.

اعتصر قبضته بقوة:

- سنرى أيتها الرقيقة.. سنرى.

****

افترشت حنين سريرها ، وهي تمسك إحدى كتب التعامل مع الطفل تطالعها... يشغلها أليكس كثيراً وتتمنى أن تجد طريقة تجعله يتأقلم مع وضعه ويتقبل البقاء مع زملائه وباقي المعلمين ولا يكتفي بها هي فقط.

أغلقت الكتاب حين غالبها النعاس..

وضعته جانباً لتريح رأسها على الوسادة، وكان هو أول ما قفز إلى ذهنها.. آدم..

لا تعرف هل تصرفها صحيح؟!.. هل كان يجب أن تتعامل معه بهذا الشكل؟!!..

لكنها بالفعل كانت مندهشة لمَ أصبح يظهر حولها وكأنه الرجل الوحيد في العالم؟...

هل من المنطقي الشك به؟!

هي تعلم أنها أحياناً تبالغ في الشك بالناس.. لكن هذا أصبح جزء من طبيعتها لا يمكنها التخلص منه.. ومع ذلك تشعر بالوخز في ضميرها.. أنه الرجل الذي أنقذ حياتها.. ومع ذلك تصرفت معه بهذه الطريقة...

لقد تملكه الغضب منها.. رأت هذا في عينيه.. وهذا أحزنها كثيراً...

هل ستتمكن من الإعتذار له على شكها؟.. أم عليها أن تتناسى الأمر وكأنها لم تلتق به من قبل؟.

الغريب أنها تفتقده حتى قبل أن تعرف إن كانت ستراه ثانية أم لا!...

لم يشغل أحد تفكيرها كما فعل هو بها..

لم تكن تهتم برد فعل أي رجل على نفورها منه أو تجاهلها له... لكن معه تشعر بإحساس مختلف.

التفتت تلقي نظرة على صورة والديها قائلة:

- أبي.. ماذا كنت ستفعل لو كنت معي؟!... بماذا كنت ستنصحني؟.. أبي... أفتقدك كثيراً.. أحبك أبي.. أحبك أمي... عمتما مساءً.

سحبت غطاءها لتندس تحته في محاولة للبحث عن النوم الذي غاب عنها لأول مرة بسبب رجل.

منذ وصلت حنين للمدرسة وقصت لمِيا ما حدث أمس، وهي لم تسلم من نظراتها المستنكرة وتأنيبها الحاد، وحينما حل وقت راحة الغداء التقيتا لتذهبا كالمعتاد للمقهى.

أشاحت حنين بوجهها لتتفادى نظرات مِيا الغاضبة وهي تقول:

- لا أصدق أنكِ فعلتِ هذا؟!... هل تصورتِ أنه يطاردك فعلاً أو يريد إيذائك؟!

مطت شفتيها قائلة:

- لقد كان في الحافلة يا مِيا.

- وماذا في ذلك؟!... صدفة لا أكثر.

- أشعر أن صدفه تزداد منذ رأيته.

- لا يهم.. ولكننا نتحدث عن شخص أنقذ حياتكِ... عرض حياته للخطر من أجلكِ.. وبدلاً من شكره.. تتهميه بمطاردتكِ وكأنه شخص مهوس مثلاً!.. افترضي أنه يسكن بقربك... هذه الأمور تحدث ما المشكلة؟!.. أنتِ دوماً تشكين في كل من حولكِ... ترفضين أن تفتحي عقلك وقلبك لأي رجل.. أباكِ كان الرجل الوحيد في حياتكِ.. لكنه الآن ليس معكِ.. لن تبقي بقية حياتك هكذا.. امنحي أحدهم فرصة.. وأنا أرى أن هذا الرجل هو الأفضل.

رفعت حنين حاجبيها قائلة:

- لماذا؟!!

- لأنه يشبهك!.

- يشبهني!!.. ماذا تقصدين؟

اعتدلت ميا قائلة:

- حين رأيته في المقهى بدأ يبحث عنكِ بعينيه، وحين أخبرته بعدم مجيئك بدا الإحباط سريعاً على وجهه.

هزت حنين كتفيها مرددة:

- وما المشكلة؟!.. هذا لا ينفي ما أظنه.

عقدت مِيا حاجبيها قائلة بعناد:

- أنا لم أكمل... لقد رفض أن يقبل دعوتي التي وعدته بها.. وقال "المرة القادمة.. حين تكون حنين معكِ".. وعندما انصرف دفعني الفضول لسؤال ساقي المقهى عنه.. وعلمت أنه يمر على المقهى كثيراً، وخمني ماذا؟!... لم يصطحب أي امرأة معه لهذا المكان.. وقال الساقي لي.. أنه لا يحب تلك النوع من العلاقات... أي إنه مثلك.. صدفة أخرى لكني أظن إنها ليست سيئة.

عقدت حنين حاجبيها مرددة:

- لا يحب تلك العلاقات!!

- نعم... أليس هذا أمراً جيداً؟!!

هزت كتفيها في صمت وهما تدلفان إلى المقهى لتجلسا في مكانهما المعتاد.. وبينما تتناولان وجبتهما الصغيرة التفتت حنين يمنة ويسرة، فرفعت مِيا حاجبيها:

- هل تبحثين عن شخص ما؟!!

- بالطبع لا.

- عندما يأتي سيجلس هناك على الطاولة العريضة، هذا إن أتى.

- لا يهمني.

أفلتت ميا ضحكة ساخرة وهي تكمل قهوتها، بينما تدور الأفكار في رأس حنين... هل أخطأت حقاً؟!... هل بالغت في أفكارها وانحرفت عن المنطق؟.. منذ متى تتعامل مع الآخرين

بجفاء؟!... صحيح أنها تشك كثيراً في نوايا من حولها.. والسبب في ذلك أبوها، لم يكن يثق بالناس بسهولة.. حتى أنه جعلها فتاة منطوية جداً.. كان يخشى عليها من أي شخص.. لم يفتح منزله للزيارات.. لم يساعدها على الاختلاط بالآخرين... وكانت تعتمد عليه في ذلك... ويبدو أنها قررت أن تأخذ دوره في الشك بعد رحيله.

ثبتت نظرها عند المدخل ولم يتمكن قلبها إلا تمني رؤيته، ستعتذر له... ستفعل.. أنه يستحق منها اعتذاراً..

أخرجتها مِيا من أفكارها بقولها:

- دعينا نذهب لن يأتي.

التفتت لها مرددة:

- من؟!!

مطت مِيا شفتيها وهي تلملم حاجياتها لتقول ساخرة:

- عامل التنظيف... هيا آني.

تبعت مِيا التي سبقتها للخارج وقد علا وجهها الكثير من الإحباط، يبدو أنه فعلاً قرر ألا يضايقها.. ولكن.. هل سيغير عادته ليتفادى لقاءها؟.. لا تعتقد أن الامر سيصل لهذه الدرجة.

زفرت في ضيق وهي تدفع باب المقهى لتخرج بخطوات سريعة فلم تنتبه للجسد الذي اعترض طريقها فجأة متجهاً للداخل.. لترتطم بكتفه وهو يحاول تفاديها..

رفعت رأسها معتذرة لكنها ابتلعت كلماتها حين رأت عينيه تحدق بها وهي تحمل بعض الدهشة والغضب، حتى أنه أدار رأسه تاركاً إياها تحدق به ليدلف هو الى المقهى..

ظلت تحدق به بينما عادت لها ميا بعد أن رأت ما حدث لتمسك بكتفها:

- ماذا حدث؟!!

بدا الغضب على وجه حنين وهي تقول:

- لقد نظر لي وذهب... وكأنه لم يراني قبلاً!.

- أليس هذا ما أردته؟!

رمقت رفيقتها بضيق قائلة:

- فليكن... من يظن نفسه؟.. هيا لنذهب.

أوقفتها مِيا:

- مهلاً.. أنتِ مدينة له باعتذار... لقد اتهمتيه وشككتِ به.. وعليكِ أن تعتذري له.

- لماذا؟!

- لماذا؟؟؟... ربما لأنه أنقذ حياتك... هيا آني.. لم تكوني قاسية هكذا أبداً.

ظلت مِيا تحثها على الدخول مجدداً بينما شعرت أنها ستبدو سخيفة إن فعلت..

لكن مِيا لم تقبل برفضها قط.. ظلت تذكرها أنه من أنقذها وهذا أقل ما يجب أن تفعله من أجله...

تمتمت وهي تعود للمقهى:

- وهل اشترى حياتي لأنه أنقذني؟!!... تباً لكِ مِيا.

شعرت بثقل في كامل جسدها لكنها تحاملت حتى وقفت خلفه لتقول:

- آدم؟..

بدا لها أنه كان يفكر في عدم الإلتفات لها، ولكنه بعد عدة ثواني التفت ناظراً لها نظرة بدت غريبة..

انتظرت أن يقول أي شيء لكنه لم يفعل فقط يرمقها بنظراته...

فهمت أنه يريدها هي أن تتكلم... ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تقول بعربية تحمل لكنة غربية:

- أنا آسفة.. لم أقصد ما قلت البارحة.. لم رد أن أتهمك بشيء... أنا فتاة لم تعتد على التعامل مع الغرباء عموماً.. فأرجو المعذرة.

استمر في تحديقه بها للحظات قبل أن يعتدل قائلاً:

- لا بأس.. فهمت ذلك.. أنتِ تشكين في من حولك كثيراً.

ابتسمت باضطراب:

- نعم.. أنا كذلك.

نظرت لساعتها قائلة:

- علي العودة للمدرسة.

- حسناً.. إذا رأيتك مجدداً؟... ماذا عليّ أن أفعل؟!

- افعل ما تريد.. أنا مدينة لك بحياتي.

لوح بكفه قائلاً:

- دعينا ننسى هذا اليوم.. وكأنه لم يكن.

رفع كفه قائلاً:

- اسمي آدم.. آدم مراد... سعدتُ بمعرفتك.

صافحته قائلة:

- اسمي حنين.. حنين رفقي.. وأنا أيضاً سعيدة بمعرفتك.

تبادلا الابتسام قبل أن تلتفت حنين مغادرة... دون أن تنتبه للبسمة التي تحمل الكثير من السخرية والثقة في نفس الوقت التي ارتسمت على شفتيه.

****

سعادة غامرة اجتاحت حواسها بعد لقائها به.. بدت أكثر ارتياحاً.. أحست بالدهشة من المشاعر التي انتابتها.. فكم شعرت بالغضب منه لأنه تجاهلها بعد أن اصطدمت به.. لم تتصور أن يكون هذا هو رد فعله... ينظر لها وكأنها لا شيء ويمر بهدوء مبتعداً.. كانت وخزة شديدة تلك التي مرت بصدرها حينها.. كيف أمكنه أن يكون هكذا؟!... هل هو نفس الشخص الذي كان ودودا ورحيماً بها جداً؟!!

على ما يبدو أنه أراد أن يداوي كبرياءه بعدما عبرت عن شكها به.. وتعتقد أنه فعل... حتى نظرته الجافة لها أول اللقاء... والتي تحولت بعد ذلك لنظرة ودودة... جعلها تستوعب أنها أمام رجل ذو شخصية قوية.. يدرك ما يفعل.. ويثق بما يقول... شخصية عربية كأبيها.

بدأت الأمور في التحول فعلاً.. وكأن هذا اللقاء البسيط فتح الباب على مصرعيه لها وله.. لم تعد لقائتهما تعتمد على الصدفة.. كما كانت تقول.. وإنما أصبحت مرتبة ومدبرة باتفاق مسبق بينهما، ففي لقائهما الثالث بنفس المقهى تبادلا أرقام الهواتف وطال حديثهما معاً.. والتقيا بعد ذلك في محطة الحافلة ليركباها معاً وزادت معرفتها به ومعرفته بها...

وأصبحت تعشق استخدامها للغة العربية معه.. واستمر الحال بهما هكذا.. فأصبحت لا شعورياً تترقب مجيئة إلى المقهى أو الحافلة.. حتى أنها توقفت عن العودة مع مِيا لتنال صحبته مزيداً من الوقت.

لتتعرف حنين على مشاعر لم تصادفها قبلاً.... الشغف بمعرفة شخص ما أمر تصادفه للمرة الأولى.. ربما لأنه عربي.. وليس هذا فحسب هو من نفس موطن أبيها... لطالما كان الرابط

الخفي بينها وبين أبيها هو أصلهما الواحد... أصلهما العربي... فلم تتصور أن تجد هذا الرابط بهذه السرعة مع رجل آخر...

وتذكرت... حين كانت تخبرها مِيا كم تفتقد الكثير لعدم وجود تلك المشاعر بينها وبين شخص آخر، وكيف أنها كانت تردد حينها على مسامع مِيا أن ستشعر بها حتما حيت تلتقي توأم روحها... فهل من المعقول أن يكون آدم هو هذا الشخص؟؟!

لكنها في النهاية قررت أن تترك الامر للأيام القادمة فالواضح لها الآن أنها تشعر بسعادة بالغة برفقته هو فقط.

جلست تراجع بعض الاوراق في مكانها المعتاد بالمقهى، وبجانبها تجلس مِيا.. كانتا دوما تصلان قبل آدم الذي يأخذ المزيد من الوقت قبل أن يصل إليها..

وصل آدم ليحيهما جالساً، وتبادل بسمة ونظرة خاصة مع حنين التي ردتها له بامتنان، لتقول مِيا:

- توقفا عن إشعاري أنني طرف غير مرغوب فيه... أين أنت يا باولو لتنقذني من كل هذا؟!!.

ضحكت حنين قائلة:

- صحيح .. ألم يتأخر هذه المرة كثيراً؟

- بلى.. لكنه لم يحدد اليوم.. هو يحب المفاجآت.

أشار آدم طلباً لقهوته قائلاً:

- أتمنى أن ألتقي باولو هذا؟.. تتحدثين عنه كثيراً.

وضعت مِيا كفها على قلبها مرددة:

- حبيبي باولو.. ستحبه حتماً.

- أنا أيضاً!!!.. ألا يكفي أنتِ؟!!

ضحكتا على كلماته، ألا أن صوتاً مميزاً لكلتاهما قطع ضحكاتهما:

- مِيا!!... عزيزتي مِيا.. لقد عدت.

قفزت مِيا صارخة:

- باولووو... حبيبي!!!!.

ارتمت عليه تضمه إليها وهما يتبادلان القبلات غير مبالين بكل من يتابع هذا الثنائي الصاخب، بينما كست الحمرة وجه حنين وهي تتفادى النظر لهما.. فلم يكن يعجبها أبداً ما قد يفعله حبيبان أمام أعين الناس دون اهتمام لذلك.

- غريب أنكما رفيقتان.

قالها آدم مبتسماً وهو يتابع خجلها الواضح، فنظرت له قائلة:

- لماذا؟!

- تبدوان مختلفتان جداً... هي صاخبة جداً وأنتِ هادئة جداً.. هي لا تفكر قبل أن تفعل.. وأنتِ تفكرين كثيراً قبل أن تفعلي... ألا ترين أنكما مختلفتان؟!!

أومأت برأسها إيجاباً:

- نعم.. أعلم.. ربما لهذا اتفقنا.

توقف حديثهما لاستقبال باولو الذي قدمته مِيا له، لتعرفه بعد ذلك على آدم.. جلس مصافحاً آدم ليقول:

- أهلاً آدم... حدثتني مِيا عنك... في الحقيقة كنت مندهش.. فآني لا تصادق رجال أبداً... أنت الأول.

وكزت حنين صديقتها التي وكزت باولو بدورها وهي تضحك بافتعال:

- ماذا تقول يا عزيزي؟.. كيف كانت إيطاليا؟.

حدق بها باولو مندهشاً ليهمس:

- بماذا أخطأت؟!!

ابتسم آدم وهو يرمق حنين بنظرات جانبية بينما أخفت هي وجهها في اتجاه آخر، ليبدأ باولو حديثه عن وطنه إيطاليا.

عرف آدم أنه تعرف إلى مِيا منذ عامين.. ولم تستح مِيا أن تخبر آدم أنها من عبرت عن حبها لباولو أولاً... لأنه كان سيسافر إلى ايطاليا وخشيت ألا تراه ثانية، ليرفع باولو رأسه في استعلاء متفاخراً بتأثيره على النساء مما جعل مِيا تضربه بقبضتها محذره اياها من محاولة التقرب لأي أنثى أخرى. دافع باولو عن نفسه سريعاً مؤكداً لها أنها أعمته بالفعل عن كل النساء.

راقبهما آدم وحنين مبتسمان... بدا باولو شخص مناسب لمِيا... كانا متفاهمان جداً... ومتحبان أيضاً... وبرغم اعتراض حنين على فكرة الارتباط برجل دون نية للزواج... لكن حب مِيا لباولو جعلها تحتفظ بتلك الأفكار لنفسها فهي تعلم أن مِيا لن تقبل بهذا ولا حتى باولو... ولكن ما يؤرقها حقاً أن باولو لا يتحدث مطلقاً عن الزواج وكأنه لا يرى أنه في يوم من الأيام سيتزوج بمِيا... على الرغم من ارتباطهما جداً ببعضهما... ولكنها دوماً تأمل أن تنتهي قصة حبهما تلك بالزواج.

انتهت جلستهم معاً وحيا باولو آدم مرة أخرى للقاءه به، على أن يتكرر هذا مستقبلاً... افترقوا جميعاً واتفق هو مع حنين أن يلتقيا كالمعتاد عند محطة الحافلات.

وها هما يستقبلان عطلة الاسبوع... فانتابها بعض الضيق... مر على معرفتهما اسبوعان وفي عطلة الاسبوع الاول تمنت ان يدعوها للخروج ولم يفعل، وستبدأ الآن إجازة نهاية الأسبوع الثاني... أي سيمر يومان لن تراه فيهما.. ولن تحاول أن تطلب هذا.. عليه هو أن يفعل وليس هي.

التقيا في المحطة كما اتفقا... ليستقلا الحافلة... ويترجلا منها معاً.. أكمل معها الطريق حتى منزلها..

كانا صامتان.. ولكنها كانت مبتسمة... سعيدة لحرصه على ايصالها حتى منزلها، لتقف أمام بابها ملتفتة إليه قائلة:

- حسناً... إنها نهاية الأسبوع.. سأراك بعد يومين.

مط شفتيه قائلاً:

- يومان... هذا كثير!.

رفعت حاجباها قائلة:

- ماذا؟

حك شعره بكفه قائلاً:

- كنت أتساءل.. هل لديكِ أي ارتباطات غداً؟؟

ارتسمت السعادة على وجهها في لحظات قائلة:

- لا.. ليس لدي.

- حسناً... ما رأيك أن نقضي الغد معاً؟... يمكننا أن نتجول ونتناول الغداء معاً؟!

- سيكون هذا رائعاً.

- جيد... في أي وقت تحبين أن أمر عليكِ؟.

- يمكن أن نلتقي في الكنيسة... ونبدأ اليوم من الصباح.

عقد حاجبيه قائلاً:

- الكنيسة؟!!

- امممم... نعم.. ألا تذهب أيام الأحد الى الكنيسة؟.

هز رأسه بالنفي، حدقت به للحظات لتقول:

- أبي كان يقول أن مسيحيّ الشرق ملتزمون بهذه الأمور.

ابتسم آدم قائلاً:

- هذا صحيح.. لكني لست من مسيحيّ الشرق... أنا من مسلميّ الشرق.

اتسعت عيناها في ذهول مرددة:

- أ..أنت مسلم؟!!

أومأ برأسه مجيباً:

- نعم... هل يسبب هذا مشكلة؟

- لا.. لا أبداً.. لا أعلم لمَ اعتقدت أنك مسيحي.. اعذرني.

- لا مشكلة... اذهبي للكنيسة وعندما تعودي للبيت اتصلي بي... وسأمر عليكِ.

- اتفقنا.

لوح لها مبتعداً بينما ظلت تتابعه ببصرها...

لم تتوقع على الإطلاق أن يكون مسلم... ولا تعلم لماذا لم تتوقع ذلك؟؟... وهي تعلم أن أكثر الأديان انتشاراً في الشرق هو الإسلام..

دلفت لمنزلها لتدخل غرفة مكتب أبيها حيث يتوسطه إطار كبير لصورته معها ومع أمها...

تأملت الصورة للحظات وهي تقول:

- أبي.. هل كنت ستمانع أن يكون لي صديق مسلم... هذه الأمور غير مهمة هنا... لا أحد يسأل أحد عن دينه ولا يهتم أحد بالإختلاف هذا... لكنك أنت كنت تهتم بهذا... وكنت تحلم بتزويجي في أكبر كنائس أمستردام...

تنفست بعمق وهي تلتفت وتجلس على مكتب أبيها.. متسائلة في نفسها.. لمَ تشعر بالخيبة إذاً؟!... هل تتصور أن علاقتها بآدم قد تتطور إلى زواج مثلاً؟.. أليس هذا ما كانت ترددده؟!...أنها لن تفتح قلبها وحياتها إلا للشخص الذي تحب أن تكمل حياتها معه...

إنها ترفض مبدأ الصديق الحبيب السائد هنا بل وفي كل مكان تقريباً.. ولم تتصور أن يأتي عليها يوم تكون كغيرها من الفتيات.. تنتظر اتصال من رجل لا يربطها به علاقة واضحة المعالم... أن تفتقده وتتمنى أن تراه يومياً.

ولكن... إنه مسلم... هل هذا ينهي الأمر قبل أن يبدأ؟؟..

ألم تكن تحلم بأن تذهب مع زوجها وأولادها للكنيسة كل أحد.. وأن يجتمعوا حول شجرة الكريسماس في الميلاد... كيف سيحدث هذا لو تزوجت بمسلم؟!

هبت واقفة لتقول:

- يا لسخافتي عن أي زواج أتحدث؟!... لقد عرفت أنه من دين آخر اليوم فحسب رغم لقائي به لأسبوعان.. أنا لا أعرف عنه شيء إذاً... أفيقي آني.

لمَ تشغل بالها الآن بذلك الأمر؟.. ما تشعر به تجاه آدم هو شيء لم تشعر به من قبل.. لا يمكن أن تصفه بالحب.. ربما هو إعجاب.. وهي لم تعجب بأحد من قبل...

وكما قال باولو "إنه الأول".. وشيء ما بداخلها يرجو أن يكون الأخير.

****

انتهت من قداس الأحد لتعود لمنزلها سريعاً وقبل حتى أن تدخل اتصلت به تبلغه أنها في انتظاره.

عدلت هيئتها قليلاً، انتظرت وصوله.. وما أن طرق باباها حتى حملت حقيبتها لتخرج له... لتجده في انتظارها.. قائلة:

- جيد لم تتأخر.

- وهل يمكنني؟!!

ابتسمت بود ليرفع ذراعه لدعوتها لتتأبطه.. وبالفعل قبلت الدعوة للتعلق بذراعه قائلة:

- أين سنذهب؟!!

- فلنقرر معاً.. أين تحبين أن تذهبي؟!!

همهمت مفكرة:

- أمممممم... ما رأيك بفوندال بارك؟!!

- جيد... فلنذهب لفوندال بارك... وبعدها نتناول الغداء في ميدان دام.

- رااائع.

بدأ يومها الذي تمنت أن يكن مميزاً..

استخدما الحافلة التي أصبحت وسيلتهما المفضلة ليذهبا الى أكبر متنزة في أمستردام.. والذي يقصده السكان المحليين قبل السائحين.. وهو مكان يعج بالزوار للإستمتاع بركوب الدرجات الهوائية.. الرياضة الأشهر في هولندا.. وكذلك الإستمتاع بالمناظر الطبيعية التي تملأ المكان... بالإضافة للعديد من الأنشطة الأخرى.

أرادت حنين أن تتعرف على آدم أكثر... قررت أن تتناسى فكرة اختلافهما في الدين.. واكتفت بالراحة التي تشعر بها في قربه، لذا كان حديثهما عن عمله... حياته هنا في هولندا.. كان آدم متكلم جيد ومرح أيضاً.

والوقت معه يمر سريعاً... قص عليها العديد من المواقف الطريفة التي تعرض لها في بداية وجوده هنا.. نظراً لاختلاف ثقافته عن ثقافة البلد وكذلك عدم اتقانه للغة بشكل جيد... وليس في هولندا فقط.. فلقد قضى بعض الوقت في فرنسا أيضاً... حين كان في بداية شبابه... ليقص عليها أنه كان يسير يوماً في إحدى المتنزهات الكبرى.. ليفاجأ بحبيبين يقبلان بعضهما... وهذا كان أمراً مستنكراً بطبيعة الحال في وطنه وكان أمر يشاهده للمرة الأولى فلم يمنع نفسه من التحديق بهما بذهول.. ليفاجأ بالشاب ينادي على ضابط شرطة ليلقي القبض عليه بتهمة مضايقة الحبيبين وإشعارهما بالحرج... وخدش حيائهما... وإنها حرية شخصية وعليه ألا يتعدى على حريتهما.

كم ضحكت حنين وهو يتحدث عن هذا الأمر وأنه لم يصدق أنه قضى يوم كامل في السجن لهذا السبب قائلاً:

- هذا لو كان في بلادي... لقضى الحبيبان يومهما في السجن وليس أنا.

وأنه تعلم الدرس جيداً وكلما لمح من بعيد شيء كهذا يحدث يفر من المكان في الحال.

قضيا وقتاً ممتعاً بالفعل، كما أنهما استأجرا دراجة هوائية بمقعدين ليقوداها معاً... كم شعرت حنين بالفرح حينها... وهي فقط تتأمل مؤخرة رأسه التي تتحرك مع اصراره على الكلام معها حتى أثناء القيادة...

وكم حملت لها نسمات الهواء عطره الذي أصبح المفضل لديها... تشعر أن مشاعرها تتضاعف في لحظات... كل دقيقة تمر معه تعلقها به أكثر... تشعر باهتمامه به كلما تعثرت أثناء سيرهما.. خوفه عليها من ركوب دراجة بمفردها وقوله أنه سيطمئن أكثر لو ركبا دراجة واحدة معاً.. وعندما شعر بالخجل على ملامحها عرض عليها فكرة الدراجة ذات المقعدان...

انتهت رحلة الدراجة ليقول آدم:

- أنا جائع جداً... ألم تجوعي بعد؟!!

أومأت برأسها قائلة:

- في الحقيقة أنني أتضور جوعاً.

اتجها من فورهما إلى ميدان دام... الذي يحوي القصر الملكي.. والكثير من المطاعم والمحال المليئة بالهدايا التذكارية... تناولا وجبهتهما أولاً في أحد المطاعم... ليخرج هاتفه النقال قائلاً:

- لم نلتقط أي صور... أتحبين أن نلتقط صور معاً؟..

ابتسمت قائلة:

- بكل تأكيد.

خرجا من المطعم ليتجها إلى النصب التذكاري الواقع في منتصف الساحة ليقفا متجاورين وبدأ آدم في التقاط صور لهما معاً... لينتقلا بعد ذلك لواجهة القصر الملكي ويلتقطا المزيد من الصور...

كانت حنين تضحك بسعادة شاركها إياه آدم.. الذي تركها واقفة ليقف مقابلها ليلتقط لها صوراً منفردة لها ولم تمانع في ذلك، بل كانت تحرك رأسها في أكثر من موضع وهو يلتقط الصور لها.. وتلوح له مرة.. أو ترفع كفاها بعلامة النصر مرة.

توقف آدم عن التقاط الصور وهو ينظر لها فاعتراها الخجل وهي تلوح له قائلة:

- ماذا حدث؟؟.. لمَ تنظر لي هكذا؟!.

بدا كمن كان شارداً في ملامح وجهها ليحك رأسه مردداً:

- ها.. لا شيء... لا شيء.

ليضحك بعدها وتشاركه هي الضحك.

قاربت الشمس على المغيب، كانا يقفان متجاوران على أحد الجسور القصيرة التي تطل على قنوات امستردام الصغيرة...

يتابعان القوارب التي يتجول بها السائحون عبر تلك القنوات، التفت لها ليجدها تتأمل تلك القوارب بملامح هادئة وسعيدة... ملامح تشبه الأطفال.. من هذا الذي يقاوم اسعاد ذاك الوجه؟!!

- أتحبين أن نختم جولتنا في أحد تلك القوارب؟.

لاحظ البهجة عليها في الحال قائلة:

- حقاً!!.

لم ينتظر أمسك بكفها ليجذبها برفق لتتبعه ليستقلا أحد تلك القوارب..

كانت الأجواء رائعة خاصة مع دخول وقت المغيب فعلاً..

وما أن بدأ القارب بالتحرك لم تفكر كثيراً فقط شعرت برغبتها في ذلك... أراحت رأسها على كتفه دون أن تفكر في ردة فعله على ذلك..

أما هو فلقد نظر نحوها بعد أن استكانت برأسها على كتفه، ليبتسم رغماً عنه وقد بدا أن ما فعلت لم يضايقه على الاطلاق..

هدأ تماماً ورفض التحرك كي لا يضايقها.. وساد الصمت عليهما واكتفيا بمراقبة ما حولهما من مناظر خلابة على الضوء البسيط الذي يأتي من السماء بالإضافة إلى بدء الانارة الكهربية.

****

توقفا أمام باب منزلها ، ليتطلعا إلى بعضهما للحظات قبل أن تقول:

-آدم... كان يوماً رائعاً... كما توقعت وأفضل.

- هذا يسعدني كثيراً.. أنا أيضاً استمتعت كثيراً... شكرا لكِ حنين.

- بل شكراً لك آدم.

مرر أصابعه بشعره قائلاً:

- حسناً... عليّ العودة...

أومأت برأسها وقبل أن يلتفت قالت:

- اسمع.

نظر لها متسائلاً لتردف:

- ما رأيك أن أدعوك غداً للعشاء؟... سأعد لك طعاماً عربياً.

لا تعرف لمَ ظل يرمقها للحظات قبل أن يرسم بسمة هادئة على شفتيه قائلاً:

- ومن يمكنه رفض تلك الدعوة الكريمة؟... اشتقت حقاً للطعام العربي.

- حسناً... سأنتظرك السادسة مساءً.

- سأحضر في الموعد... هل أحضر أي شيء معي؟!

هزت رأسها نفياً لتقول:

- يكفي أن تأتي فقط.

- سأفعل إن شاء الله.

طلب منها الدخول وانتظر حتى أغلقت بابها..

ظل يحدق في بابها المغلق للحظات بوجه واجم لا يحمل أي تعابير أخرى، ليلتف مغادراً... ولم ينتبه لها وهي تتابعه من خلف نافذتها بابتسامة خجولة..

وضعت كفها على صدرها وكأنها تراقب خفقان قلبها المضطرب، كيف لا وهي أقدمت على ما لم تفعله طوال حياتها؟!..

آدم.. هو الرجل الأول الذي تدعوه لبيتها.. ولم يتطلب الأمر منها الكثير من التفكير... وجدت نفسها فقط توقفه لتدعوه... وكأنها لم ترد أن تحرم نفسها صحبته في الغد لمجرد أنه لا سبب للقاء وأن عليها الانتظار لبعد غد... وليس هذا فحسب... الوقت الذي قضته معه اليوم.. جعلها تستوعب أمر كانت تشك فيه... آدم ليس مجرد صديق تعرفت عليه أو رجل يتقرب منها.. أنه شخص توافقت معه في أيام قليلة، رجل أضحكها كما لم يضحكها أحد من قبل، رجل تواصلت معه كما لم تتواصل مع غيره...

لهما لغتهما الخاصة..فطوال الوقت يحدثها بالعربية وهي كذلك... حينها شعرت وكأنهما في عالم خاص بهما لا يفهمها أحد... وكأن لغتهما أصبحت شفرة خاصة بهما تمكنهما من قول ما يريدان حتى ولو بصوت عال... ففي النهاية لن يفهمهما أحد.

تذكر كيف كان والدها يحدثها بالعربية إذا أراد أن يخبرها بما لا يفهمه أحد سواها، كم تشعر بالإمتنان الآن له لإصراره على تعليمها لغته، فلم يخطر ببالها أن تكون تلك اللغة هي لغة خاصة بينها وبين من حرك مشاعرها للمرة الأولى.

****

كانت خطواته بطيئة، بدا كمن هو غارق في بحر أفكاره...

لقد دعته لمنزلها بالفعل.. لم يتصور أن تفعل ذلك...ربما عليه أن يستغل الفرصة ويبحث في منزلها عن بطاقة الذاكرة تلك...

رغم أن باسم يشك كثيراً في وجودها بمنزلها لكن لا ضير من المحاولة مادامت قدمت له دعوة مجانية للدخول...

كل ما عليه الآن أن يبحث بشكل جيد ولو عثر عليها حقاً سينتهي كل شيء... سيختفي فجأة كما ظهر فجأة.. كم يتمنى أن يحدث هذا.

فالوقت الذي أمضاه معها جعله واثق بأنها لا تدعي البراءة... وأنها لا دراية لها بأي شيء...لذا يرجو حقا أن يتمكن من العثور عليها غداً... ليس فقط لإنهاء ما يريد.. بل لأنه يشعر أن عليه الابتعاد في أقرب وقت عنها...

كم أنكر هذا على نفسه لكن اليوم جعل الإنكار ضربا من المكابرة.. أنه يتورط معها.. يتورط في مشاعر يعلم أنها ليست من حقه وأن مصيرها إلى زوال.

تعجب من نفسه حين تعلق بصره بها وكأنه يراها للمرة الأولى... بدت جميلة جداً... وهو يلتقط صورها.. ضحكتها الصافية بصفاء السماء مست شغاف قلبه بالفعل.. وجهها الطفولي الذي يجعلك ببساطة تريد أن تضم صاحبته إلى صدرك لتبثها الأمان والحنان، أمور لم يتصور أن تشغل باله ولو للحظة...

وأخيراً تفاجأ من دقات قلبه التي تعالت حين وضعت رأسها على كتفه... وغضب من البسمة التي ارتسمت على شفتيه..

لمَ ابتسم كالأبله؟... ما سبب تلك السعادة التي اجتاحته؟... بل ما هذه الرجفة التي ترددت في صدره.. رجفة كانت ممتعة ومؤلمة في نفس الوقت.

"أفق..آدم.. أفق!!"

قالها لنفسه وهو يدلف لشقته، ليجد بها كما اعتاد باسم الذي استقبله مازحاً:

- كيف كان موعدك الغرامي الأول؟!!

رمقه ببرود ليجلس قائلاً:

- لا بأس به.

عقد باسم حاجبيه قائلاً:

- ماذا بك؟!.. هل حدث شيء؟!

- دعتني للعشاء في بيتها غداً.

قفز باسم من مكانه صائحاً:

- حقاً... ستدخل بيتها غداً.

أومأ آدم برأسه ايجاباً، ليردف باسم بحماس:

- هذا رائع.. أحسنت... علاقتك معها تطورت كثيراً... دخولك منزلها سيعرفك عليها أكثر وربما يساعدنا فيما نريد.

- نعم... أتمنى حقاً أن نعثر على البطاقة لننتهي من كل هذا.

عاد باسم جالساً ليقول:

- لا اعتقد أنك ستجدها في بيتها.. لكن لا بأس ابحث عنها وعن أي شيء آخر قد يقربنا من مبتغانا... نحن نعلم أن الآخرون لم يبحثوا في منزلها وهذا يؤكد لي أنهم على الأقل يعلمون أن البطاقة ليست هناك.

- سأبحث بشكل جيد.... احتاج إلى دواء كي تغط في نومٍ عميق.

- لا بأس.. سأحضر لك الدواء في الصباح... ضعه لها في آخر ما ستشربانه معاً.. ستغط في النوم بعدها بساعة ومهما حدث حولها لن تستيقظ إلا في الصباح.. واحرص أن تعيد كل شيء لمكانه لا تجعلها تعرف أن أحدهم فتش منزلها.

- حسناً.. لا تقلق.

- صحيح.. هل ستقضي الليلة هناك؟..

عقد آدم حاجبيه قائلاً بنبرة مستنكرة:

- ولمَ سأفعل ذلك؟

- ولمَ الإستنكار؟.. هذا ما تفعله الأوربيات.. تدعو صديقها لمنزلها لينتهي الأمر على الفراش.

هب آدم واقفاً ليقول بحده:

- تعلم أنني لست من هذا النوع.. ولعلمك هي أيضاً ليست كذلك.

استرخى باسم وهو يرمق أدم قائلاً:

- لا أفهم سر غضبك.. هذا أمر تقليدي هنا.. ولا يعني أي شيء.. وأنا أعلم من أنت.. كنت أمازحك فحسب... كما أن دعوتها لك ستسهل عليك الأمر أكثر ستتمكن من البحث الوقت الذي تريد فأنت في النهاية ستستيقظ في منزلها.

- لا تشغل بالك بالأمر... سأبحث بشكل جيد دون حاجة لقضاء الليلة هناك.

رسم بسمة ساخرة على طرف شفتيه قائلاً:

- هل هذا يعني أنك سترفض لو طلبت منك ذلك؟

رد آدم باصرار:

- لن تفعل.

- لمّ هذه الثقة؟.. وماذا لو فعلت... ألا تجدها جميلة؟.

زفر آدم بضيق ليقول:

- يمكنك الذهاب.. سأنتظرك غداً لإحضار الدواء.

ابتسم باسم في سخرية مردداً:

- فليكن.. أراك غداً.

****

قلب الصور الفوتوغرافية التي تجمع حنين وآدم معاً بين أصابعه ثم رفع رأسه قائلاً بانجليزية واضحة:

- إذاً.. أصبحا صديقان!!.

كان ينظر لرجل بدا في أوائل الثلاثينات بشعر أشقر وعينين خضراوين.. وملامح حادة ، يستند بلامبالاة على إطار النافذة وهو ينظر لمتابعة المارة والسيارات قائلاً:

- نعم نورمان... يبدو ذلك... ولكن إلى الآن لم يصل لشيء.

- هذا جيد ستيف... علينا الظهور في الوقت المناسب لنستقطب الفتاة وتكون في صفنا.

ابتسم ستيف في سخرية وهو يقترب من نورمان ليجلس على المقعد المقابل له قائلاً:

- لا أعلم لمَ يفعلون هذا؟... ألا يمكنهم أن يكونوا أكثر وضوحاً ويتحدثون إليها بشكل مباشر.

وضع الصور جانباً:

- لأنهم لا يعلمون إن كانت على علم بالأمر أم لا... لكننا نعلم جيداً أنها تجهل كل شيء... كل ما علينا فعله هو إخبارها بحقيقة هذا الرجل.. وأنه يخدعها ويستغلها.. ودع كبرياء المرأة يتصرف بالنيابة عنا.

هز ستيف رأسه بعدم اقتناع قائلاً:

- هذا سلاح ذو حدين... ماذا لو عشقته فعلاً؟... حينها قد لا تستطيع ايذائه قط.

أنهى جملته ليميل بجذعه للأمام قائلاً بحرص:

- نورمان... لمَ لا نتخلص منه وننهي الأمر؟!.. إنه صيدٌ سمين.

عقد نورمان حاجبيه قائلاً بنبرة غاضبة:

- أتريد أن تكرر فعلتك الغبية؟!.... تخلص من تلك الفكرة في الحال، لا داعي لدخول معهم في دائرة انتقامية حينها سيجمعون كل حلفائهم ويسعون خلفنا.. وهذا شيء نحن في غنى عنه... نحن نريد الفتاة.. والفتاة فحسب.. لا تنسى هذا.. وإياك والتصرف دون الرجوع لنا.. تفهمني طبعاً.

ضيق عينيه وهو يحدجه بنظراته ليقول:

- أفهمك نورمان.. أفهمك.

- أتمنى ذلك.

****

وقفت مِيا تطالع حنين بعد أن اختارت ما سترتدي الليلة، ثم عقدت حاجبيها قائلة:

- هل حقاً هذا ما سترتديه؟!.. أليس لديكِ نظام تدفئة مركزي لترتدي كل تلك الثياب الشتوية.. آني بالله عليكِ!!

تطلعت حنين لكنزتها القطنية الفضفاضة وبنطالها الاسود الضيق لتقول:

- ماذا تعني؟.. أليس هذا مناسباً؟!

هزت مِيا رأسها نفياً ثم اتجهت لدولابها تقلب فيما علق من ثياب، لتطلق صيحة قصيرة:

- أهاااا... هذا رائع.

أخرجت من خزانة الملابس فستان أحمر داكن بلا أكمام يدور حوله حزام من نفس اللون على الخصر ويبدو من طوله أنه سيتوقف عند الركبة تقريباً.

حدقت حنين بالفستان لتقول:

- تريدين أن ارتدي هذا؟!

- بالتأكيد... انظري... انه هادئ.. غير مثير.. ولكنه يبرز جمالك.. وكأنه يقول أنظر إليّ لكن لا تقترب.. أحب هذا.

رفعت حنين إحدي حاجبيها لتقترب منها وتدفعها بعيداً عن طريقها لتسقط مِيا على الفراش قائلة:

- ماذا هناك؟!

- لن أرتدي هذا أبداً.

عادت مِيا تقف على قدميها وهي تتأمل الفستان الذي في يدها قائلة:

- ولمَ؟!!.. انه رائع.. أفضل كثيراً مما ترتدينه... هيا آني.. لقد فعلتِ ما لم أتصور أن تفعليه لسنوات أخرى قادمة.. دعوته للبيت.. هذا إنجاز سيسجله التاريخ.

- كفي عن السخرية.

قالتها حنين بضيق لتقول مِيا:

- أنا لا أسخر منكِ.. أنا فعلاً مندهشة وسعيدة.. لم أتصور أن يؤثر فيكِ هذا الرجل بهذه الطريقة وبهذه السرعة.

صمتت حنين وكأنها تسأل نفسها نفس السؤال، حقاً؟!!..

كيف أثر فيها بهذه الطريقة لدرجة تجعلها تدعوه لمنزلها، وهو ما لم تفعله من قبل..

كم فكرت في التراجع؟.. كم مرة أمسكت بالهاتف لتتصل به معتذرة عن تلك الدعوة، لكنها كانت تتراجع لسخافة أسبابها التي قررت قولها له... كانت تشعر وكأنها طفلة سيتم الإيقاع بها أو شيء من هذا القبيل..

إنها شابة واعية وكبيرة بما يكفي لتحكم على من حولها من أشخاص... ويوم أمس استطاعت أن تتعرف أي نوع من الأشخاص يكون آدم...

لم يحاول الإقتراب منها بأي طريقة سواء واضحة أو لا... حتى عندما فعلتها هي في نهاية اليوم وأراحت رأسها على كتفه.. لم يتحرك قيد أنملة.. لم يفكر مثلاً في ضمها بذراعه.. لم يفعل أي شيء.. فقط ظل على حاله.

صحيح أن هذا سبب لها بعض الإحباط الذي أغضبها بعد ذلك.. لكنها وقتها تمنت حقاً أن يحيطها بذراعه ليبعث فيها المزيد من الأمان الذي أصبحت تشعر به في وجوده بجوارها...

لكنها أدركت بعد ذلك أنها بالفعل ستكون في أمان معه.. ولهذا لم تفكر كثيراً قبل دعوته... وحتى ترددها بعد ذلك لم يستمر لفترة طويلة.

وها هي الآن تستعد لاستقباله بالفعل، لتعود لواقعها على صوت مِيا وهي تقول:

- يجب أن تبدي في أفضل حالاتك بدون تكلف آني.. وهذا الفستان يحقق ذلك.. أرجوكِ.. لن تتخيلي سعادته وهو يراكِ هكذا... ثقي بي.. أعرف كيف يفكر الرجال.

هزت حنين رأسها ضاحكة:

- فليكن.. لا أريده أن يفهمني خطأ.

- لا تقلقي... لن يقترب منكِ دون تلميح مباشر.. وبما أنكِ لن تفعلي فسينتهي كل شيء على ما يرام.

- أعلم أنه لن يقترب مني... وإلا ما كنت دعوته.

- راااائع.. إذاً اتفقنا.. لن يضرك إذاً ارتداء هذا الفستان... هيا آني.. لم يعد لدينا وقت لقد اقترب حضوره يجب أن أذهب قبل أن يأتي.

****

أوقف باسم السيارة على مسافة مناسبة كي لا ينتبه أحد له، التفت لآدم الجالس بجواره:

- ستكمل على قدميك.. كي لا تراني.

- حسناً.

أمسك آدم بباقة زهور أحضرها معه وتأكد من وجود الدواء في جيبه ليقول باسم:

- ابحث جيداً.. أرجو حقاً أن تعثر على البطاقة.

- وأنا أيضاً.

قالها في اقتضاب، ليضيف باسم مبتسماً:

- ليلة سعيدة.

حدق به آدم للحظة ليمط شفتيه مترجلاً من السيارة...

رمقه باسم وهو يتابع ابتعاده مردداً:

- أشعر أنك تتغير.. هناك شيء يصيبك.. شيء يجب أن يتوقف في الحال.

****

تأكدت من أن كل شيء على مايرام وأن الطعام قد أُعد بالشكل المطلوب..

رن جرس بابها فأسرعت له لكنها توقفت ثانية لتلقي نظرة أخيرة على هيئتها التي أشرفت عليها مِيا بعد أن أقنعتها بارتداء ذلك الفستان..

كانت تبدو رائعة حقاً.. ابتسمت لنفسها في المرأة.. ليعود جرس الباب يذكرها أن هناك أحدهم ينتظر..

أخذت نفساً عميقاً لتتجه لباب وتفتحه مع بسمة هادئة على شفتيها.

****

ربت على الدواء الذي في جيبه مردداً:

- سننتهي قريباً من كل هذا.

دق جرس الباب فلم يجد استجابه ليدقه مرة أخرى حتى شعر بالباب يفتح.. ابتسم وهو يعدل باقة الزهور التي في يده إلا أنه فورأن وقع بصره عليها زالت بسمته وظل يحدق بها فحسب.

أما هي فقط اختفت بسمتها هي الأخرى لرؤية انطباعه لدي رؤيتها..

فلقد رأت في عينيه مزيج من الدهشة وربما القلق..

هل أخطأت في ارتداء ذلك الفستان؟!.. لكنه ليس سيء لهذه الدرجة.... "تباً مِيا.. أنتِ السبب"

ظلا على حالهما إلى أن تحرك هو رافعاً لها باقة الزهور وقد عادت البسمة لوجهه قائلاً:

- تفضلي.

أمسكت بالباقة وقد تمكن منها التوتر لتقول:

- أشكرك... تفضل.

أفسحت الطريق لتسمح له بالدخول، تبعها لتسير أمامه بينما انتقلت عيناه سريعاً لفحص المكان، ثم عاد ناظراً لها حين التفتت قائلة:

- يمكنك الجلوس.. ماذا تحب أن تشرب؟!

شعر بتوترها في كلامها وبدا أنها غير مرتاحة كما كانت أمس، فحاول تهدئة الأجواء حولهما قائلاً:

- أي شيء دافيء.

ثم تطلع للمنزل قائلاً:

- منزلك أنيق وهاديء.

ابتسمت قائلة:

- شكراً لك.. هذا عمل أمي وأبي... لم نبدل فيه كثيراً بعد موتها.

أومأ برأسه متفهماً ليجلس على الأريكة بينما تحركت هي قائلة:

- سأحضر مشروب الشوكولاتة الساخنة... أيعجبك هذا؟!

- بالتأكيد.

بدت تتخلص من توترها فعلاً وهي تتركه لتعد المشروب..

نقل بصره يتفحص المكان لتقع عينيه على باب إحدى الغرف المغلقة، وبدا له أنه مكتب والدها.. ربما.. لتدور عينيه مرة أخرى هنا وهناك إلى أن توقف على صورة كبيرة معلقة على الجدار يقف فيها رجل وامرأة وطفلة لم تكمل عقدها الاول...

وقف متجهاً للصورة يتأملها للحظات... ابتسم وهو يطالع وجه الطفلة الصغيرة المبتسمة ليهمس:

- لم تتغير بسمتك كثيراً رغم أنك لم تعودي طفلة.

لاحظ كثيراً كم أن المرأة هي نسخة قريبة الشبة كثيراً من حنين، مما يؤكد أنها تشبه أمها بالفعل، التفت حين شعر باقترابها وهي ترفع كوب الشوكولاته الساخنة له..

مد يديه شاكراً إياها، لتقول:

- هذه عائلتي.. أو كانت عائلتي.

قالتها بنبرة حزينة ليتأملها آدم للحظات ليقول:

- آسف.

- لا عليك... أعتقد أنني أعتدت فراقهما.. صحيح أن أبي فارقني منذ فترة قصيرة... لكن ربما لأني عشت هذا من قبل... استطعت أن أتجاوزه هذه المرة.

- هذا جيد لكِ.

- أشكرك... تفضل.

عادا للجلوس ليرتشف آدم من مشروبه بينما تتابعه حنين بنظرة جانبية فابتسم قائلاً:

- تبدين جميلة جداً.

لم تتوقع هذا الإطراء منه، فاحمرتا وجنتيها في الحال وهي ترفع خصلات شعرها الجانبيه بارتباك متمتمة:

- هذا لطف منك.

اتسعت ابتسامته لخجلها الواضح ليكمل هو مشروبه بينما استأذنته لتعد العشاء الذي وعدته به... ولأن كل شيء كان معد مسبقاً لم تستغرق وقتاً في إعداده.

جلس على المائدة بعد أن دعته إليها ، وهو يتأمل ما صنعته له، رفعت له غطاء طبق الحساء قائلة:

- تفضل... هذا حساء عربي خالص.. عملني أبي كيف أصنعه.

حدق في الحساء أخضر اللون واستطع تميزه بسهولة وهو يقول:

- حقاً صنعتِ هذا!!

- نعم... انتظر سأتذكر اسمها... امممممممممم.... نعم.. تذكرت... الملوكية.

حدق بها للحظات لينفجر ضاحكاً وهي يميل للأمام والخلف، عقدت حاجبيها وبدا الغضب على ملامحها:

- ما المضحك؟!... أليس من الأفضل أن تتذوقها وبعد ذلك اسخر مني كما تريد.

هز كفه ملوحاً ومعتذراً:

- لا ..لا.. لم أقصد السخرية...

تنفس بعمق ليتمالك رغبته في الاستمرار بالضحك ليقول:

- أعتقد أن اسمها ملوخية.

ضربت رأسها بكفها قائلة:

- أوه.. نعم.. صحيح... ولكن أذكر أن أبي ذكر لي أيضاً أنها تسمى ملوكية.

- هذا صحيح... كانت تسمى كذلك لأنها كانت تقدم للملوك... ولكن الآن هي ملوخية فقط.

- لمَ ضحكت عليّ اذاً؟!.. هيا تذوقها.

ارتشف منها بالملعقة ليتذوقها ببطء ثم همهم:

- امممممم... أنها لذيذة.

- حقاً.

تابعته وقد انشغل بالطعام، الذي شمل سلطات عربية كالتبولة والطحينة، مع اللحم المشوي وغيرها من الأصناف العربية...

كانت تشعر بسعادة بالغة وهو يبدي إعجابه بكل ما يأكل وكيف أنه مندهش من كونها تتقن كل هذا، لتخبره أنها من هواة الطبخ وكانت تنقل عن الإنترنت العديد من الاكلات العربية وتصنعها لأبيها..

فمنذ فارقتهما الأم وهي تهتم بأبيها كما يجب... فلقد أحضر في البداية طاهية وبعد أن كبرت هي قليلاً طلبت منه أن يتركها هي تتولى شئون الطبخ.. فاستجاب لها.. وهذا ساعدها على اتقان الكثير من أمور المطبخ... بل والمسئوليات المنزلية عموماً...

كانت تحكي له وهي ترى نظرات الإعجاب في عينيه.. نظرات قرأتها بسهولة وجعلتها تشعر بالفخر من نفسها... لينهي ذلك بجملة جعلت قلبها يرتجف بقوة:

- أتعلمين؟؟!... ستكونين زوجة عربية راااائعة!!!.

زوجة رائعة!!...

لطالما تمنت فعلاً أن تكن زوجة رائعة.. زوجة تهتم ببيتها وزوجها وأولادها..

وكانت تتسائل كيف سيكون ذلك؟... من سيكون زوجها؟.. كيف سيكون شكل أولادها....

وبدون أن تشعر تفحصت ملامح آدم المنهمك في تناول طعامه وهي تتخيل... أسيحملون لون بشرته القمحية؟... أو ربما سواد عينيه اللامع؟... أو حاجبيه الكثيفين؟؟..

ماذا لو أصبحا مزيجاً منه ومنها؟...

بالتأكيد سيكونون أكثر الأطفال جمالاً.

ابتسمت وهي لاتزال تحدق به لكن ابتسامتها تجمدت على شفتيها حين رأت عينيه تطالعها ببعض الدهشة، لتسحب بسمتها في الحال وهي تهرب بنظراتها بعيداً ليقول:

- ماذا هناك؟!... هل أبدو مضحكاً وأن آكل؟!!

لم تتوقع أن يكن هذا ظنه..

من حسن حظها أنه لا يمكنه تخمين الذي تفكر به، لقد شعرت بالإحراج الشديد وظنت أنه سيفكر في أنها تنظر له بإعجاب، لكن بسمتها أعطته معنى مختلف.

لوحت بكفها لتنفي اعتقاده:

- لا على الإطلاق.. أنا فقط... سعيدة.

ضاقت نظراته نحوها مردداً:

- سعيدة؟؟!!

- اممم.. نعم.. سعيدة.. لأنك محب للطعام.

استقبل كلماتها باستغراب وهو ينظر للمائدة:

- محب للطعام!!.

"يالسخافتي ألم أجد مصطلح آخر!!"...

قالتها لنفسها وهي تضحك بارتباك:

- أقصد... أنني استطعت ان أجعلك تأكل بشهية.

- هذا صحيح.

قالها وهي يربت على معدته قائلاً:

- لم آكل هكذا منذ مدة.

- يسعدني أنك استمتعت بالعشاء.

أرخى جسده على الأريكة وهي يشعر بالفعل بالتخمة..

لا يصدق أنه انهمك في تناول الطعام هكذا.. لكنه كان طيب حقاً ولم يستطع منع نفسه، خاصة مع ملاحظتها تراقبه فقررأن يتناوله بنهم من أجلها..

عقد حاجبيه مردداً:

- من أجلها!!. ما هذا الذي أردده؟!!.

اعتدل ليربت على قارورة الدواء الصغيرة التي بجيبه وهو ينظر للساعة متذكراً ما قاله باسم...

"بعد أن تشرب الدواء سيغالبها النعاس بعد ساعة واحدة... عليك أن تستأذن منها بالإنصراف حتى تسمح لها بالصعود لغرفتها والإستغراق في النوم... بعدها بعشرين دقيقة تعود للبيت.. وستجدها نائمة وكأنها في كهف... لن تسمع أي شيء... فاحرص على البحث بشكل جيد... وانتبه إلى كل ورقة تخص أباها.... لو استطعت فحص كتب المكتبة فافعل.. المهم أن تعثر على تلك البطاقة... أو أي شيء يقربنا إليها.. أتفهم؟!!"

نقل بصره في المكان ربما للمرة الألف... وهو يردد بقلبه:

- ربي... دعني أعثر على تلك البطاقة.. أرجوك.

عادت حنين تحمل كوبين من القهوة الساخنة لتضعهما أمامه، ابتسم لها شاكراً ليقول:

- شكراً لكِ... ولكن هل لي بكوب من الماء؟.

انتبهت إلى أنها لم تحضر الماء فاعتذرت وأسرعت لإحضاره وما أن اختفت من أمامه حتى فتح القارورة وصب كل محتوياتها في أحد الفنجانين.. ليحمل الآخر في يده خوفاً من الخطأ..

وبعدها بثوانٍ عادت حنين بكوب الماء الذي أمسكه آدم ليشرب منه القليل قبل أن يبدأ في ارتشاف قهوته لترفع حنين فنجانها إلى شفتيها دون أن تلحظ تلك اللمعة التي سطعت في عينيّ آدم للحظة وهو يتابعها.

انتقلا من حديثٍ لآخر، معظم أحاديث حنين مرتبطة بوالديها... ولكن بوالدها أكثر فأمها ماتت وهي صغيرة لذا ارتبطت بأبيها كثيراً، كان يستمع لها بلا ملل ليقاطعها قائلاً:

- يبدو أنكِ تحبين أباكِ كثيراً.

- بالطبع... أنه الأفضل على الإطلاق.

لاحت بسمة ساخرة على شفتيه أخفاها في الحال وهو يقول:

- آسف على السؤال.. كيف مات؟!!

ارتسم الحزن في عينيها وهو تلتفت لتنظر لصورتها العائلية التي توجد نسخة منها في كل غرفة تقريباً ليتعلق بصرها بها للحظات أتاها صوته الهادىء قائلاً:

- إذا كان الحديث في الأمر يزعجك فلا بأس.

عادت بعينيها نحوه:

- لا... أنا بخير... ليس لدي الكثير لأقوله... مات في حادث سيارة.. انقلبت سيارته من على منحدر وهو في طريقه لمدينة مجاورة... حققت الشرطة في الأمر ظناً منها أنه مدبر...

لكني لم أصدق ذلك.. ولم يثبتوه.

ضاقت عيناه وهو يقول باهتمام:

- لمَ لم تصدقي ذلك؟!

هزت كتفيها لتقول:

- أبي ليس لديه أعداء.. أنه ذو شخصية هادئة وطيبة... صحيح ليس لديه الكثير من الأصدقاء لكني لا أظن أبداً أنه يمكن أن يكتسب أعداء... هذا مستحيل... أنه لم يكن ليؤذي أحد قط.

لم تلحظ أسنانه التي تضغط على بعضها أسفل شفتيه المضمومتان وهي تكمل:

- أبي هو أروع من عرفت في حياتي.

حاول الابتسام ليقول:

- حقاً!!.

- بالتأكيد.. إنه مثلي الأعلى.

مثلها الأعلى!!...

تسائل كيف سيكون ردة فعلها عندما تعرف كيف كان مثلها الأعلى!!..

مهلاً... وهل يجب أن يهتم بهذا؟...

الشعور بالشفقة عليها أمر يجب أن يوقفه في الحال... الخوف عليها من معرفة الحقيقة ليس ما يجب أن يشغله في تلك اللحظة..

البطاقة... فقط البطاقة..

إذا عثر عليها سينتهي كل شيء...

سيختفي من حياتها..

ستنسى أنها التقت به يوماً.. ولن يضطر إلى إخبارها أي شيء.. فلقد اقتنع من داخله أنها من البراءة التي تجعلها بعيدة جداً عن التورط في ذلك الأمر...

وأنها من الرقة التي جعلت قلبه يتغير عما كان عليه...

ولهذا يجب أن يهرب منها سريعاً.. قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه.

انتبه لقولها له:

- لم أزور قبره منذ الحادث... عليّ أن أزوره قريباً.

فهم أنها تقصد اللقاء الأول بينهما ليجدها تنظر له قائلة:

- صحيح.. من كنت تزور هناك؟.. ألم تكن هناك لزيارة أحدهم؟.

لا يعلم لمَ فوجيء بسؤالها رغم أن باسم أخبره أن عليه أن يتوقع مثل هذا السؤال في أي وقت، لكنه تدارك الأمر سريعاً قائلاً:

- بلى.. كنت أزور أحدهم.

بدا أنه لن يضف أي شيء آخر.. لكن كونه مغترباً وليس من المستوطنين هنا أشعل فضولها لتعرف من كان يزور في المقابر فقالت على استحياء:

- من؟!!... أم لا تحب الحديث عن الأمر؟

هز رأسه نفياً ليقول:

- لا بأس.. أنه صديق.. صديق عزيز.

- شاب؟!!.

سألته وكأنها تريد أن تتأكد أنه لا يتحدث عن فتاة.

تمثلت صورة رفيقه أحمد أمام عينيه وبدا الحزن على ملامحه وصوته وهو يقول:

- نعم.. شاب... كان يصغرني بعامين... تعرض لحادث أليم وفقدته للأبد.

شعرت حنين بحزنه الشديد ، مدت كفها تربت على كتفه مواسيه..

رفع بصره ينظر لها بصمت، لتقول:

- أنا آسفة.

- لا عليكِ.

بدأت حنين في أخذ دفة الحديث بعيداً عن الأمور المحزنة إلى أن ظهر مفعول الدواء وبدأت تتثاءب..

نظر آدم في الساعة ليجد أنها تأثرت به قبل المدة المحددة..

أما حنين فظنت أن تثاؤبها دفعه لنظر في الساعة فغطت فمها بكفها مرددة:

- الوقت لم يتأخر بعد.. هل تحب أن تشرب شيئاً آخر؟!

نظر لها بود وهو يهم بالوقوف:

- لا شكراً... في الحقيقة الوقت تأخر... ويجب أن أذهب.. غداً يوم عمل.

وقفت بدورها:

- أوه.. حسناً لن أؤخرك.

- أشكرك على الدعوة الكريمة.. حقاً لقد استمتعت بالطعام.

خفضت بصرها مرددة:

- وأنا أيضاً استمتعت بوقتي كثيراً.

ابتسم وهو يلتفت مغادراً... تبعته إلى الباب بينما صوت مِيا يتردد في اذنها:

" لمَ لا تطلبي منه المبيت عندك الليلة؟... في الغرفة التي بالدور الأرضي وأنتِ نامي في الدور العلوي.. لن يحدث بينكما شيء.. لكنه سيفرح كثيراً حين يشعر بمدى ثقتك به... افعليها آني ... افعليها."

فتح آدم الباب ليخرج منه وتبعته هي لتقف على عتبة منزلها بينما هبط آدم عدة درجات قصيرة قبل أن يلتفت لها:

- نامي جيداً... سأراكِ غداً في المقهي.. كالمعتاد.

أومأت برأسها ايجاباً، ليفرك آدم كفيه قائلاً:

- لقد زادت البرودة الليلة... هيا ادخلي... كي لا تبردي.

لا تعرف كيف نسيت أنها حتى لم ترتدي أي كنزة على فستانها الصيفي!!..

فلسبب ما كانت حرارتها مرتفعة تلقائياً ربما بسبب تضارب أفكارها...

هل تدعوه للمبيت حقاً... أم لا؟!... ولكن الجو بارد بالفعل وهو لا يملك سيارة ولن يجد عربة أجرة الآن وسيضطر للمشي حتى بيته..

ما المشكلة في دعوته للمبيت؟...

وكما قالت مِيا توضح له أنه سيبقى في الغرفة السفلية وهي ستكون في غرفتها بالدور العلوي..

"هيا آني افعليها"

عاد صوت مِيا يتردد في عقلها لترى آدم يبتسم وهو يلوح لها مبتعداً فنادته بنبرة مترددة

- آدم... انتظر.

التفت لها متسائلاً..

رأى الحمرة التي انتشرت تلقائياً في ملامح وجهها فعقد حاجبيه وظن أنها ربما برودة الجو السبب في تلك الحمرة، فاقترب منها قائلاً:

- ماذا هناك حنين؟!... هيا عليكِ أن تدخلي الجو بارد.

ابتلعت ريقها بصعوبة لتقول:

- نعم... أنه حقاً بارد.. وأنت ستضطر للسير في ذلك الجو حتى تذهب لمنزلك.

هز كتفيه مطمئناً:

- أنه قريب.. لا مشكلة.

- في الحقيقة.. لو كنت ترغب في المبيت هنا لا مشكلة لدي.

قرأت سريعاً الدهشة التي ارتسمت على ملامح وجهه والتي أخفاها سريعاً قائلاً:

- ماذا؟!... المبيت هنا!!

قالت سريعاً وكأنها تخشى أن يسيء فهمها:

- هناك غرفة نوم إضافية في الدور السفلي وأنا غرفتي في الدور العلوي... لن يسبب أحدنا أي إزعاج للآخر... ويمكنك المغادرة وقتما تشاء في الصباح.

أطرق رأسه لحظات ليأتيه صوتها من جديد:

- هل يزعجك الأمر؟!

نظر لها مبتسماً:

- لا.. على العكس.. أنا من يخشى ازعاجك.

- بالتأكيد لا... أنا من أدعوك... وكما قلت لك لن يزعج أحدنا الآخر.

ابتسم على تأكيدها الأمر.. وبدا وكأنها تريد أن تضيف

"مادام سيبقى كلاً في مكانه"

- حسناً... شكرا على الدعوة... وشكرا على ثقتك.

أفسحت له الطريق ليدخل ثانية، ولم تلمح بسمة سخرية ارتسمت على شفتيه وهو يردد في نفسه..

"تباً باسم... لقد فزت بالرهان"

لم يمضيا المزيد من الوقت معاً..

فقد أرشدته إلى الغرفة وأحضرت أغطية إضافية، لتلقي عليه تحية المساء وتغلق باب غرفته وتتركه صاعدة لغرفتها..

أغلقت الباب مستندة عليه.. بدا وكأنها لا تصدق ما فعلته للتو..

هناك رجل يبيت في منزلها بالفعل...

رجل دعته هي للبقاء..

لكنه ليس أي رجل.. أنه..

"آدم"

كانت اتفقت مع مِيا على أن تهاتفها فور انصرافه لكن تلك الرغبة القوية في النعاس لم تمكنها من ذلك، فقامت بتبديل ثيابها ودون حتى أن تنزل لتنظف مطبخها ألقت بنفسها على فراشها ودون أن تدري غطت في النوم العميق.

****

جلس على طرف الفراش ينقل بصره بين أطراف الغرفة.. لقد فعلت ما لم يتوقعه... ولكنها منذ أن دخل إلى هنا وهي تفعل ما لم يتوقعه...

لم يتصورأن تستقبله حنين الخجولة المنطوية بفستان صيفي أنيق كالذي كانت ترتديه..

لا يعرف لما أصابه التوتر فورأن وقع بصره عليها...

يوتره حقاً أن تفلت مشاعره تجاهها ولا يقوى على كبحها...

يجب أن يبقى هو المسيطر على الأمور... هو يراها جميلة منذ البداية لكن طلتها تلك المرة كانت مختلفة... كانت أجمل.. وجعلتها مرغوبة أكثر...

لقد منحته شعوراً أنها تعتبره الآن شخص أكثر قرباً منها...

بدا وكأنها تفتح معه مجالاً آخر... مجالاً أكثر ارياحية...

وختمت ذلك بدعوته للمبيت...

ابتسم وهو يذكر اصرارها على توضيح الوضع...

"كلاً منا في غرفة"...

كان واضح أنها تخشى أن يسيء فهمها أو يطلب منها ما لا تريد...

كان يعلم أنها ليس بالمرأة سهلة المنال.. لقد استطاع أن يعرف هذا من تلك الأيام التي قضاها معها..

يكفيه لحظات الخجل التي تعتريها حين يتأمل ملامحها.

أغلق عينيه وهو يستلقي على الفراش، كان يحاول تصفية ذهنه من أي أفكار جانبية...

أراد أن يسترجع كل ما رآه في منزل حنين ويحدد من أين سيبدأ البحث وكيف سينتهي؟..

ومن الجيد حقاً انها دعته للمبيت فهذا سيمنحه وقت أكبر في البحث... فهي لن تستيقظ إلا في الصباح... فعليه أن يستغل الوقت جيداً في البحث المثمر.

فتح عينيه محدقاً بالسقف...لتتراءى له صورتها... ضحكتها التي صاحبتها طوال الوقت الذي قضاه معها..

ستكون الأخيرة... لو عثر على البطاقة لن يراها ثانية، سيغادر تلك البلاد في الحال..

يعتمره شعور غريب بالفقد.... سيفتقدها...

تُرى هل ستفتقده هي الأخرى؟..

هل يعجبها؟..

هل تمكن من قلبها دون أن تدري؟..

لو كان الأمر كذلك سيكون أول من يحطم قلبها.

زفر في ضيق متمتماً:

- توقف عن هذا أيها الأحمق.

رفع معصمه ناظراً لساعته، مرت الدقائق التي حددها..

المفترض أن تكون في نومٍ عميق الآن...

اعتدل جالساً... ليقف على قدميه واتجه بخطوات هادئة ليفتح باب الغرفة بحرص.. بدا الجو هادئاً تماماً..

أنصت قليلاً فلم يصل لسمعه شيء...

خرج ليصعد الدرج وصولاً للدور العلوي..

وجد ممر يحوي ثلاث غرف...

فتح أولها ليجد غرفة نوم فارغة، أغلقها ليتجه للثانية وما أن فتح بابها حتى رأى جسدها المستلقي تحت فراش وثير.. ومن القليل جداً من الضوء تمكن من رؤية وجهها النائم...

حدق بها للحظات هامساً:

- لهذه الدرجة تثقين بي!!... لم تغلقي الباب عليكِ حتى.

وخزة ما احتلت قلبه للحظات قبل أن تغادره دون أثر، ليغلق الباب عائداً للدور الأرضي...

واتجه إلى حيث يظنه مكتب والدها وكان ظنه صحيحاً...

أول ما لفت نظره الصورة العائلية الضخمة.. اقترب منها لينظر لها ثم رفعها قليلاً لينظر أسفلها فلم يجد شيء..

مرر أصابعه حول الإطار عسى أن يجد شيء معلق بها لكنه مط شفتيه مردداً:

- يبدو أن العثور على تلك البطاقة لن يكن سهلاً... هذا إن كانت هنا.

التفت إلى المكتب ليفرك كفيه ويأخذ نفساً عميقاً قائلاً:

- أين وضعتها يا رجل؟!..أين؟؟

****

وصل لأذنيها صوت رنين بعيد... ليقترب رويداً رويداً ويخرج عقلها من الغفوة التي هو فيها، لتنتبه إلى رنين منبهها وتفتح عينيها متثائبة...

واعتدلت لتوقف صوت المنبة، فركت رأسها وهو تتمتم:

- يا الهي!!.. هل كنتُ مرهقة لهذه الدرجة؟!... وكأني لم أنم لسنوات.

هبت واقفه حين تذكرت أن آدم قضى ليلته في بيتها...

ارتدت كنزة صوفية لتهبط الدرج سريعاً، وقفت أمام غرفته للحظات ثم نادته.. انتظرت قليلاً فلم تتلقَ أي رد...

كررت نداءها مرتين ليكون الصمت هو الجواب...

مدت يدها برفق لتفتح باب الغرفة.. أطلت برأسها لتجدها فارغة.. حتى الفراش كان مرتباً وعليه الأغطية مطوية في طرفه...

ارتسم الإحباط على ملامحها وهي تقول:

- أما كان يمكنك أن تنتظر لنتناول الافطار معاً!!.. أو حتى تلقي عليّ تحية الصباح؟.

أغلقت الباب ثانية وقد ذهب حماسها أدراج الرياح..

تذكرت أنها تركت مطبخها غير مرتب وعليها الإسراع للحاق بالعمل..

اتجهت لمطبخها لترى ما يمكنها فعله لكنها تسمرت مكانها وهي تنظر للمطبخ الذي قد نظم ربما بطريقة مختلفة عما تفعل لكنه نظم بالفعل..

فركت عينيها لتتأكد أنها لا تحلم، ووقفت في منتصفه وهي تنظر يمنة ويسرة...

- من فعل هذا؟!...

عقدت حاجبيها وهي تفكر في آدم...

انتبهت إلى مائدة صغيرة قد تم تغطيتها رفعت الغطاء لتفاجأ بافطار بسيط من خبز محمص وبعض العسل والبيض المسلوق..

مع كوبها الخاص لحفظ حرارة المشروبات الساخنة، ومن الواضح أن به قهوتها المفضلة.

وضعت كفها على شفتيها المبتسمتين:

- معقول!!... آدم فعل كل هذا.

سحبت مقعد المطبخ لتتناول ذلك الإفطار البسيط ولكنه كان الأروع بالنسبة لها، وبينما ترفع كوب القهوة لتشرب منه لاحظت ورقة صغيرة أسفله فتحتها لتتسع ابتسامتها...

"إفطاراً شهياً... لست ماهر مثلك..

أردت أن أشكرك على وجبة الأمس...

وترتيب المطبخ لم يكن صعباً

الشيء الوحيد الذي حقاً أجيده هو تنظيف الأشياء وترتيبها.

أركِ في المقهى... حنين

وشكراً مرة أخرى على الدعوة الكريمة سواء الطعام أو المبيت

آدم"

ضمت الورقة إلى صدرها وقد تحولت ابتسامتها لضحكة صافية..

لم يعد لديها أي مجال للشك... آدم لم يعد مجرد رجل أعجبت به... كل المشاعر التي تجتاحها منذ أمس أكدت لها أنه أصبح أكثر من ذلك بكثير...

دقات قلبها.. تلك القشعريرة التي تملأ حواسها الآن... كل هذا بسببه هو.. هو فقط.

عادت تنظر للورقة التي كتبها بلغة عربية وكأنه يثق بأنها تجيد قراءة العربية، لتتمتم:

- آدم... لا تتركني... أرجوك.

****

عقد ذراعيه أمام صدره وهو يتابع باسم الذي ملأ الغرفة ذهاباً وإياباً مفكراً.. حيث لم يتمكن من العثور على بطاقة الذاكرة تلك... ولا أي شيء يشير لها...

لقد بحث في كل مكان لكنه شعر وكأنه يبحث عن إبرة في كومة قش..

إنها بطاقة هاتف... أي أنها من الصغر الذي يجعلها تختفي في أي مكان.. ومع ذلك اجتهد في البحث كثيراً وكان عليه أن يعيد كل ما تطوله يده كي لا تشعر حنين بأي شيء..

وكم فرح حين عثر على خزانة سرية خلف أحد الاطارات المعلقة واستطاع فتحها ومع ذلك لم يعثر فيها على مبتغاه...

عاد يتابع باسم..

فهو العقل المدبر في النهاية وعليه أن ينتظر قراره.

جلس باسم أخيراً وقد عقد كفيه أمام وجهه مستنداً بمرفقيه على فخذيه وضاقت عيناه للحظات:

- لم أكن متفائلاً كثيراً في العثور عليها في منزلها... لكن ما زالت الفتاة هي الطريق الوحيد لتلك البطاقة... أنا واثق.

عقب آدم:

- لكنها لا تعلم شيئاً.. وهذا أيضاً أنا واثق منه.

- حسناً... حتى لو كانت لا تعلم... هي سر أبيها.. طرف الخيط لديها... أريد فقط أن أحصل عليه وحينها لن أفلته أبداً.

قالها وهو يضم قبضته بقوة فقال آدم:

- لمَ لا نتحدث معها ونشرح لها الأمر؟!

- ماذا؟!!.. لن تصدقنا وربما تظن أننا مخادعون... ونريد سرقة شيء ما... مجرد أن تعرف أنك تخدعها لن يكن هذا في صالحنا الآن.

- إذاً... ما التالي؟!!

- لا تغيير... سيبقى الأمر على ما هو عليه... تلتقي بها كما اعتدت.. تقرب إليها قدر استطاعتك.. اجعلها لا ترى ولا تثق في غيرك.... تتحدث لك دون تفكير... اجعلها كالخاتم في إصبعك.. واستمع لها دوماً.. استمع لكل ما تقوله خاصة ما يخص أباها... لعلنا نصل لطرف الخيط الذي يوصلنا لما نريد.

أومأ آدم برأسه دون تعليق، وقف باسم ليغادر لكنه التفت قائلاً:

- وخذ حذرك ايضاً.

عقد آدم حاجبيه:

- مما؟!!

- أنتما مرقبان... أنهم يتبعوكما.

- من؟!!

- الذين يريدون أن يستلموا بطاقتهم.

نظر آدم بعيداً ليردف باسم:

- فقط احذر.. لا نعلم متى سيتحركون.

- حسناً.

ما أن غادر باسم حتى أخرج آدم هاتفه..

أظهر صورها وأخذ يقلبها واحدة تلو الأخرى..

كانت تضحك ضحكتها المميزة في كل صورة، تلك الضحكة التي تعلق بها دون أن يعي..

كان يبتسم عادة لمرأها لكن هذه المرة ارتسم الحزن على وجهه...

ستعلم حتماً في يوم ما أنه يخدعها... وربما هو نفسه من يخبرها بالحقيقة..

وحينها ستكره... ستكره بكل تأكيد...

لن يرى في عينيها تلك النظرات مجدداً..

ستتحول محبتها له إلى كره مطبق...

ستؤول ثقتها فيه إلى خوف مريب...

سيخسرها إلى الأبد...

وضع هاتفه جانباً مردداً:

- وهل كسبتها لتخسرها أيها الغبي؟!.. أنت تعلم من البداية أنك تخدعها.. كان من المفترض ألا تسقط أنت في حبها.

هل يعترف الآن؟!.. هل يعترف لنفسه أنه بالفعل أحب تلك الفتاة؟!..

حب يعلم جيداً أنه المستحيل بعينه...

ليس فقط أنها تحمل جنسية أجنبية.. بل هي على دين آخر أيضاً.

ولكن... ماذا يمكنه أن يفعل؟!..

هو لم يرتب لذلك ولم يتوقعه..

لقد وقفت في طريقه.. قاده قدره إليها..

لكنه لم يتوقع أن يكون قدره معها معقد لهذا الحد...

لقد بدا الأمر بكرهه الشديد لها...

كان يظن أن لها علاقة بما حدث وأنها على علم به..

لم تأخذه بها أي شفقة وهو يعرضها لذلك الموقف القاسي في بداية لقائهما...

أراد أن يرى كيف ستتصرف..

تصورها ستكون أكثر قوة وشراسة بما يتلائم مع ما يظنه عنها... لكن بدلاً من ذلك وجد زهرة رقيقة ترتعد من الخوف..

حتى صرخاتها كانت ضعيفة... مما جعله يعلم أنها أضعف مما يتصور..

مما يصيبه بالامتعاض من نفسه كلما تذكر ما فعله بها...

وكيف عرضها لذلك الموقف البغيض..

بعد أن عرف أكثر أي نوع من الفتيات هي...

فتاة مثلها بالتأكيد ارتعبت كثيراً مما تعرضت له...

كيف سيتصرف حين تعرف أن الأمر كله من ترتيبه هو؟!!

عليه أن يستعد الآن..

يستعد للحظة صراخها في وجهه... بل ربما صفعه.

ستنعته بالمخادع.. الكاذب...

ستنعته بكل الصفات التي يكرهها...

فهو يكره أن يكذب.. أن يخدع أحد...

لكن عمله يضطره لهذا أحياناً في سبيل الوصول للحقيقة..

عليها أن تتفهم... هو لا يفعل هذا لأنه يريده...

سخر من حاله..

وهو يخلق لنفسه الأعذار..

هل يظن أنها ستفتح أذنيها له مرة أخرى حين تعرف من هو وماذا يريد بالضبط منها؟!!

ستكون النهاية..

وكم ستكون مؤلمة..

له ولها.

لم تشعر بالخجل وهي تقص على رفيقتها الوحيدة كل ما يعتمر داخلها.. مِيا دوماً كانت بئر أسرارها ، وبالتأكيد ستكون أول من يعرف أن قلبها تحرك أخيراً.. أن رجل استطاع أن يمر بين جنباته بكل يسر وسهولة ويستقر في أعماقه بثقة... دون أن يصيبها القلق أو الخوف من ذلك ، بل على العكس... هي سعيدة ... متفائلة... فرحة.. لم يعد يؤرقها اختلاف معتقداتهما... يكفيها وحدتهما في أمور أخرى ، وطنهما.. لغتهما...

والآن مشاعرهما..

لا تعرف هل هذه ثقة منها ، لكنها بالفعل تشعر باعجابه بها...

ربما لم يصل لما وصلت إليه من مشاعر، لكنه في طريقه إلى ذلك... غرور هذا؟!!..

لا يهمها..

المهم أن يبقى آدم معها ولها... فليس كل يوم ستلتقي بتوأم روحها.

تعالت ضحكات مِيا الفرحة وهي تضم كف حنين في قبضتها وتهزها قائلة:

- آني... أنا سعيدة.. سعيدة جداً من أجلكِ... وأخيراً.

أشارت لها حنين وهي تتلفت حولها:

- أخفضي صوتك، مِيا... سينتبه لنا كل من في المقهى.

- لا يهمني البته... أين كنت يا آدم طوال تلك المدة؟!.

ابتسمت حنين بفرح مرددة:

- لكل شيء أوان مِيا.

مالت ناحيتها لتقول بهمس:

- بالضبط.. ولا يجب أن نضيع الوقت.

عقدت حنين حاجبيها قائلة:

- ماذا تقصدين؟!!

- دعيه يعرف... أخبريه بمشاعرك.

- تمزحين طبعاً.. المفترض أن يبدأ هو.

- اووووه.. يا الهي.. لن نضيع حياتنا في انتظار من يبدأ.. كم أكره هذا!!.. كما أنه بدأ بالفعل.

بهتت حنين للحظة لتقول:

- ماذا؟!.. لا لم يفعل.

- بل فعل.. هل يوجد رجل في هذا العالم يقوم بترتيب مطبخ امرأة إلا إذا كان يحبها.

حدقت بها للحظات قبل أن تنفجر ضاحكة:

- يا الهي!!.. مِيا.. تصورتك ستقولين شيئاً جاداً... أضحكتني فعلاً.

- أنا لا أمزح.

- مِيا!!!!.

- لا يهم.. المهم ألا تضيعي أياماً أخرى من حياتك دون أن يعلم كم أصبح مميزاً لكِ.. وهذ سيشجعه ليتحدث هو أيضاً... تعلمين أنني ضد فكرة الإنتظار حتى يبدأ الرجل.

- نعم بالطبع أعلم... ألستِ أنتِ من اعترف لباولو بالحب قبل حتى أن يلمح لكِ؟!.

- ومنذ ذلك اليوم وأنا سعيدة... لأنني خشيت أن أخسره.. كان سيسافر وكان يجب أن أخبره بما أشعر.. خشيت ألا يعود... وها هو معي منذ عامين... وسيبقى معي... والآن الدور عليكِ هل تريدين أن تخسري آدم؟؟.

انقبض قلبها لا إرادياً مع لفظ الخسارة ذاك...

لقد خسرت كل من كانت تحب في تلك الحياة..

أمها.. اباها..

ولم يتبقَ لها سوى مِيا.. والآن أصبح لديها شخصاً آخر..

شخص لا تريد أن تخسره بكل تأكيد ، رددت دون وعي:

- لا.. لن أخسره، مِيا.

- ومن أين لكِ بهذة الثقة؟.. أخبرتني أنه مختلف عنكِ عقائدياً.. أنا لا أعلم شيئاً عن دينه مثلكِ تماماً... ماذا لو آثر الإبتعاد؟... ماذا لو خشي أن ترفضيه بسبب هذا الإختلاف؟.. لا أطلب منكِ أن تفتحي ذراعيك وتصرخين.. "أحبك... ضمني إلى صدرك".. فقط بعض التلميح بدون تصريح... وكما يقولون الحب يصنع المعجزات... وها هي المعجزات بدأت بالفعل.. فعلتِ أكثر الأشياء التي كنتِ ترفضينها ، دعوتيه للمبيت عندكِ... وستفعلين المزيد آني... فهذا هو الحب... يلغي عقولنا بكل سهولة ورغبة منا.

الحب..

هل هذا ما تعيشه فعلاً الآن؟!...

بالتأكيد هو...

فهي في حاله لم تشعر بها من قبل...

يكفي خفقان قلبها الذي تعالى فورأن لمحته على باب المقهى لتغمز لرفيقتها قائلة:

- توقفي.. أنه قادم.

التفتت مِيا للباب لتجده يمر منه قادماً نحوهما وقبل أن يشير لهما أشارت هي مناديه عليه..

اتسعت ابتسامته مقترباً لينضم لطاولتهما ، محيياً كلتاهما..

ثم خص حنين بقوله بعربية خالصة:

- هل نمتِ جيداً؟!!

أومأت برأسها ولم تتمكن من إخفاء تلك الحُمرة التي انتشرت على وجنتيها، وهي تقول:

- وكأني لم أنم لسنوات... امممم... شكراً على كل ما فعلت.

- وماذا فعلت؟!.. هذا شكر بسيط على وليمة أمس.

- لكن ما كان هناك داعي لترهق نفسك.

- كما قلت في الرسالة.. هو أمر أجيده تماماً... ألم تقرئيها؟.

- بلى قرأتها.. لكني لم أخبرك أنني أجيد قراءة العربية.. ربما أتحدثها فقط.

- نعم.. ربما.. لكن حين قلتِ أنكِ كنتِ تنقلين عن الإنترنت طرق عمل الطعام العربي...

تصورت أن هذا باللغة العربية... وصدق حدسي كالعادة.

اتسعت ابتسامتها وتعلقت بمقلتيه لترى ملامحها فيهما، واستمر صمتهما للحظات بينما ترمقهما مِيا ببسمة ماكرة على شفتيها..

صحيح أنها لم تفهم من كلامهما أي شيء.. لكن يكفي أن تقرأ الحب في ملامح رفيقتها...

فكم تمنت أن تتمكن آني من أن تشارك قلبها مع أحد... لأنها لم تكن ستعرف سعادة الحب إلا إذا وقعت في شباكه...

وها هي سعيدة بحب ملأ قلب رفيقتها... برجل تراه مناسباً لها تماماً.

همهمت قائلة:

- بدأت أكره عدم فهمي للغة العربية.

أخرجتهما من حالة الصمت وهما يلتفتان لها ليقول آدم معتذراً:

- أسف مِيا... معكِ حق.. لن نتحدث بالعربية في وجودك.

لوحت بكفها:

- لا عليك.. أنا أثق بكما... بالتأكيد لن تتحدثا عني... وآني لا تخفي عني شيئاً... لذا تحدثا بأي لغة تريدان.. أنا أمزح فحسب.

رد آدم بود:

- هذا لطفٌ منكِ.

- أووه أعلم.

ضحكوا معاً.. ليكملوا وقتهم كما اعتادوا وحرص آدم وحنين على استخدام اللغة الهولندية فقط.

******

التقت به على محطة الحافلة كالعادة بعد انتهاء عملهما..

تبادلا المزيد من الحديث عن العمل اليوم، ليستقلا الحافلة وكما اعتادا أيضاً استقرا على المقعد الخلفي للحافلة لتجلس حنين بجانب النافذة وبجوارها آدم، الذي صمت للحظات طالت على حنين فالتفت له واتسعت عيناها حين رأته مغمض العينين وبدا مستغرقاً في النوم!!..

لم تستوعب ذلك بداية فلقد كانت المرة الأولى التي يفعلها منذ أن بدءا في ركوبها معاً..

فهمست:

- آدم.. هل أنت نائم؟!

لم يصلها إلا صوت تنفسه الرتيب الذي أكد لها أنه بالفعل في سبات نوم عميق، ابتسمت قائلة:

- ماذا حدث؟!.. ألم تنم جيداً في بيتي أم ماذا؟!

لم تتوقع رداً، فقد ظل بصرها معلقاً برأسه الذي يتأرجح تارة ويسكن تارة بفعل حركة الحافلة..

حركت أناملها بتوتر لتضمها في قبضتها مرة أخرى...

نهرت نفسها للرغبتها الغريبة في لمس ملامح وجهه، وكأنها أرادت أن تراه بأصابعها كما يفعل فاقدي البصر..

ولكنها ليست عمياء وترى ملامحه بشكل واضح.

آدم هذا يخرج أشياء منها ما كانت تتخيل أنها ستفعلها يوماً..

هل حقاً وصلت لمرحلة أن ترغبه؟..

ارتجفت شفتاها لدى تفكيرها بهذا المنطق.. هزت رأسها وكأنها تطرد أفكار تعلم أنها احتلتها وبشكل واضح، وعادت تتأمل ملامحه ثانية هامسة:

- أتعلم أنك شرقي الملامح جداً؟!... ووسيم أيضاً!.. أم أنا فقط من أرى هذا؟.. لمَ لا أرى تهافت الفتيات عليك؟... ألا يمكنهن رؤية وسامتك الصارخة هذه؟.. أم أن عينايّ هي التي

تراك بهذا الشكل؟... أذكر أن مِيا قالت أنك وسيم.. لكني أشعر أنك أكثر من مجرد وسيم... يا الهي.. آدم.. أنا..

هزت رأسها وكأنها تسخر من نفسها إنه لا يسمعها حتى..

هل قررت الإعتراف له وهو نائم!!.

زاد ترنح رأسه مع الحافلة ومع ذلك ظل في نومه، فرفعت يدها دون تفكير وجذبت رأسه ناحيتها لتستقر على كتفها:

- هكذا أفضل.

اتسعت ابتسامتها وهي تشعر بقربه منها أكثر، لتتابع الطريق دون أن تتحرك كي لا تزعج نومه.

وصل لعقله رويداً أصوات أبواق السيارات وضوضاء الشارع..

فتح عينيه ببطء ليعي أين هو، اتسعت عيناه حين استوعب أن رأسه مستقرة على كتف أحدهم وأنه لا يزال في الحافلة..

لا يصدق أنه خلد للنوم هنا...

هو بالفعل لم ينم منذ أمس لكنه لم يتصور أن يغلبه النعاس في الحافلة.. هذا ليس من طبيعته عموماً.

رفع رأسه ليحدق بوجهها الباسم والذي بدا جميلاً كما تعود أن يراه لتقول:

- استيقظت أخيراً.

فرك عينيه مردداً:

- لا أصدق.. لقد نمت بالفعل.

انهى جملته لينتبه للمحطة التي توقفت بها الحافلة لكنها كانت محطة أبعد عن محطتهما بكثير فصاح محدقاً بها:

- يا الهي!!.. لقد فوتنا محطتنا... هل نمتِ أنتِ أيضاً؟

- لا.. ولكني.. لم أرد أن أقلق نومك.. لقد شعرت أنك بحاجة إليه.

- ولكننا سنضطر إلى العودة كل هذا.

- لا يهم... مادمت معك.

كان يتحدث وهو لا زال ينظر من النافذة لكن جملتها الأخيرة والتي كانت من الرقة الذي لم يعتدها منها من قبل، جعلته يلتفت لها بوجه لا يحمل الكثير من التعبيرات.. ليرمقها بنظراته.. بوجه جامد بعض الشيء... وجه جعلها تعقد حاجبيها قائلة:

- كيف تفعل هذا؟!!

- أفعل ماذا؟!

- أحياناً لا أستطيع أن أقرأ تعبيرات وجهك على الإطلاق... هل أنت سعيد أم غاضب مما سمعت؟!

رسم بسمة هادئة على شفتيه ليقول:

- سعيد طبعاً.. هيا بنا.

لكن جملته لم تريحها..

هناك شيء ما يحيل بينه وبينها..

شيء لا تعرفه..

لكن آدم يعرفه.. هذا ما تشعر به.

هل كلام مِيا صحيح؟..

هل كونه مُسلماً هو سبب هذا الذي تراه منه أحياناً؟... يتجاوب معها للحظات ثم تتجمد ملامحه للحظات أخرى، يبتسم لها تارة ثم تندثر بسمته دون سبب واضح تارة أخرى...

ربما عليها أن تتحدث معه في أمر اختلاف ديانتهما وأنه لا يشكل مشكلة لها على الاطلاق، لكن ما تخشاه أن يكون رده أنه يشكل مشكلة له هو.

استقلا سيارة أجرة، وكان الصمت هو رفيقهما..

هي في أفكارها..

وهو كذلك..

الأمور آخذه في التطور..

كلمات حنين أضحت أكثر صراحة.. إنها تخبره بكل بساطة أنها سعيدة لكونها تقضي مزيد من الوقت معه..

تركته يغفو على كتفها ولم تأبه بالمسافة التي سيضطران أن يعوداها كي لا تقلق نومه!!

ولكن لمَ رد فعله يكون دوماً هكذا...

المفترض أن يتجاوب معها ويشجعها على التعلق به أكثر بدلاً من منحها ذلك الوجه الخالي من المشاعر...

هل تملكه الخوف فعلاً؟.. هل أصبح يخشى تعلقها به؟..

هل يتمنى أن يوقفها عن حبه؟...

هل أصبحت مهمة بالنسبة له لدرجة أنه لا يريد أن يسبب لها أي ألم؟... ويالله من ألم!!

لا يستطيع أن يوقف عقله عن التفكير في اللحظة التي ستعرف فيها الحقيقة..

لا يريد أن يحبها ولا يريدها أن تحبه...

ماذا يمكن أن يفعل؟!...

ماذا؟!

"وصلنا"

انتبه لها وهي تتحرك للترجل من سيارة الأجرة ...

رمقها بنظرة جانبية وهو يسير بجانبها مقتربين من منزلها بدت هادئة كثيراً.. وربما محبطة بعض الشيء.

صعدت الدرجات القصيرة التي تفصلها عن الباب بينما ظل هو مكانه يتابعها، فالتفتت له تحدق به في صمت، حاول الابتسام قائلاً:

- ماذا هناك؟!!

عقدت حاجبيها لتقول بنبرة حزينة:

- هل أخطأت في شيء؟.. هل أنت غاضب مني؟!

نظر لها بدهشة حقيقة قائلاً:

- لمَ تقولين هذا؟!

هزت رأسها بحيرة:

- لا أعلم... ولكني لا أستطيع أن أقرأ ملامح وجهك.

استوعب قصدها وفهم ما أصابها لقد شعرت بالإحباط بسبب ردة فعله على كلماتها البسيطة ذات المعنى الكبير لها بكل تأكيد...

ليقول:

- أعلم أنني غير جيد في التعبير عن مشاعري على ملامح وجهي، ولكن.. بالتأكيد أنا لست غاضباً منكِ..

اقترب أكثر ليصعد درجة سلم ليصبح أقرب لها وهو يتأمل عينيها ليتابع:

- حنين.. لا أعتقد أنني سأغضب منكِ أبداً... أنتِ لا تعلمين كم أصبحتِ مهمة لي... لا أتصور أن يمر يوم دون أن أراكِ... وجل ما أخشاه أن أسبب لكِ أي ألم أو حزن.. أنا فقط أريد أن أراكِ سعيدة.

تراقص قلبها بين ضلوعها وتألقت عيناها وهي ترمقه بسعادة بالغة مرددة:

- سأكون سعيدة... مادمت معك، آدم.

ابتسم قائلاً:

- حسناً... ابقي سعيدة قدر استطاعتك حنين.. ابقي سعيدة مادمتِ معي.

أومأت برأسها ايجاباً وظلت أعينهما تتحدث مع بعضهما لوقت آخر قبل أن يقول:

- سأذهب.. أراكِ غداً.. وفي المرة القادمة التي أنام فيها أيقظيني.. لا تقلقي لن أموت.

تغيرت ملامح وجهها وبدا عليها الإنقباض، فعقد حاجبيه قائلاً:

- ماذا حدث؟!

هزت رأسها قائلة:

- لا تقل هذا ثانية.

بدا غير مستوعب لكلماتها فأردفت:

- لا تذكر الموت... لقد أخذ مني كل من أحب... فلا تذكره حتى ولو مزاحاً.

بدا التأثر على وجهه ليبتسم لها برفق:

- حسناً.. كما تريدي... والآن يجب أن أذهب.

أومأت برأسها مرددة:

- انتبه لنفسك.

- سأفعل.. لا تقلقي علي.

تابعته حتى اختفى، وضعت كفها على صدرها في محاول لتهدئة نبضات قلبها التي لا زالت تهرول خلف بعضها لتهمس:

- كيف أمكنك أن تفعل كل هذا بي؟!... كيف؟!!

******

داعب ميدالية مفاتيحه منتظراً على كرسيه، يحدق في لا شيء...

منهمك التفكير...

حتى أنه لم يشعر برئيسه وهو يدخل المكتب جالساً أمامه ليقول:

- فيما الشرود ستيف؟!!

رفع رأسه قائلاً:

- افكر في اللحظة المناسبة لإلقاء القنبلة.

عقد نورمان حاجبيه:

- أي قنبلة؟!!

اعتدل ستيف قائلاً بتركيز:

- لقد تأكدوا بالفعل أن بطاقة الذاكرة ليست في المنزل، لقد قضى الليلة هناك... ورصدت عيوننا أنه كان يبحث في كل مكان طوال الليل. وبالتأكيد لم يعثر على شيء.

- ثم؟!!

ابتسم ستيف في مكر:

- البطاقة في المصرف كما خمنا مسبقاً.

- لم نتأكد بعد.

- أنها هناك... لقد دخل ذلك المصرف وقام باجراءات فيه... صحيح أن المصرف يعمل بسرية كبيرة ولا نعرف ماذا كان يفعل بالداخل... لكن التفسير الوحيد لوجوده هو ما قلته لك... لأن لديه بالفعل حساب مصرفي في مصرف آخر.. فما داعي لدخوله هذا المصرف إلا أنه يقدم لعملاءه خزينة خاصة وسرية وآمنة يؤجرها لفترة من الزمن مقابل مبلغ من المال... أنا واثق أنه قام بتأجير خزينة ما ووضع البطاقة فيها.

حك نورمان ذقنه مفكراً ليردف ستيف:

- لن نستطيع أن نصل لتلك الخزينة إلا من خلال ابنته... فهي بصفتها وريثته الوحيدة يمكنها أن تطلع على محتويات الخزينة.

- أليس من المفترض أن يرسل لها المصرف؟.

هز ستيف كتفيه:

- ليس بالضرورة... مادام مدة تأجير الخزينة لم تنتهِ لن يهتم المصرف بصاحبها.. هم لا يعلمون أنه مات.. وعلى ابنته أن تذهب إليهم بشهادة الوفاة لتتمكن من فتح الخزينة... وعلى ما يبدو هي لا تعلم بأمر تلك الخزينة... لعله لم يجد الوقت لإطلاعها بالأمر.

همهم نورمان ليقول:

- إذاً فيما تفكر؟!

- كما قلت لك... أفكر في اللحظة المناسبة لإلقاء القنبلة.

عقد نورمان حاجبيه قائلاً بنفاذ صبر:

- بمعنى؟!!

ضحك ستيف ليقول:

- سأخبرك... هم الآن في حيرة أين يمكن أن تكون بطاقة الذاكرة تلك... وسيستمرون في خطتهم السخيفة في التقرب للفتاة، ونحن سنستغل كل هذا ضدهم... سنتركها معهم لبعض الوقت... حتى أظهر أنا وأخبر الفتاة بكل شيء.

ضاقت عينا نورمان:

- كل شيء.

- لا تقلق... فقط الأشياء التي ستجعلها كاللقمة السائغة في أيدينا... وبقدر ما أحبته ستكره... خاصة أنه سيكون أمامها ولن يستطيع الإنكار.

اعتدل نورمان صائحاً:

- أمامها.. هل تنوي الظهور أمامه؟... أنه يعرف ملامحك جيداً... لن يتوانى في قتلك بعد أن قتلت رفيقه أمام عينيه.

ابتسم في خبث قائلاً:

- حسناً... سأدافع عن نفسي إذاً.

ضرب نورمان مكتبه بقوة:

- يبدو أنك مُصر على أفكارك السخيفة... قلت لك ليس في نيتنا قتله.

رد بإصرار مخيف:

- ولكنه في نيتي أنا... لمَ نجبن في أمر كهذا؟... دعهم يعلمون أننا الأقوى وأنهم سيفقدون المزيد والمزيد من رجالهم بإصرارهم على السعي خلفنا... فليهتموا بآخرين... ويدعوننا وشأننا.

رمقه نورمان طويلاً قبل أن يقول:

- وما الذي يدريك أن الفتاة ستكون معنا بعد قتله أمامها... ألست من قلت أن عشقها له سلاح ذو حدين؟؟

- لن أفعلها قبل أن أخبرها أنه هو قاتل أبيها، قتلوه هو ومن خلفه خشية أن يصل لنا ما يريدون أن يأخذوه منها الآن... وكيف أنه يستغلها ولا أستبعد أن يتخلص منها كما تخلصوا من أبيها... لا أعتقد حينها أنها ستمنعني.. قد تطلب مني قتلها هي أيضاً انتقاماً من نفسها على حبها لرجل مثله!.

صمت نورمان مستسيغاً لفكرته قائلاً:

- امممم.. يعجبني هذا.. إلصاق تهمة مقتل أباها به فكرة جيدة... لكن لا زلت لا أريد قتله.

- أخبرتك أنه سيكون دفاعاً عن النفس... أم تريده أن يقتلني؟.

- بالطبع لا.. فأنت من أفضل رجالي.

- جيد.. دعني أعمل بحريتي إذاً.

زفر مستسلماً:

- فليكن ستيف.. فقط كن حذراً.. لا نريد خسارة الفتاة.. وبالتأكيد لا أريد خسارتك أنت أيضاً.

- عزيزي نورمان... شكراً لحرصك.. ولا تخشى عليّ.

قالها واقفاً متجهاً للخارج فأوقفه نورمان قائلاً:

- أخبرني متى ستفعل ذلك.

- بالتأكيد... سأمنحها المزيد من الوقت معه.. كي تكون صدمتها به أشد وطأً... كما أننا فقط من نعلم أين البطاقة؟.. لذا نحن بأمان... وحالنا أفضل من حالهم.

أومأ له نورمان تأكيداً على كلامه ليتركه يغادر... بينما رمق الباب الذي أغلقه خلفه للحظات قائلاً:

- أرجو ألا تقود نفسك لنهايتك ستيف!!

******

تأففت حنين وهي تنظر للساعة للمرة العاشرة... لتقول:

- سيذهب آدم ولن أراه اليوم أيضاً.

ابتسمت مِيا قائلة:

- لا بأس تحملي.... المهم أن ننتهي من إعدادات الحفل.

أومأت حنين برأسها لتضيف مِيا:

- ستقومين بدعوته أليس كذلك؟

- بالتأكيد سأفعل.. أريده أن يرى مكان عملي ويتعرف على أطفالي الصغار.

تمتمت مِيا:

- ليت باولو مثله.. يرفض أن يحضر حفلات المدرسة بسبب ضوضاء الأطفال.

ربتت حنين على كفها قائلة:

- لا بأس مِيا... سيغير رأيه حين تنجبين منه.

- هذا لو أنجبنا أطفال!!

عقدت حنين حاجبيها مرددة:

- ماذا... لمَ تقولين هذا؟!

تجهمت مِيا وهو تردد:

- باولو لا يريد أطفال... قالها لي صراحة.

- ماذا!!!... ليس من حقه أن يطلب شيئاً كهذا.

- بالتأكيد.. وهو يخيرني.

- لا أصدق!!... باولو قال لهذا!... مستحيل!... أنه يحبك كثيراً... لا أصدق أن يطلب شيئاً كهذا.

- لا بأس.. لقد قبلت.

فغرت حنين فاها بغير تصديق:

- ك.. كيف تقبلين بهذا؟...

- الحب، آني.. الحب... أنتِ تحبين الآن وتعلمين كيف هو الحب حين يملكك... لا أريد أن أخسره آني.. لا أتخيل حياتي بدونه... وربما يوماً ما سيغير رأيه.

ظلت حنين ترمق رفيقتها طويلاً...

هل الحب حقاً قد يحولها إلى شخص مستسلم لكل ما قد يرغبه حبيبها كي لا تخسره.؟..

هل يوماً ما ستتنازل عن أشياء تحبها وتقدرها فقط من أجل رجل تحبه؟!

طغى صوت مرح الأطفال على الأجواء مع بدء الحفل الذي تعده المدرسة سنوياً للتلاميذ ، وكان المجهود الأكبر على مدرسي قسم رياض الأطفال.. اللذين رتبوا لفاعليات الحفل كلها واهتموا بالطعام وأشرفوا حتى على الدعوات.

وقفت مِيا بجانب حنين تتابعان الأجواء الفرحة لتقول:

- اليوم سيكون رائعاً... لن يذهب تعبنا هباءً.

ابتسمت حنين مجيبة:

- نعم.

مالت مِيا على كتفي رفيقتها:

- متى سيظهر؟!!

فهمت حنين عمن تتحدث لكنها ادعت العكس:

- من تقصدين؟!!

- هاهاها.. وكأنكِ لا تعلمين... الجميع في انتظاره.

حدقت بها في دهشة مرددة:

- الجميع!!.. لا أفهم.

عقدت مِيا ذراعيها أمام صدرها قائلة:

- ليس الجميع.. أنا أتحدث عن الفتيات... جميعهن في انتظار أول من حمل لقب حبيب آني!.

رفعت حاجبيها لترمقها للحظات ثم عقدتهما في غضب:

- مِيا ماذا فعلتِ؟!

- ماذا؟!!... كنت أدافع عن رفيقتي... لطالما قالوا عنكِ أنكِ معقدة... الآن لا يمكنهن ذلك.. فأنتِ أصبح لكِ حبيب.. حبيب راائع.. دعيهن يمتن كمداً.

- مياا!.. أرائهن عني لم تهمني البته.. وأنا لم أنوي أن أعرف آدم عليهن بتلك الصفة.

- وبماذا ستعرفين عنه إذاً؟؟... منقذ حياتي!!.

أنهت جملتها بالتلويح بكفها بشكل مسرحي.

لتهز حنين رأسها في يأس مرددة:

- تباً لكِ ميا.. تباً.

أمسكت مِيا بكتفها هاتفة:

- أنه هنا.

التفتت حنين حيث تشير رفيقتها لتقع عيناها على حبها الأول بلا منازع.. آدم..

لتبتسم وهي تتجه له من فورها ، ويستقبلها بابتسامته الرزينة الهادئة التي اعتادت عليها تماماً ، صافحته قائلة:

- آدم.. لقد أتيت!.

- وعدتك أن أفعل... كما أنني افتقدك كثيراً... بسبب هذا الحفل الذي يبدو مميزاً.

أشارت لما حولها قائلة:

- معظم ما تراه هنا.. من إبداعي أنا.... وميا وبعض زملائنا.

ضحك قائلاً:

- ما هذا التواضع؟! تصورت أن اسمك فقط هو الذي سيذكر فإذا بكِ تذكرين مجموعة خلفه!...

اخفت بسمتها خلف أناملها قائلة:

- أنا أمزح... عملنا جميعاً سوياً.

- عمل رائع.

انضمت مِيا لهما قائلة:

- أهلا آدم... سعيدة بحضورك.

- شكراً ميا ... أين باولو؟!!

- لا تذكرني.. أنه لا يحب صخب الأطفال.. فرق رهيب بيننا.

أومأ برأسه متفهماً مضيفاً:

- لا بأس.. سيحب أطفاله منكِ لا محالة.

لم يفهم ذلك التعبير الذي ظهر على وجهها للحظات قبل أن تقول:

- شكراً لك.

ثم مالت ناحيته مردفة:

- عليك أن تدوربها في كل مكان.. يجب أن يعرف الجميع أي الرجال تصاحب آني الآن.

جذبتها حنين من ذراعها وقد تملكها الخجل:

- مِيا.. توقفي.

لتتسع ابتسامة أدم وهو يراقب خجلها الواضح.

تركتهما معاً وانصرفت لتأخذه حنين في جولة في أجواء الحفل...

ولم يخفَ عليه تعلق معظم الأطفال بها، كان يتابعها وهي تحمل ذاك وتداعب تلك...

لا شك في أن ابتسامتها تلك أحد أهم عوامل تقربها للأطفال..

روحها المرحة...

عفويتها...

طفولتها التي تغلفها فور اقترابها منهم لتصبح وكأنها واحدة في مثل عمرهم..

وجهها الذي يتبدل متأثراً لبكاء أي واحد منهم، وجه حزين جعله يشرد للحظة...

لقد نسي كيف يكون وجهها وهو حزين..

فلطالما تضحك وتبتسم حين تراه...

كم يتمنى أن يعثر على مبتغاه ويتركها قبل أن يرى الوجه الآخر... الوجه الحزين المجروح الذي سيمزقه هو قد رما يألمها هي...

ولكن هيهات...

يبدو أن الأمر لن ينتهي بالشكل الذي يريد..

هو حتى لا يعرف كيف سينتهي الأمر!!.

خرج من أفكاره على وكزة خفيفة على كتفه ليلتفت إليها ليجد بعد الدهشة على ملامحها:

- فيما الشرود؟.. كنت أتحدث إليك ولم تسمعني.

- آسف.. لم أكن منتبهاً.. فيما كنتِ تتحدثين؟!

- لا عليك... كنت أخبرك عن الأطفال فحسب.

نقل بصره بينهم ليقول:

- أنهم رائعين.

- تحب الاطفال؟!!

- بالطبع.. كيف لا نحبهم..أنهم أطفال.

ابتسمت في سعادة فآخر ما تتمناه ألا يرغب في أطفال أو شيء من هذا القبيل.

- هذا جيد... أنا محظوظة إذاً... فباولو لا يحب الأطفال.. وهذا يؤرق ميا.

رمقها بنظرة جانبية لـ لحظات ليلاحظ تلك الحمرة التي تعتلي خدها...

هل حقاً تقصد أن تجعله في مرتبة باولو لمِيا كحبيبها؟...

هما إلى الآن لم يتحدثا بشكل صريح عن ماهية علاقتهما...

فلم يصفوها قط...

لم يمنحوها اسماً..

هو حتى لم يقل أنه معجب بها مثلاً وكذلك هي...

لطالما تعمد عدم الإفصاح أملاً في انتهاء مهمته قريباً ، أما هي فبدأت تفصح بشكل غير مباشر معظم الوقت...

خاصة بعد كلماته القليلة لها أمام منزلها.. تلك الكلمات التي جعلتها تتصرف بعفوية أكثر معه...

تصب على أذنيه عبارات تخبره بشكل غير صريح أنها تعتبره حبيبها الفعلي..

وكم يستشعر خجلها دوماً حين تقول شيء كهذا..

وكأنها لا تتصور أن تكون هي البادئ في اظهار مشاعرها نحوه...

هل عليه أن يكون أكثر رحمة بها؟..

ويبدأ هو...

أم بهذا سيكون أكثر قسوة؟!!.

"آني.. آني"

قالها أحد الأطفال متعلقاً بساق حنين التي حملته في الحال قائلة:

- أليكس.. أين كنت؟!!

تعلق أليكس برقبتها محتضناً اياها مجيباً:

- أين كنتِ أنتِ؟!

قالها وهو ينظر لآدم بضيق لاحظه الأخير ليبتسم هامساً بالعربية:

- يبدو أنني لا أروق لهذا الطفل.

ربتت حنين على رأس أليكس قائلة:

- أنا هنا دوماً بجوارك أليكس.. فقط أطلب ما تريد.

- تعالي لتتناولي الطعام معنا.

ردد آدم:

- معنا!!... من يقصد؟!!

لم تفهم حنين كذلك قصده فقالت:

- من معك؟!!

- أبي.

قالها وهو يشير لنقطة ما ليتبعه كلا من حنين وآدم ليريا والد أليكس يلوح لهما من بعيد..

عقد أدم حاجبيه وهو يرمق الرجل طويلاً، لكن الرجل تجاهله تماماً واقترب منهما وعيناه متعلقة بحنين فقط...

بطريقة ود آدم بها أن يقتلعهما من محجريهما...

ليقف أمامها بابتسامة بدت لآدم سخيفة جداً قائلاً:

- أليكس.. كُف عن ازعاج الآنسة آني.

مط آدم شفتيه هامساً بلغتهما الخاصة:

- وكأنه ليس هو من أرسله!.

وكزته حنين برفق حين فهمت مقصده، لتقول:

- لا أبداً سيد ديفيد.. تعلم أن أليكس صديقي... ويمكنه الإسراع نحوي وقتما يشاء.

اتسعت ابتسامته قائلاً:

- يمكنك مناداتي ليون... فقط ليون.

وقبل أن ترد قال أليكس:

- إذاً.. ستتناولين الطعام معنا؟!!

اشتاط آدم غضباً حين رأى ابتسامة ليون هذا في اتساع في انتظار رد حنين على طلب ولده..

اعتصر قبضته لا شعورياً محدثاً نفسه..

"هل هذا الوغد يتصرف وكأنه لا يراني؟!!.. فليكن... لنضع الأمور في نصابها الصحيح"...

شعرت حنين بالتوتر ازاء ما يحدث خاصة مع نظرة جانبيه لوجه آدم الذي يبشر بالكثير من الغضب، لتبتسم في توتر قائلة:

- عزيزي أليكس.. أكره أن أرفض تلك الدعوة الكريمة... لكنني..

قاطعها آدم الذي فوجئت به يحيط كتفيها بذراعه ليميل ناحيتها هي وأليكس قائلاً:

- لكنني سبقتك ألكيس ودعوتها على الغداء.. ومن الصعب إلغاء ذلك... كما أن لدينا ترتيبات أخرى بعد الغداء!... يومنا مشحون للغاية!!.

قال كلماته الأخيرة وهو يتطلع مباشرة لليون... الذي منحه نظرة صامتة.

تصلب جسدها بشكل واضح فلأول مرة يقدم آدم على تصرف كهذا، أنه حتى قلما يحتضن أناملها بين أصابعه..

رفعت عينيها تحدق بوجه آدم الذي صار أقرب إليها من أي وقت مضى، بينما آدم لم يعيرها اهتمامه وإنما ركز بصره على وجه ليون مانحاً اياه نظرة شبة تحذيرية، فهمها ليون وهو يحمل أليكس من بين ذراعي حنين قائلاً:

- لا بأس أليكس.. لا يمكن أخذ الآنسة آني من ضيوفها... سندعوها معنا في وقت آخر.

ارتسم الإحباط والضيق على وجه الصغير ولم تتمكن حنين من متابعة ما يحدث فلقد كان عقلها في مكان آخر..

ابتعدا عنهما ليزيح آدم ذراعه عن كتفيها ويرمقها قائلاً:

- ماذا هناك؟!.. لمَ تنظرين لي هكذا؟

- ألن تكف عن مفاجأتي؟!

ابتسم في مكر:

- هل كانت مفاجأة سيئة؟!!

هزت رأسها في حيرة:

- لمَ فعلت هذا؟!

التفت إلى حيث يسير ليون مع ابنه قائلاً:

- لـ يفهم.

عقدت حنين حاجبيها مرددة:

- لـ يفهم؟!!... يفهم ماذا؟!

عاد ببصره لها ومال ناحيتها قليلاً ليغرق ملامح وجهها في عينيه مردداً بنبرة غير اعتيادية:

- أنكِ.. لي.

بُهتت لرده للحظات وقد اتسعت عيناها قائلة:

- ماذا؟؟

ابتسم بثقة وأمسك بكفها برفق وهو يقول:

- أشعر بالجوع... أين تضعون الطعام في هذا الحفل؟.. هيا لنأكل.

جذبها خلفه دون أن يرى تلك البسمة المترددة التي تسربت لشفتيها رويداً رويداً...

ولم يشعر بضربات قلبها التي تكاد تسمع صوتها.

******

الغيرة...

ذلك السلاح الذي يقاتل به المتحابين أحياناً...

ذلك السلاح الذي هو ذو حدين..

حد قاطع... وحد واصل..

إما أنه يقطع العلاقة ويدمرها بالفعل وينهيها...

أو أنه يوصلها ويقويها ويحيها من جديد.

وفي حالته هو كانت الحد الواصل...

ما أن اشتعلت داخله حتى قرر أن يكون أكثر صراحة...

ومع ظهور أول ذكر ليحوم حول أنثاه قرر ابعاده في الحال...

أراد أن يريه أنها تخصه وليس له أن يقترب منها.

نظرات الإعجاب الفجة التي ملأت عينا ذاك المدعو ليون وهو يرمق حنين أغضبته كثيراً..

هو يعلم أنها فتاة جميلة وستجذب الأنظار في أي وقت.. لن يستطيع أن يمنعها عن أعين الناس...

لكنه في الوقت نفسه لا يمنحها أي طمأنة فيما يخص علاقته بها..

ما الذي يمنعها من تركه إذاً؟...

أفكار كثيرة هاجمت رأسه في تلك اللحظة...

نسي عمله..

مهمته...

الهدف من وجوده بجوارها ولم يتذكر إلا أنه عاشق...

عاشق لتلك المرأة التي يغتال براءتها رجل آخر بنظراته..

وتصرف بناءً على هذا.

ترك لقلبه حرية اختيار التعبيرات التي نفذها عقله بطواعية...

ضم كتفيها إليه بتملك... مع نظرة تحذيرية لهذا العدو المحتمل.

ليختم ذلك بكلماته لها..

كلمتان فحسب...

كلمتان عبرتا عما يشعر به الآن...

"أنكِ لي"

استرخى على فراشه مبتسماً وهو يستعيد ملامح وجهها عند تلقيها كلمتيه.. على ما يبدو أصيبت بصدمة ما...

لكن بعد ذلك لم يرى على وجهها إلا السعادة والبهجة وقد تقبلت تمسكه بكفها لتتعلق هي بذراعه...

هي أيضاً قبلت كلمتيه وكأنها تجيبه..

"نعم.. أنا لك"

ليقضي معها بقية الوقت في الحفل بنشوة حقيقية...

بمشاعر ترك لقلبه العنان لتعبير عنها...

لم يتراجع...

لم يخشى شيئاً... بل... أراد أن يستمتع بحبها له وحبه لها..

وتباً إلى أي شيء آخر...

إذا كان سيحرم منها لا محالة فلماً لا يسعد معها في الوقت المتبقي له بجوارها.

عادت لحظة الفراق تتأرجح أمام عينيه...

مسح وجهه بكفه وكأنه يمحيها..

لكن هيهات..

هو أكثر من يعلم أنها ليست له..

ولن تكون أبداً له...

كيف أصبح فجأة بهذه الأنانية؟...

كيف يعطيها أمل كاذب؟..

وحب لن يستمر.؟؟

اعتدل في فراشه وهو يمسك بحافظته ويطالع صورته مع أحمد التي طالما تحدث إليها منذ أن اختلت موازين مشاعره معها.

"تذكر أحمد... حين سألتني عن فتاة أحلامي... حينها قلت ليس لدي أي فتاة أحلام.. وليس لي نية في الحب والزواج... فقلت لي... "سهم الحب لا يحتاج استئذان".. ها قد جاء سهم الحب ليثبت لي صدق مقولتك... هل تصدق أنني أحببتها فعلاً؟... أحببتها أحمد... كانت وسيلتي للإنتقام ممن تسببوا في قتلك.. كنت سأنتقم منها ومنهم جميعاً... وبدلاً من هذا.. أحببتها.. أصبحت أخشى عليها مني ومنهم... ستكون الضحية في الحالتين... سواء بسببي أو بسببهم... ماذا أفعل أحمد؟!... ماذا أفعل لأحميها؟.. هل لي أن احملها واهرب بعيداً عن كل شيء؟؟ بما كنت ستنصحني رفيقي؟""..

زفر في حيرة وضيق وهو يردد:

- لمَ فعلت فعلتك تلك أحمد؟... ليتك ما فعلتها.. ليتك بقيت هنا... وليتني ما أحببتها.

******

احتضنت وسادتها وهي تدفن وجهها بها مستمرة في الضحك بسعادة لتلقي بنفسها على فراشها وهي تأرجح ساقيها في الهواء، لتقترب مِيا منها قائلة:

- كل هذا لأنه فقط قال "أنكِ لي".. ماذا ستفعلين لو قال "أحبك"؟

أظهرت عينيها من أسفل الوسادة ووجهها يضيء من الفرح:

- يا الهي... أحبك.. كم اشتاق لسماعها منه.. ربما سأفقد وعي من السعادة!.

تأملتها مِيا للحظة قائلة:

- آني.. بدأت أقلق عليكِ.

توقفت حنين عن الضحك لتعتدل قاعدة وهي تقول:

- ماذا تقصدين؟!!

هزت كتفيها قائلة:

- لا أعلم... اشعر أنكِ تحبينه أكثر مما يجب.

- ماذا؟!!

قالتها حنين بضيق مردفة:

- هل يوجد حب يجب وحب أكثر مما يجب؟!!

جلست مِيا بجوارها لتربت على كتفها:

- لم أقصد.. فقط... الحب الجارف عادة يكون مؤلم... وأنتِ تحبين للمرة الأولى.

فوجئت بالوسادة تطير لترتطم بوجهها مع صوت حنين الغاضب:

- اصمتِ... أتردين أن تفسدي عليّ فرحتي... دعيني أنام وأنا سعيدة.. هيا اذهبي.

حدقت بها مِيا بدهشة ثم انفجرت ضاحكة:

- يا الهي!!.. جاء اليوم الذي تضربني فيه آني الرقيقة من أجل رجل... هل اقتربت نهاية العالم؟؟!!.

أرادت حنين أن تضربها بوسادة أخرى لكن مِيا فرت هاربة من أمامها لتقول:

- حسناً سأذهب... نوماً هنيئاً.. واملأي أحلامك بآدم.

أخرجت حنين لسانها كيداً قائلة:

- سأفعل.

ضحكت مِيا وهي تقول:

- هكذا... حسناً... غداً عطلة الأسبوع ستخرجين معه طبعاً... كنت أفكر أن نأتي أنا وباولو أيضاً... لكني أعتقد أنك تفضلين البقاء معه وحدك... لعلك تسمعين منه الكلمة التي ستفقدين وعيك لدى وصولها أذنيكِ.

قذفت حنين بوسادتها لكنها ارتطمت باب الغرفة الذي أغلقته مِيا بسرعة لتفتحه مجدداً قائلة:

- مجنونة!!

تدثرت بغطائها بحثاً عن النوم الذي فر مع فرار مِيا.

وكيف تنام وهي تشعر أنها ستطير من السعادة...

مما جعلها تعيد كلمات مِيا في رأسها... أتحبه أكثر مما يجب حقاً؟!!...

لا يهم...

أنها تحبه وكفى...

تحبه وسعيدة بهذا جداً..

اشتعل وجهها ابتهاجاً وهو تردد ما قاله لها:

"أنكِ لي"

كم كانت كلمة تملكية متغطرسة، لكنها لم تغضب أبداً لدى سماعها...

فلكم تمنت أن تسمع أي كلمة منه تعني حقاً ما وصل لها من كلمته تلك... أرادت أن تثبت لنفسها أنه يحبها ويريدها كما تحبه وتريده...

أنه يتجاوب معها وليس عليها أن تقوم هي بالمبادرة كما قالت مِيا...

حتى عندما قال لها

"كوني سعيدة ما دمتِ معي"

فرحت بها بعض الشيء لكن وصل لها شعور ما بأنه يتحدث عن مشاعرها هي لا هو..

إن بقاءه معها يسعدها هي لا هو..

لكن هذه المرة أراد أن يخبرها أنها له...

أنه لن يتركها تذهب لغيره...

وكم تمنت حينها أن تخبره أيضاً بأنه لها...

وأنها لن تسمح له أن يذهب لغيرها...

ليون... ليون هو الذي حرك لسانه أخيراً...

ليتها جعلته يلتقي بليون باكراً...

لقد أصابته الغيرة بالتأكيد..

إنه يغار عليها..

لم يتحمل تودد ليون لها...

بل لم يتحمل نظرة أي رجل آخر خلال الحفل...

شعرت به يخفيها خلفه كلما تعقبها أحد بعينيه..

كان يحميها...

يحميها كما فعل منذ أول لقاء بينهما...

تسرب لها النوم أخيراً وهو تتمتم:

- ابق لي ومعي آدم.. لتحميني دوماً حبيبي.

*****

وقف آدم بجانب السيارة التي ترجل منها باسم ليجاوره قائلاً:

- ستقضيا اليوم معاً؟.

أومأ آدم برأسه فرفع باسم له مفاتيح السيارة:

- خذ إذاً.. استخدم السيارة أفضل... وانتبه لمن يتبعكما.

- حسناً.. سأفعل.

أراد آدم أن يركب السيارة لكن باسم أوقفه قائلاً:

- انتظر.

التفت إليه ليجده يمنحه علبة حمراء صغيرة فعقد آدم حاجبيه قائلاً:

- ما هذا؟!!

ابتسم باسم مازحاً:

- لا تقلق... لن أطلب منك أن تعرض عليها الزواج... لن نصل لهذه المرحلة.

ظل آدم يرمقه بشك ليردف باسم:

- إنها قلادة صغيرة... قدمه هدية لها... فهن يحببن الهدايا.

أخذ آدم العلبة ليرى ما فيها فأمسك بأنامله سلسلة رفيعة جداً متعلق به قلب فضي متوسط الحجم.

أعاده للعلبة قائلاً:

- حسناً.

- وتأكد أن ترتديه طوال الوقت... أطلب منها هذا.

عاد آدم يرمقه بريبة قائلاً:

- ولماذا؟!

أجاب باسم بهدوء:

- لأن به جهاز تعقب.

بدت الدهشة على ملامح آدم وهو يردد:

- جهاز تعقب.. لماذا؟!... هل جد شيء؟!!.. هل هناك ما لا أعرفه؟!!

أجابه باقتضاب:

- لا تقلق كل شيء على ما يرام... حتى الآن.

شعر آدم بالإستفزاز والضيق من تلك العبارة المقتضبة فأغلق باب السيارة ليرمق باسم قائلاً:

- باسم.. ماذا هناك؟!... هل تحاول أن تخفي عني شيئاً؟!!

عقد باسم حاجبيه ليقول بلهجة حازمة:

- تعلم أنني المسئول الأول عن هذه العملية.

أجابه بتحد:

- وأنا المنفذ الوحيد لها.

ظهرت بسمة ما على شفتي باسم الذي قال:

- أنت الذي طلبت هذا... ونظراً لكفائتك قبلت الإدارة... ولكن لا تضمن أن يستمر هذا طوال الوقت... حتما سيكون لك رفيق عمل في أوقات أخرى.

فرج آدم شفتيه لكن باسم أشار له بكفه:

- سنكمل فيما بعد.. ستتأخر عليها... وكما قلت لك تأكد من ارتدائها القلادة...

وصدقني لم يحدث جديد... فقط لدي شعور أننا ربما سنحتاجه... لا أدري.. ربما.

انطلق آدم مبتعداً بينما ضاقت عينيّ باسم مردداً:

- أشعر أنه من الخطأ تركك تكمل العملية وحدك... فلا تجبرني على فعل عكس ما تريد.

****

انتهى قداس الأحد الذي تحضرة حنين بانتظام، كما عودها أباها...

ومع خروج معظم الحاضرين قامت من مكانها لتتجه إلى القس الذي ابتسم فور أن رآها قائلاً بلهجة ودودة:

- طفلتي حنين.. كيف حالك؟!

- بخير أبتِ... مادمت أراك بصحة وعافية.

ربت على رأسها قائلاً:

- باركك الرب.

أخفضت بصرها للحظات لتقول:

- أبتِ.. لدي اعتراف.

حافظ على ابتسامته قائلاً:

- تعالي.

تبعته لتجلس في ركن خاص بأمور اعترافات اتباع الكنيسة، ليقول لها من خلف جدار خشبي:

- أسمعك ابنتي.

- أبتِ.. أنا أحمل الكثير من مشاعر الحب.. لرجل ليس من ديننا.. هل تعتقد أن هذا سيغضب الرب؟.. ويغضب أبي مني؟.

صمت القس للحظات ليقول بنفس النبرة الهادئة:

- المحبة من أسمى المعاني التي نحملها للآخرين... أياً كانوا.. المهم أن تبقي أنتِ من أتباع المُخَلّص وعليكِ أن تحملي دعوته ومحبته لمن تحبين... لينال من بركته وينال السعادة والراحة الأبدية... وابننا رفقي لا اعتقد أنه غاضب منكِ.. لم يحب في هذه الدنيا أحد سواكِ... فلتصل له كثيراً.

غمرتها مشاعر الراحة وهي تردد بهمس:

- شكراً أبتِ... سأفعل... باركني بدعواتك.

استمعت لدعواته لها قبل أن تغادر وقد علت شفتيها بسمة رقيقة وتصميم بأمر ما.

******

استند آدم على السيارة أمام الكنيسة الكبيرة في انتظار خروج حنين كما سبق واتفقا..

كان يقلب العلبة الحمراء بين أصابعه، شغله كثيراً فكرة جهاز التعقب هذا...

باسم لن يفعل هذا بدون سبب...

وما الذي يعنيه بأنه ربما يحتاجه؟...

هل حنين ستبتعد عنه مثلاً؟؟

أم يقصد أنها قد تتعرض للإختطاف؟.

انقبض قلبه وهو يعتصر العلبة بين أصابعه عصراً..

هل حنين في خطر ما؟!...

مستحيل!!..

لن يسمح أن يؤذيها أحد!..

هل سيفشل هذه المرة أيضاً في حماية من يحب؟...

أغلق عينيه وبدا كمن يحارب ذكرى ما...

"- أحمد... أحمد لا تتحرك من موقعك... مهما حدث لا تتحرك من موقعك... لا تظهر نفسك أبداً.

جملة صاح بها آدم بقلق وحذر بينما ينظر لفوهة مسدس يحمله شخص أشقر يبتسم بتشفي:

- وأخيراً التقينا... وأخيراً.

عقد آدم حاجبيه دون تعليق كان يدرس الموقف حوله....

الرجل يقف على مسافة آمنة منه فلو تحرك في محاولة لأخذ المسدس سيكون الأشقر أسرع منه في تفاديه وسيخسر بكل تأكيد... خاصة وقد فقد سلاحه أما أحمد فقد أصيب في يده ولن يستطيع مساعدته...

هل هو الآن ينتظر نهايته؟...

هل عليه الاستسلام؟.

- هل تفكر في وسيلة للفرار؟!!... لا عليك لا ترهق نفسك... أنت صيدي الآن.. ولن يحميك مني أحد... تمنيت أن أعذبك وأمزق أوصالك.. لكني لا أضمن أن تظل في قبضتي طويلاً وعلي انتهاز الفرصة قبل أن تضيع... كان يجب ألا تزج أنفك في شئوني.. لقد خسرت الكثير بسببك... لكن ها أنت بين يدي.. رفيقك الساذج ساعدني على الايقاع بك... وداعاً أيها الأحمق.

انقبضت عضلاته وأراد أن يلقي نفسه بعيداً عن مرمى النيران التي على وشك إصابته ودون أن يعي ما يحدث فوجيء بمن يصيح...

- لاااااااا

ليسقط أرضاً مع جسد أحدهم بينما انطلقات رصاصات أخرى من أماكن مختلفة وتعالي صوت أحدهم...

"ستيف.. أسرع.. لقد جاءتهما امدادات... أسرع"

ليفر الرجل الأشقر بعد أن تأكد أنه لم يصب غريمه بل شخصاً آخر.

اتسعت عينا آدم وهو يحدق بجسد أحمد المضرج بالدماء ليتشبث به صائحاً:

- أحمد.. أيها المعتوه.. ماذا فعلت؟.. لمَ لم تطيعني... من طلب منك حمايتي؟!!.. النجدة... أريد مساعدة طبية هنا... هل يسمعني أحد؟.... أحمد... أحمـــــــاااااد.

جاءه صوت أحمد باهتاً:

- خدعني رفقي... خدعني."

أخرجه من ذكراه صوتها الذي بدا بعيداً وهي تردد اسمه...

ففتح عينيه يحدق بحنين التي ابتسمت وهو تقول:

- أتنام وأنت واقف أيضاً؟!!

حدق بوجهها بوجوم واسم أبيها يتردد في عقله، فعقدت حاجبيها قائلة:

- هل أنت بخير؟.. ماذا هناك؟!

أخفى ملامحه المتجهمة ليضفي بعض البهجة على وجهه قائلاً:

- أنا بخير... منذ متى وأنتِ هنا؟

- منذ لحظات.. لم تشعر بي فناديت اسمك؟...

نقلت بصرها للعلبة الحمراء التي في يده فضاقت عيناها قائلة:

- ما هذا؟!!

رمق العلبة الحمراء التي في يده للحظات وانتبه أنه نسي أمرها تماماً فرسم خيبة الأمل على وجهه مردداً:

- يا الهي... كيف لم أخفيها؟.. نويت أن أهديكِ إياها في نهاية اليوم.

رفعت رأسها للسماء قائلة:

- حسناً... وكأني لم أرها لا داعي للإحباط... خبئها الآن واعطيني اياها في نهاية اليوم كما خططت.

- ألن يقتلك الفضول لمعرفة ما هي؟!!

ضحكت قائلة:

- سأتماسك.

اتبسم وهو يحرك كتفيه:

- حسناً.. هيا بنا.

ركبت بجانبه السيارة ليسألها عن وجهتهما فأخبرته أنها سترشده للمكان... وبعد لحظات صمت قالت:

- لمَ لا تحضر معي القداس الأحد القادم؟!.. الأجواء مطمئنة للنفس جداً داخل الكنيسة.

كانت تتكلم بحرص وترقب ابتسم في هدوء قائلاً دون أن يرفع عينيه عن الطريق:

- أجد كل الطمأنينة التي أريد داخل المسجد.. فلا تقلقي عليّ.

ارتسم الإحباط سريعاً على وجهها لكنها كانت واثقة أنها لن تنجح من المرة الأولى.. المهم أن تنجح في النهاية.

وقفا أمام حلبة التزلج على الجليد والتي يمرح عليها العديد من الزوار، اتسعت ابتسامة حنين وهي تتابعهم قائلة:

- أليس رائعاً؟!!

أومأ آدم برأسه قائلاً:

- نعم.. ربما.. لم أجربه من قبل.

حدقت به قائلة:

- معقول... لم تجربها أبداً؟! كيف هذا؟!

تعلقت بذراعه متابعة:

- حسناً.. لكل شيء بداية.

عقد حاجبيه وهو يرمقها بشك:

- ماذا تقصدين؟!

هزت كتفيها قائلة:

- لمَ تظن أنني طلبت منك أن نحضر إلى هنا؟... كي نكون متفرجان فحسب... هيا لنتزلج!!.

لوح بكفيه أمام وجهها مردداً:

- مهلاً.. مهلاً.. لم نتفق على هذا؟!

منحته نظرة رجاء مستكينة وهي تردد:

- أرجووووك آدم... لم أفعلها منذ وفاة والدي... اشتقت للتزلج حقاً.. وأريد أن نفعلها معاً... آدم.. أرجوك لا ترفض.

ابتسم مستسلماً لرجائها الذي بدا كرجاء طفلة صغيرة تحب لعبة ما..

التفت يراقب المتزلجين الذين يسقط بعضهم سقطات مؤلمة ومع ذلك يضحكون..

لم يعتد أن يفعل شيء لم يتدرب عليه من قبل...

لكنه لا يستطيع..

فقط لا يستطيع أن يرفض لها طلباً.

جاءه صوتها الرقيق:

- آدم... هيا... حتى لو لم تجرب هذا من قبل.. أمسك يدي فحسب... سأعلمك.

ضحك وهو يعود ببصره لها:

- تعلميننني؟!

- نعم.. أنسيت أنني مدرسة... ومهمتي هي التعليم!!.

- لا.. لم أنسَ.. حسناً... فلنفعلها معاً.

صفقت بسعادة وهي تقفز أمامه:

- رااائع... هيا لإحضار أحذية التزلج.

كان الأمر أصعب مما تصور...

فحفاظه على توازنه لم يكن هيناً أبداً... لم يجد بداً من الاعتماد على ذراعها وهو يتبع تعليماتها...

- هيا... اثني ركبتيك قليلاً... لا.. ليس ظهرك... ركبتيك فقط... لا.. آدم... اعطيني يديك.

نظر إلى وجهها لتمسك كفيه بكلا يديها.. وهي تحاول سحبه برفق ومهارة متزلجة قديمة...

كان الأمر أسهل قليلاً هكذا..

برغم أنها لم تكن ترى ما وراءها لكن أخذت تسحبه وتدور معه لمنحه مزيداً من الثقة...

زادت بهجتهما وضحكتهما...

وبدأ آدم في التوازن أكثر....

ليستمرا في التزلج معاً لبعض الوقت.... حتى شعرا أنهما بحاجة للتوقف قليلاً...

فتوقفا على إحدى حواف حلبة التزلج ليلتقطا بعض الأنفاس..

التفتا لبعضهما ليتبادلا النظرات والبسمات....

شعر آدم بسعادة غير معتادة وهو بصحبتها...

حين يمرح معها...

ينسى من هو ومن هي...

لا يفكر في أي شيء سوى تلك اللحظات التي لن تتكرر بكل تأكيد...

دارت ببصرها إلى حلبة التزلج ليرتسم الحزن على قسمات وجهها حزن لم يفهم آدم معناه..

لذا سألها:

- لمَ الحزن؟.. تصورت أنكِ سعيدة!!

تنهدت وهي تكافح عبرات طلت بحياء على مقلتيها:

- نعم أنا سعيدة... المكان فقط أعاد لي الكثير من الذكريات.... كانت أمي أول من أحضرني إلى هنا... وبعد وفاتها ورغم انشغال أبي... كان يصحبني إلى هنا أيضاً لنمرح معاً كثيراً... كم ضحكنا معاً... ولعبنا معاً.. كان يعوضني عن وحدتي كثيراً بقضاء الوقت هنا... هو من علمني التزلج حتى صرت ماهرة فيه كما ترى... أيام لا يمكن أن أنساها... أمي ومن بعدها أبي... كانا أصدقائي الوحيدين... حتى أنضمت لهما ميا... والآن ليس لي سوى مِيا.

رسم الضيق على ملامحه مردداً:

- مِيا!.. مِيا فقط... حقاً!!... وماذا عني؟!!

- أنت لست صديق!!

عقد حاجبيه لقولها تلك الجملة ببساطة متناهية، دون حتى أن تلتفت له، فقال بسخرية:

- لست صديق!... بهذه البساطة تقولينها... من أنا إذاً؟!

رفعت بصرها إليه.. كانت لا زالت عيناها تتألق بلمعة دموعها التي لم تترك جفونها بعد..

تسارعت دقات قلبها وهي تحتضن وجهه بعينيها...

تتأمله بكل حب...

حب استطاع أن يقرأه في نظراتها له..

في ارتجافة شفتيها..

تجمدت ملامحه وهو ينظر لها بقلق...

هل تنوي قولها له أم ماذا؟!...

لا..

ليس من المفترض أن تفعلها..

هو لم يقلها صراحة بعد...

عليها أن تتوقف...

عليها ألا تطوق عنقه بطوق جديد...

لا يريد مزيد من الألم لها...

أو حتى لنفسه....

سيوقفها قبل أن تكمل...

"أنت حبيبي.. وتوأم روحي"

انتبه لتلك الكلمات التي انسابت من شفتيها بصدق..

لتنطلق بعدها للتزلج مجدداً تاركة اياه مكانه يستوعب ما سمعه للتو...

ما سمعه...

وأفرح قلبه رغماً عنه...

التفتت له وهي تلوح:

- هيا... مازال اليوم بأوله.

ابتسم وهو يهمس:

- توأم روحك!!... من أين تأتي بتلك المصطلحات؟!...

ظل يتابعها وهي تتزلج وقد مدت ذراعيها بطولهما على الجانبين... لتتأرجح هنا وهناك...

ليتمتم:

- حنين... من أي قصة رومانسية خرجتِ... وفي أي قصة رومانسية أدخلتيني.

عادت تنادي عليه مجدداً:

- هيا آدم... يمكنك الاعتماد على نفسك.. أليس كذلك؟!

عاد بقدمه لحلبة التزلج قائلاً بصوتٍ عالٍ بلغة لا يفهمها سواها أو أي عربي آخر في المكان:

- أتتحدينني؟؟... سترين!!

بذل مجهود أقل من السابق للحفاظ على توازنه وهو يتحرك ببطء على حلبة التزلج...

استطاع تنفيذ تعليماتها بشكل أفضل..

كانت تتابعه بعيون فرحة مبتهجة...

أما هو فقد زادت ثقته ليسرع قليلاً لكنه ما لبث أن ترنح...

شهقت حنين وأسرعت نحوه لتوقف سقوطه المحتمل لكنها وصلت إليه بعد ارتطامه بالأرض بعنف وهو يتأوه بألم واضعاً يده أسفل ظهره مردداً:

- أووووه.... هذا مؤلم.

لم تستطع أن تمنع نفسها عن الضحك على هيئته خاصة وهي تسترجع مشهد سقوطه، فارتسم الغضب على ملامحه وهو يرمقها بنظراته قائلاً:

- هذا ليس مضحكاً... فتوقفي عن ذلك.

كتمت ضحكاتها التي لم تستطع ايقافها فبدأ وجهه في الاحمرار...

وهم بخلع حذائي التزلج فأمسكت يده قائلة:

- مهلا.. مهلاً... حسناً سأتوقف... لا تكن سريع الغضب هكذا.

لم يزل الغضب عن جنبات وجهه فابتسمت وهي تقول:

- أتعلم.. كنت أغضب كثيراً أنا أيضاً حين سقط ويضحك عليّ أبي.. لكنه كان دوماً يصالحني.. فابتسم من فوري... أتحب أن أصالحك مثلما كان يفعل أبي.

قال بترقب:

- وكيف كان يصالحك؟!!

فوجيء باقترابها من وجهه حتى أنه عاد برأسه للوراء تلقائياً، لكن هذا لم يمنعها من أن تطبع قبلة بين عينيه ثم تلتقي بعينيه مجدداً هامسة:

- هكذا...

ارتسم الذهول على وجهه للحظات فلم يتوقع هذا منها ولا حتى تأثير تلك القبلة الصغيرة على قلبه الذي ومع تأنيب ضميره تمنى لو أن شفتيها ظلت ملتصقه بوجهه...

هزت رأسها وهي تحدق بتعابير وجهه مرددة:

- حقاً لا أعرف من أين تأتي بردود الأفعال تلك... أعتقد أنني بحاجة إلى دليل مستخدم لملامح وجهك.. لعلي أفهمك.

استمر في التحديق بها فزفرت قائلة:

- إنك لم تبتسم حتى!.. ألهذه الدرجة لم يعجبك ما فعلت؟!!

رفع إحدى حاجبيه قائلاً:

- بل أعجبني... ولكن مهلاً... أين خبأتها؟!!

عقدت حاجبيها متسائلة:

- خبأتها؟!.. عما تتحدث؟!

- أتحدث عن حنين الخجولة... أين خبأتها؟!!

لكمت كتفه بقبضتها مرددة:

- سخيف... أكرهك.

اعتدلت واقفة مبتعدة عنه لتخرج من حلبة التزلج، ليقف هو أيضاً محدثاً نفسه...

"ليتك تكرهينني فعلاً حنين... اكرهيني الآن... فلعل هذا سيخفف وجع قلبك حين تعرفين كل شيء"

تبعها بحذر خشية السقوط ثانية حتى خرج من حلبة التزلج ليجلس بجوراها وهي تخلع حذاء التزلج ليقول وهو يفعل المثل:

- جائعة؟.

أمسكت بطنها قائلة:

- أتضور جوعاً.

- حسناً لنأكل ثم نتجول قليلاً في المدينة.

- موافقة.

تناولا طعامهما وبدآ جولة سيراً على الأقدام..

تعلقت حنين بذراعه طوال الطريق...

لم يعد لديها شيء تخفيه..

لقد قالتها له...

أنه توأم روحها..

أو ليس من المنطقي أن تتعلق به إذاً؟...

وكالعادة جاء رد فعله على كلمتها غير واضح..

لكنها بشكل أو بآخر تعودت...

وتقبلت هذا..

لم يعد يهمها كثيراً كيف سيستقبل رسائلها تلك..

طالما يعاملها بالطريقة التي تحب...

ربما هو من الرجال التي لا تجيد التعبير عن حبهم...

أو حتى استقباله..

لكنه يسعدها...

يعرف جيداً كيف يسعدها؟!...

كيف يضحكها؟!..

هو وحده من جعل قلبها يرقص بين أضلعها..

ألا يستحق أن تصبر عليه؟...

حتما ستأتي اللحظة التي تتمناها ويقولها لها..

حتى لو قالتها هي أولاً..

لا يهم..

المهم أن تسمعها منه في النهاية.

ما تلك المشاعر التي تضربه كرياح عاتية؟!...

لمَ عليه مواجهة كل هذا؟!...

لمَ قدر الله له أن تمس شغاف قلبه..

فيفقد القدرة على مقاومة تأثيرها عليه...

هل الحب حقاً يُضعِف لهذه الدرجة؟...

أم أن قوة الحب في ذلك الضعف؟...

في لحظة تسعده وفي لحظة أخرى عندما تعود له ذاكرته التي يتناسها طواعية...

تحزنه... تؤلمه..

كم أصبح يمقت هذا التضاد الذي يعيشه معها..

لمَ لا يخبرها الحقيقة؟..

ربما ستتفهم وتسامحه بل وتساعده أيضاً..

لكن لو عرفت الحقيقة من غيره..

لن تغفر له أبداً..

كيف سيتصرف؟!...

أنه حتى لا يحق له أن يحبها..

لأنها لن تكون له أبداً حتى لو أراد هو ذلك..

متى ينتهي كل هذا؟!...

متى؟!!

توقفا كالمرة السابقة على إحدى جسور قنوات أمستردام الرائعة لكنهما اتفقا على أن يستمتعا بالمشاهد من هنا دون أن يستخدما القوارب...

مرت عليهما بعض لحظات الصمت وهما فقط يتطلعان لتلك المشاهد الرائعة حولهما خاصة مع حلول المساء وبدأت اضاءات امستردام التي تنعكس على مياه القنوات فترسم صورة رائعة من الروعة والسحر ومتعة الطبيعة.

شعر بتربيتها على كتفه فالتفت لها لتقول:

- أعتقد أنك كنت تنوي منحي شيء ما في نهاية اليوم... هيا... لقد تماسكت بما فيه الكفاية!.

ضحك وهو يتذكر كلامهما عن الهدية المزعومة، فهمهم:

- امممممم.. صحيح... فعلاً هذا يكفي.

اعتدل وهو يخرج العلبة الصغيرة من جيبه فاعتدلت هي الأخرى تطلع إليها بحماس وترقب، ليفتحها قائلاً:

- اغلقي عينيكِ.

نفذت على الفور، فاتسعت بسمة شفتيه وهو يخرج السلسلة الرفعية والتي يتدلى منها القلب الصغير رفع كفه بها لتكون في مستوى بصرها مردداً:

- افتحي عينيكِ.

فتحتها ليقع بصرها على قلب صغير يتأرجح متعلقاً بسلسلة رفيعة...

تهلهل وجهها وهي تُرقد القلب على أناملها ليحرر أدم السلسة من بين أصابعه لتقع بين أصابعها.. التمعت عيناها وهي تقول:

- هذا لي... انه رائع..

احتضنت القلب بكفها مرددة:

- هذه أروع هدية تلقيتها في حياتي.

امتلأ قلبه بالنشوة قائلاً:

- حقاً... يسعدني هذا.

تأملت القلب للحظات قبل أن ترفع عينيها إليه قائلة:

- قلب من هذا؟!!

لا تعرف لمَ سألت هذا السؤال...

هي فقط تمنت أن يقول لها أنه قلبي... أمنحه اياكِ...

تمنت أن تكون تلك هي اللحظة التي تنتظرها...

سيقول لها "أحبك"...

سيقولها الآن.

رمقها لوقت لا تعرف مداه..

ثم مد يده ليأخذ السلسلة من كفها واقترب منها يلبسها اياه، بينما هي شعرت أنها فقدت القدرة على التنفس...

فلقد كانت بين ذراعيه تقريباً...

انتهى مما يفعل وقبل أن يتراجع همس في أذنها:

- إنه قلبي... فابقيه بجوار قلبك طوال الوقت.

عاد لموضعه وهو ينظر لعينيها مباشرة.. بينما هي زادت لمعة عينيها وهي تحدق به...

لترفع كفها متشبثة بالقلب الصغير،هامسة:

- آدم... آدم.

- ماذا؟!!

ألقت بنفسها على صدره وهي تتعلق برقبته تحتضنه، انتفض جسده للحظة...

وتوقف عن أي حركة بينما هي ظلت متعلقة به ليأتيه صوتها المرتجف:

- أتعلم أين خبأت حنين الخجولة؟!!... خبأتها في قلبك... فارعاها جيداً.

دفنت وجهها أكثر في كتفه مرددة:

ـ آدم.. أنا... أنا أحبك كثيراً.. أحبك آدم... أحبك.

كانت ترددها كمن تلقي بحمل عن عاتقها...

كمن تخشى أن يتوقف الكلام على لسانها... فتتراجع عن اعترافها..

أما هو شعر أنه فقد القدرة على التصرف الصحيح...

اشتعل جسده في لحظات وهي تضمه إليها وتردد عليه ما قالته...

لم يستطع بعدها أن يمنع نفسه...

رفع ذراعيه يضمها إليه بدروه هامساً:

ـ وأنا أيضاً حنين.. أحبك... أحبك أكثر من نفسي.

وطبع قبلة على رأسها وقلبه يردد:

"سامحيني"

حررت رقبته من ذراعيها وهي تنظر لعينيه فرأى الكثير من العبرات في عينيها قال بقلق:

ـ لمَ البكاء؟!!

ـ قلتها آدم... حقاً قلتها لي أخيراً.. تحبني آدم؟... أم فقط تقولها لأني قلتها؟.

ضم كفيها بين كفيه قائلاً:

ـ لم أعتد أن أقول ما لا أشعر به... كوني واثقة من هذا.

رفع أنامله يزيح دموعها التي بدأت بالهطول على وجنتيها:

ـ وأخبرتك أن تبقي سعيدة ما دمتِ معي... فأرجوكِ.. لا تريني تلك الدموع ثانية.

ابتسمت من بين عبراتها:

ـ أنها دموع الفرح... دموع الفرح حبيبي.

ـ حسناً.. كما ترين... حبيبتي.

ما أجملها من كلمة... أن تسمعه يلقبها بحبيبتي...

صدقت مِيا حين أخبرتها أنه لا يهم من سيبدأ المهم أن تسعد بحبه وحبها ولا يضيعان المزيد من الوقت في الانتظار.

انتبهت له لتجده عاد يتطلع للمياه ثانية..

أما هي فقد رفعت عيناها لسماء بدت تبتسم لها بنجوم كثيرة تراصت بجانب بعضها إلى أن لمع أمامها شيء فتعلقت بذراع آدم الذي جفل لحركتها المفاجئة وهي تقول:

- آدم... شهاب... رأيت شهاب للتو... تمنى أمنية هيا بسرعة.

ظل يرمقها بابتسامة هادئة وقد أغلقت عينيها وهي تتمتم بشيء لم يسمعه فتحت عيناها لتجده ناظرا لها فقالت:

- هل تمنيت؟!

مط شفتيه قائلاً:

- لا أؤمن بهذه الأمور.

عقدت حاجبيها مرددة:

- لا تقل هذا.. لن تتحقق أمنيتك.

تعلق بصره بالسماء قائلاً:

- ليت الحياة بهذه البساطة نرى شهاباً فنتمنى أمنية وتتحقق.

- أنت تفسد الأمر!!

قالتها بضيق فابتسم قائلاً:

- لا عليكِ... المهم.. ماذا تمنيتِ؟!

لوت شفتيها:

- لن أخبرك أبداً... أنت لا تؤمن بالأمر.. لو أخبرتك ستفسد أمنيتي.

ومن مكان أخر ارتسمت على شفتي الأشقر بسمة سخرية عريضة متمتاً:

- أيتها الغبية... أنهم يخدعوكِ... أريد أن أرى وجهك عندما تعرفين حقيقته... وأعدك أن يكن هذا قريباً... قريباً جداً... وأنت أيها الوغد كم أتمنى أن أطلق الرصاص على رأسك الآن .. لكن ما المتعة في ذلك... سأرى الرعب يرتسم في عينيك مجدداً وهذه المرة لن يضحي أحد بنفسه لأجلك ولا حتى تلك التي تظنك حبيبها لأنها ببساطة ستعرف حقيقتك وربما هي من يشجعني لقتلك حينها.

لحظات السعادة تنتهي سريعاً..

هكذا شعرت حنين وهي في طريق عودتها معه لمنزلها..

تكاد تحلق في سماء مدينتها... لا تريد أن يمر الوقت أبداً..

لا تريده أن يفارقها... لقد قالها أخيراً...

ابتسمت وهي تتذكر حديثها مع مِيا..

وسعدت أنها تماسكت ولم تفقد وعيها كما كانت تظن حين يخبرها بحبه.. التفتت تتأمل ملامح وجهه الهادئة ليلتفت لها هو الآخر باسماً..

اتسعت بسمتها مرددة:

- هل أخبرتك قبلاً أنك وسيم جداً؟.

ضحك بخفة قائلاً:

- لا.. لم تفعلي.

همهمت قائلة:

- حسناً... أنت وسيم جداً.

تعالت ضحكاته لتتعلق هي بذراعه وشعور بالنشوة يملأ جوارحها...

حين تكون بقربه لا تريد أي شيء آخر...

حين يضحك.. تضحك دنياها معه...

بعبارة بسيطة..

آدم أضحى كل شيء لها.

وصلا لمنزلها، لتقف حنين تنظر لآدم الذي كان يتطلع لها بنظرة المحب وتقول:

- آدم... شكراً لك.

اتسعت ابتسامته مردداً:

- علما؟!

- على وجودك بحياتي...

شعر بالألم يغزو قلبه مجدداً، رسم بسمة صغيرة بصعوبة على شفتيه.. وقبل أن يقول أي شيء وصل لهما صوت نحيب ما، فالتفتا معاً لتتسع عينيّ حنين وهي تحدق بـمِيا المندفعة نحوها باكية..

وتلتقطها بين ذراعيها مرددة:

- مِيا!!... ماذا حدث؟!... يا الهي!!.... مِيا؟!

رددت مِيا من بين نحيبها:

- آني... آني...

ضمتها حنين لصدرها وهي تربت عليها مهدئة بينما عقد آدم حاجبيه وهو يتابع ما يحدث بدهشة وترقب..

حاولت حنين مساعدة رفيقتها على الوقوف والتماسك قائلة:

- مِيا... أرجوكِ أجيبيني... ماذا حدث؟

فوجئت بمِيا تقول:

- كاذب... كاذب!!!...

انتفض قلب آدم بين أضلعه..

"هل تتحدث عني؟!"

ردد عقله تلك الكلمات، وقد ملأت زواياه بالقلق والتوتر...

بينما احتارت حنين فيما قالته مِيا.. لتقول:

- عما تتحدثين، مِيا؟... لا أفهم!!.

رددت مِيا وهي لا زالت على حالها:

- باولو...باولو.. كاذب.. خائن.

شهقت حنين فزعة...

تنفس آدم الصعداء...

استمرت مِيا في نحيبها...

استمر الوضع للحظات قبل أن يتحرك آدم قائلاً:

- أعتقد أنه يجب أن أذهب.

أومأت له حنين برأسها مؤيدة ومعتذرة، بينما لاحت التفاته من مِيا له ومنحته نظرة حزينة وغاضبة جعلته يلتفت سريعاً ليغادر، أوقفه صياح مِيا المفاجيء...

- إياك أن تخدع آني... إياك أن تكذب عليها... كلكم مخادعون.

التفت يرمقها بنظرة خالية من أي مشاعر، لتضمها حنين إليها مرددة:

- مِيا!!.. توقفي.

رفعت بصرها لآدم قائلة:

- معذرة آدم... هي ليست في حالتها الطبيعية.

أومأ لها متفهماً ويعاود ابتعاده ليصل له صوت مِيا المرتجف:

- لا تثقي به آني... لا تثقي بهم أبداً.

ابتعد أكثر فلم يعد يصل له منهما شيء..

بدا غير مصدق لما سمع...

باولو خان مِيا!!...

كم هذا غريب!...

بدا محب حقيقي لها... كيف خانها إذاً؟؟..

أم أن الأمر سوء فهم منها؟؟...

والذي أدهشه حقاً انهيار مِيا.. تصورها أكثر قوة من ذلك... فتاة مثلها منطلقة جريئة..

تفعل ما تريد تنهار بهذه الطريقة!!...

وسرعان ما تراءت له صورة حنين...

كيف سيكون حالها هي بعد أن تعلم بحقيقته؟...

ستكون حالتها أسوأ من مِيا بكثير...

فحنين أكثر رقة.. أكثر براءة...

أنه أول رجل في حياتها وهو يعلم هذا جيداً.

"آدم.. أنا... أنا أحبك كثيراً.. أحبك آدم... أحبك"

أغلق عينيه بقوة وهو يستعيد كلماتها التي هزت كل جوارحه...

لم يعد يمكن الهروب الآن.. لقد اعترفت له واعترف لها...

لقد انهارت كل دفاعاته ولم يعد يملك المزيد...

كيف سيكمل مهمته الآن؟...

كيف سيستمر في خداعها؟!..

لن يستطيع..

عليه أن يخبرها بكل شيء..

ربما إن سمعت منه ستفهم..

ستسامحه..

لا يريد أن يراها كما رأى مِيا...

لا يريد أن يسمعها تنعته بالكاذب المخادع.. فكم كانت مؤلمة تلك الكلمات التي اخترقت أذنه من مِيا... فكيف ستكون لو خرجت من شفتيّ حنين؟.

وصل لبيته صاعداً.. ودخل ليجد باسم جالساً أمام حاسوبه المحمول... اقترب ليجلس بجواره..

ظل هادئاً لا ينطق بشيء اعتدل باسم لينظر إليه قائلاً:

- كيف تم الأمر؟.. ارتدت القلادة؟.

أومأ آدم برأسه إيجاباً...

ليردف باسم:

- حرصت أن ترتديه طوال الوقت؟

عاد يوميء برأسه دون كلمة..

عقد باسم حاجبيه وهو يرمقه بنظراته ليقول:

- هل حدث شيء؟!

التفت آدم إليه ينظر له فحسب ثم أخيراً فرج شفتيه قائلاً بصوت بدا عميقاً:

- لم تخبرني ما سبب جهاز التعقب هذا؟!

عاد باسم للوراء مجيباً:

- مجرد اجراء احترازي.. فالوقت يمر ولم نصل لشيء بعد... نريد أن نصل إليها في أي وقت... فقد يحاولون خطفها أو...

قطع كلماته حين قبض آدم على ذراعه بشكل مفاجيء قائلاً:

- خطفها!!... من؟!

نظر باسم باستنكار لأصابعه القابضة على ذراعه فحرره آدم معتذراً:

- آسف.. هل وصل لك شيء؟

رمقه باسم لبرهة:

- لا.

نهض تاركاً اياه مكانه...

وقبل أن يغلق الباب تطلع لوجه آدم الشارد للحظات ثم ذهب.

ركب باسم سيارته وقبل أن ينطلق بها رن هاتفه النقال، ألقى نظرة على اسم المتصل فاعتدل في جلسته مجيباً:

- نعم سيدي... في الحقيقة لا جديد حتى الآن... مازالت الأمور كما هي... نعم سيدي إنه يقوم بعمله بشكل جيد....

صمت للحظات يستمع لمحدثه ثم قال:

- إذاً نحن مضطرون إلى الإنتظار حتى يتحركون هم... فعلى ما يبدو هم يعلمون أين خبأ رفقي البطاقة.... حسناً سيدي.. لا تقلق.. الفتاة في صفنا.

أنهى المكالمة ليرمق هاتفه للحظات قبل أن يضعه جانباً، أسند رأسه على مقعده وقد عقد حاجبيه مفكراً، لم يرد أن يكن متأخر بخطوة لكنه مضطر إلى هذا فلم يصلوا لشيء بعد، لكن ما يزعجه ليس هذا فحسب...

لديه شعور بأن آدم أصبح يحمل مشاعر ما لتلك الفتاة، وهذا قد يفسد كل شيء.

هز رأسه قائلاً بغضب:

- تباً.. كان المفترض أن تسقط هي في حبك لا العكس أيها الأحمق.

زفر في ضيق، لا يمكنهما التراجع الآن..

لقد حصل ما يريده وتعلقت الفتاة بآدم فعلاً... لكن دخول مشاعر آدم في المنتصف قد لا يكون في صالحهم.. فالمشاعر دوماً تفسد الأمور وتعطل العقل... لكنه في نفس الوقت يثق بآدم... يعلم أنه سيستطيع أن يحكم مشاعره.. وعليه أن يفعل هذا... فلا يمكن الآن استبداله بأي شخص آخر..

مستحيل.

اعتدل باسم لينطلق بسيارته متمتماً:

- إياك... إياك وافساد الأمر.

******

تطلع نورمان لمزيد من الصور التي تم التقاطها لآدم وحنين في نزهتهما أمس، بينما وقف ستيف يراقبه..

توقف نورمان قليلاً أمام الصورة التي تقبل حنين فيها آدم بين عينيه ليقول بسخرية:

- ما هذه القبلة الأبوية؟!!

اقترب ستيف قائلاً:

- هناك صورة أخرى تضمه فيها إليها... وفي الأمرين هي البادئة.

- إنها عاشقة إذاً؟.

- حتى النخاع... وهذا يعني أن الوقت قد حان.

هز نورمان رأسه بقلق ليقول ستيف:

- ماذا هناك؟!

- أخشى أن تنقلب خطتك عليك ستيف... فلو عشقته الفتاة فعلاً... قد تغضب منه... تمقت كذبه عليها لكنها لن تكرهه هو... بالتالي لن تؤذيه.. ولن تسمح لك بهذا.

ابتسم في مكر قائلاً:

- ليس بعد أن تعرف أنه قاتل أباها... وأنها بالنسبة إليه وسيلة فحسب للوصول لما قتل أباها لأجله... كما أنني لن أعطيها الوقت الكثير لتفكر... سأتخلص منه ثم أحضرها معي... وستكون كالخاتم بإصبعي.

- أرجو أن ينجح الأمر كما تريد... فقط ابدأ سريعاً.. لا يمكننا الانتظار أكثر.

- لا تقلق... مساء اليوم سيكون لقاءنا المحتوم... فهما يقضيان عطلة الأسبوع معاً... بالتأكيد سيتجولان في مكان ما اليوم أيضا.. وحينها... بووووم.

ليضحك بعدها ضحكة لم يشاركه نورمان إياها ، فلقد كان يشعر بالقلق على أفكار ستيف فرغبته الحقيقية وراء كل ما يفعل لم تكن البطاقة وأنما فقط التخلص من هذا الرجل الذي تسبب في طرده من عمله فيما مضى بأن كشف لروؤسائه أنه يعمل مع مافيا الجاسوسية..

لكنه فشل في قتله ليقتل زميله بدلاً منه... وها قد جاءته الفرصة مجدداً... ويبدو أنه مُصر على النجاح هذه المرة.

******

في نهار اليوم التالي...

استيقظت حنين لتلتف إلى مِيا المستلقية بجوارها... تأملت وجهها الذي ذَبُل في ساعات قليلة... لا زالت جفونها رطبة من كثرة بكائها.. لقد استسلمت للنوم بصعوبة.. ودون أن تفهم حنين منها شيء..

فكلما حاولت الحديث معها عاودها البكاء بشدة...

فقررت تركها تماماً إلى أن تتحدث بمفردها.

تركت فراشها واتجهت لمطبخها لتعد لها الإفطار وكوب قهوتها المفضلة، رن هاتفها الذي كان في جيب كنزتها التي ترتديها في بيتها عادة... فأخرجت الهاتف لترى اسم آدم فابتسمت هامسة:

- حبيبي.

ضمت الهاتف للحظة قبل أن تجيب:

- ألو... نعم استيقظت للتو...

سألها عن مِيا فبدا الحزن على صوتها وهي تجيب:

- إنها كما هي.. هدأت بصعوبة... حتى الآن لا أعرف ماذا حدث بينها وبين باولو... لا أصدق أن يكون خائناً.. مستحيل... باولو يحبها كثيراً، آدم... أنا متأكدة.

سألها إن كانا سيلتقيا اليوم، فأجابت:

- لا اعلم آدم.. حالة مِيا سيئة ولا أستطيع تركها وحدها... سامحني.

رد متفهماً لينهي المكالمة بوعد بمكالمة أخرى قريباً.

أغلقت الهاتف وهي تتذكر ما كان بينهما أمس....

لم تجد الوقت للاستمتاع بتلك اللحظات بسبب ما أصاب مِيا...

أنها حتى لا يمكنها أن تقص الأمر على رفيقتها الوحيدة...

فهي ليست في حالة تسمح لها بالاستماع لقصة حبها مع آدم.

عادت لتحضر الإفطار الذي ما أن انتهت منه لتحمله إلى مِيا لكنها وجدتها تنزل الدرج فوضعت صينية الإفطار على المائدة قائلة:

- جيد أنك نزلتِ... فلنتناول الإفطار معاً.

نظرت لها مِيا بحزن دون أي رد، ثم اتخذت زاوية ما تجلس على المقعد الضخم بصمت وقد ضمت ساقيها إلى صدرها..

اقتربت منها حنين وهي تشعر بالألم من أجل رفيقتها الوحيدة ربتت على كفها قائلة:

- مِيا عزيزتي... أنتِ أقوى من هذا... تماسكي.

سرعان ما قفزت العبرات إلى مقلتيها فهزت حنين رأسها بعنف:

- لا مِيا لا.. توقفي عن البكاء... لا تبكي ثانية.

لكن مِيا لم تستطع أن تمنع دموعها من التحرر من بين جفونها لتهطل في طريقها الذي حفظته جيداً منذ أمس.

شعرت حنين بالإحباط الشديد...

مِيا كانت دوماً تساعدها، تخفف عنها... ولكن تشعر أنها لا تستطيع القيام بنفس الدور..

أمسكت بكف مِيا قائلة:

- حبيبتي... لمَ تشعرينني بأني بلا فائدة؟... ألم أكن استجب لكِ حين كنتِ تواسينني... لمَ لا تفعلين المثل؟.. لا أريد أن أبدو صديقة سيئة لكِ مِيا... أرجوكِ... توقفي.

نظرت لها مِيا لتراها بصورة مشوشة بسبب عبراتها الغزيرة، فرفعت ذراعيها لتضم حنين إليها لتقول أخيراً:

- أنتِ أفضل صديقة لي آني... سامحيني... الألم شديد... جداً.

ربتت حنيني على كتفها هامسة:

- سأكون دوماً إلى جانبك مِيا.

اعتدلت لتجذب مِيا معها إلى مائدة الإفطار، لم تتوقع أن تكون شهيتها مفتوحة لكنها استطاعت اقناعها بأكل عدة لقيمات..

وشرب قهوتها.

بعد مرور المزيد من الوقت هدأت مِيا تماماً..

عادت تجلس على المقعد الذي تركته من أجل الإفطار...

تركتها حنين وشأنها كي لا تضغط عليها والتفتت لتهتم بشئون منزلها... كانت تلقي نظرة على مِيا من حين لآخر، لتجدها كما هي تنظر للاشيء... وكأنها في عالم آخر.

طرقات على بابها لم تنتبه لها مِيا، ذهبت حنين لفتح الباب وما أن رأت باولو حتى تسمرت مكانها للحظة..

أشارت له أن يصمت ولا يتحرك..

أغلقت الباب خلفها كي لا تسمع مِيا ثم جذبته بعيداً قليلاً والتفتت له قائلة:

- باولو... ماذا حدث؟؟

أطرق باولو رأسه حزناً، فعقدت حنين حاجبيها مرددة:

- باولو.. أجبني.... هل خنت مِيا فعلاً؟.. أنا لم أفهم منها شيء... أخبرني سأساعدك... بالتأكيد هناك سوء تفاهم.

رفع بصره لها قائلاً:

- أين هي؟... أريد أن أتحدث معها.

قالت حنين بضيق:

- حالتها سيئة جداً... آخر ما تريده هي رؤيتك باولو... أريد أن أفهم... ماذا حدث بينكما؟.

صمت باولو لبرهة ثم قال:

- أرجوكِ آني... سأسافر اليوم ولن تراني ثانية... أريدها فقط أن تسامحني.

- باولو ماذا تقول؟.. ستتركها حقاً!!... بعد كل هذا الحب، باولو!!.

- سأتركها لأنها تريد ذلك... ولأن هذا ما يجب أن أفعله، وليس لأنني لم أحبها.. مِيا حبي الوحيد آني... هي حبي الوحيد.

هزت رأسها في حيرة مرددة:

- سأفقد عقلي أنا لا أفهم شيئاً.

نظر لها برجاء:

- أرجوكِ دعيني أراها.

زفرت في استسلام:

- حسناً... لا أظن رد فعلها سيكون في صالحك.

- أعلم... أريدها فقط أن تسمعني لآخر مرة.

عادت أدراجها لمنزلها وباولو يتبعها في صمت..

التفتت له مشيرة إليه بالإنتظار قليلاً..

دلفت لمنزلها وتركت انفراجة صغيرة في الباب، وجدت مِيا على حالها... اقتربت منها لتثني ركبتيها كي تكون أمام عينيها قائلة:

- مِيا عزيزتي.. أنتِ أفضل؟.

اكتفت بهز رأسها إيجاباً فابتسمت حنين مضيفة:

- حسناً... جيد... هناك أحدهم يريد مقابلتك.

بدا التساؤل في عينيّ مِيا لتجيبها حنين:

- باولو في الخارج.

انتفضت مِيا كمن تلقت تيار كهربائي مفاجيء...

وتتطايرت شرارات الغضب من عينيها وهي تلتفت يمنة ويسرة مرددة:

- الحقير... كيف يأتي إلى هنا؟.

أمسكت حنين بكفيها:

- اهدئي مِيا... اسمعيه أولاً.

صرخت بقوة:

- كلاااا... لا أريد أن أرى وجهه ثانية.

وصل صوتها لباولو فدفع الباب ليدخل وما أن رآها حتى شعر بالكثير من الألم وهو يقول:

- مِيا.. سامحني.

التفتت إليه فاتسعت عيناها لتنظر إليه بغضب شديد ، بينما قالت حنين:

- باولو.. اذهب.. ليس هذا الوقت المناسب للحديث.

قال باولو مصراً:

- لا.. يجب أن أتحدث معها... مِيا.. اسمعيني.

صرخت لترفع كوب كان بجانبها وتلقيه نحوه:

- لن أسمعك... أغرب عن وجهي.

صرخت حنين خشيت أن يرتطم الكوب بوجه باولو لكنه استطاع تفاديه بصعوبة بكفيه ليمسك بهما متألماً ، تعلقت حنين بمِيا كي لا تقذفه بشيء آخر:

- مِيا.. بحق الرب... اهدئي.

تحركت مِيا بعصبية مرددة:

- اخرجيه من هنا آني... أخرجي هذا الكاذب من هنا.

- مِيا لا تفعلي هذا.. أنه باولو.. حبيبك.

صرخت في وجهها:

- لا تقولي هذا... أنه وغد...حقير... ألم يخبرك ما فعل بي؟... ألم يخبرك أنه متزوج ولديه أربع اطفال في ايطاليا؟.

اتسعت عينا حنين في ذهول وهي تلتفت لباولو الذي بدا جامداً وهو يتطلع لهما:

- ماذا؟!.. متـ... متزوج ولديه أربع اطفال!!... مستحيل!!.

انهارت مِيا على كرسيها وهي تدفن وجهها بين كفيها مرددة بصوت باكي:

- لم أكن إلا عشيقة... جعلني فقط عشيقة... الكاذب.. الكاذب.

لم تصدق حنين ما سمعت..

ظلت تحدق بباولو لعله ينفي ما قالته رفيقتها لكنه لم يفعل...

اقترب منهما قائلاً:

- أعلم أن أي تبرير لي لن يكون ذا فائدة... لكن.. أريدك أن تسمعيني ولو لآخر مرة.

ظلت مِيا على حالها فانسحبت حنين لتترك لهما الحرية في الكلام، صعدت لغرفتها وما أن دخلتها حتى أمسكت الهاتف متصلة بآدم وفور أجابها قالت:

- آدم... لن تصدق... باولو متزوج ولديه أربع أطفال.

جاءها صوته مندهشاً:

- حقاً؟!!

- نعم... أمر لا يصدق.

- بالتأكيد لا يصدق... لكن.. كيف استطاع أن يخفي مِيا عن زوجته والعكس أيضاً طوال عامين.

اعتدلت حنين في جلستها قائلة باهتمام:

- لأنهم ليسوا هنا... عائلته في ايطاليا.

- فهمت... مسكينة مِيا.

بدا الحزن في صوتها وهي تقول:

- مسكينة جداً، آدم.. لقد كانت منهارة تماماً... كادت أن تحطم وجهه للتو.

- للتو!!... هل جاءكما؟

التفتت لباب غرفتها قائلة:

- نعم.. أنه معها بالأسفل... يتحدث معها الحديث الأخير.

صمت آدم ولم يعلق فعقدت حنين حاجبيه سائلة:

- آدم.. ألديك عائلة في موطنك؟.

- بالتأكيد!.

قالها بهدوء فانتفضت صائحة:

- ماذا؟!!.. لديك زوجة واطفال؟!.

- لا ..لا... لم أقصد هذا.. أنا لم يسبق لي الزواج... ظننتك تتحدثين عن عائلتي.. أهلي.

وضعت كفها على قلبها الذي كاد أن يتوقف معاتبة:

- آدم... كاد قلبي أن يتوقف.

وصل لها صوت ضحكاته التي تهز قلبها بسهولة، ليقول:

- لو كان لي زوجة وأطفال... ما كنت اعترفت بحبي لكِ أبداً.. أنا أكره الخيانة، حنين... أكرهها كثيراً.

ابتسمت وهي تستمع له بصمت ليأتيها صوته مجدداً:

- يجب أن اذهب.

- حسناً.

*****

ظلت مِيا على كرسيها بلا حراك فقط تخفي وجهها بين كفيها ، لم يقترب باولو كثيراً فقط بدأ في الكلام:

- مِيا... أعلم أن الكثير مما سأقول بلا قيمة الآن.. لكن.. لكني سأقوله على كل حال.

اقترب أكثر ليجثو على ركبتيه أمامها:

- لا تلوميني.. لا تلوميني لأني وجدت حباً وأردت أن أعيشه... لا تلوميني فأنتِ من اقتحم حياتي.

رفعت رأسها تحدجه بنظرات الغضب والاستنكار، فقال بعناد:

- نعم... نعم اقتحمتِ حياتي وقلبتها رأساً على عقب.. أنا مجرد رجل قروي من ريف ايطاليا... عشت حياتي في كنف والدتي ووالدي... ما أن وصلت للعشرين حتى أصرت أمي على زواجي من ابنة اختها... فقبلت... فالأمر كان سيان.. والحب لم يكن من أولوياتي... عشت حياة عادية.. راكدة... لا شيء مثير فيها... حتى رأيتك... لا.. بل حتى سمعتك.. سمعتك تقولينها.. "أحبك باولو.. لا تذهب".. لأول مرة تصل لي تلك الكلمة بهذا الشكل... وتسبب لي هذا الإحساس... احساس لم أرد أن أبتعد عنه أو أتركه... أحببتك مِيا وأحببت حبك لي.. فكرت في الفرار مراراً لكني لم أستطع إلا التعلق بكِ أكثر... كنت أنانياً..

نعم... لكني لم أرد التخلي عن تلك السعادة التي أشعر بها معكِ... مِيا... صدقيني.. أنتِ أول حب في حياتي.

هزت رأسها وهي تضع كفيها على أذنها:

- توقف... اصمت.. أنت لم تحبني قط... لو أحببتني حقاً لكنت صدقت معي.. لو أحببتني حقاً ما كنت ستقوى على الكذب علي... المحب الحقيقي لا يكذب.

لوح بكفيه صائحاً:

- لا مِيا... بل أن أكثر الناس كذباً على وجه الأرض هم المحبون.

حدقت به بذهول ليردف:

- نعم... نعم مِيا.. يكذب المحبون كي لا يخسروا من يحبونهم... يتجملون بما ليس فيهم كي لا يفقدوا ذلك الشعور... مثلك مِيا.. ألم تكذبي عليّ حين قلتِ أنك ستقبلين العيش معي بدون أطفال... كنتِ حينها تكذبين... كم تمنيت حينها أن تتركيني.. أن تبتعدي عني وتكرهيني... لكنك خالفتِ أمنياتي... تمسكتِ بي أكثر ليزداد ألمي أضعاف مضاعفة.. كنتِ تكذبين مِيا أليس كذلك؟... كذبتِ كي لا تخسريني.

انهمرت العبرات على وجنتيها، كان ألمها في تزايد..

شعرت أنها لم يعد لديها القوة للحديث فخرج صوتها باهتاً ضعيفاً:

- لا باولو... لم أكذب.. لأني أحببتك بصدق.. لم أكذب.. كان لدي استعداد أن أخسر احساسي بالأمومة فقط كي تكون معي...

أطرق برأسه أرضاً فأردفت:

- اذهب باولو... اذهب لزوجتك وأولادك.. اذهب.

سكن مكانه للحظات تمنى أن يضمها لصدره للمرة الأخيرة لكنه يعلم جيداً أن هذا ضرباً من المحال

وقف على قدميه والتفت مبتعداً إلا أنه توقف لينظر لها مرة أخيرة قائلاً:

- أتمنى أن يأتي يوماً تسامحيني فيه... وتعلمي أنني حقاً لم أرد أن أخسرك.. رغم علمي أن هذا سيحدث يوماً... تمنيت فقط أن يكون أبعد قليلاً.. أتمنى لكِ السعادة ميا... سعادة حقيقة وليست مزيفة كالتي قدمتها لكِ... وشكراً لكِ أنكِ حققتِ لي حلماً لم أتصور أن أعيشه لحظة... سامحيني مِيا.. أرجوكِ سامحيني.

لم يتوقع رداً وهذا ما حدث..

أكمل طريقه للخروج... لم يكن خروجاً من منزل آني التي عرفها بعد أن عرف مِيا.. لكنه كان خروجاً من حياة أول امراة أحبها...

خروجاً من حياة عاشها كحلم ولم يرد الإستيقاظ منه...

خروجاً من سعادة دخلها طوعاً وخرج منها قسراً.

خرجت حنين من غرفتها تستمع بحرص فلم يأتيها أي صوت..

اقتربت من الدرج لتميل برأسها لعلها تراه..

لكنها لم ترى غير مِيا جالسة كما تركتها، هبطت الدرج واقتربت منها قائلة:

- ذهب؟!

أومأت مِيا برأسها إيجاباً، ربتت حنين على كتفها مواسية:

- لا عليكِ مِيا.. من الجيد أنكِ عرفتِ... ولكن.. كيف عرفتِ؟!

كان الفضول يدفعها حقاً للتساؤل، أجابت مِيا دون النظر نحوها:

- جاءه زائر من ايطاليا... يبحث عنه، كنت في المقهى بانتظاره.. فأرشدوه إليّ... فتحدث بلا توقف.. قائلاً.. أنه رفيقه من ايطاليا وجاره.. وأن ابنه مريض بشدة وزوجته منهارة.. أصبت الذهول وتصورت أن هناك خطأ ما... أردت أن اتأكد أنه يتحدث عن باولو الذي أعرفه.. أخرج لي صورة تجمع باولو بعائلته ورفيقه هذا.. رأيته... يضم امرأة إليه تحمل رضيعاً على ذراعها بينما يقف ثلاثة أطفال أمامهما...

عادت للبكاء وهي تتذكر تلك اللحظات، مرددة:

- ياله من شعور آني... كنت أحدق في وجهه بالصورة بذهول... أنه هو.. باولو.. كان يبتسم بسعادة... شعرت بشعور مخزي جداً.. لم أكن إلا عشيقة لرجل له عائلة في بلد آخر... زاغت عينايّ وبدأ كل شيء حولي في الدوران حتى سقطت على مقعدي ورفيقه يسألني بقلق عما أصابني؟... حتى سمعته ينادي على باولو ليقترب، عرفت أنه حضر كان يحدق برفيقه بذهول.. فأخبره ما أخبرني.. التفت إليّ باولو وأنا أرمقه بمقت شديد... كم كنت غاضبة آني... تمنيت أن أصفعه على وجهه.. أن أضربه على رأسه..

ضمتها حنين لصدرها قائلة:

- لا عليكِ حبيبتي... جيد أن الأمر لم يستمر أطول من ذلك.

هزت رأسها متمتمة:

- الحقير... قال أنه لا يريد أطفال... لديه أربعة.. وأراد أن يحرمني أنا منهم... يالالانانية... أي حب هذا آني!!... أي حب هذا؟... وبعد كل هذا يريد أن يقنعني أن كذبه أمر طبيعي... وأن المحبين أكثر الناس كذباً على من يحبون... أهكذا يرى الرجال الحب؟؟... تباً لهم جميعاً!..

رفعت رأسها إلى حنين لتتعلق بذراعها مرددة:

- لا تثقين بهم آني... لا تثقين بهم أبداً.

ضمتها حنين مجدداً، هي تعذر رفيقتها.. فلقد أحبت باولو كثيراً ولم تتصور أن تصدم فيه بهذه الطريقة.. ومن الطبيعي أن تفقد الثقة في كل الرجال.

حدثت نفسها..

"تباً لك باولو... كيف تفعل هذا بها؟؟!!"

******

انتهى آدم من صلاة الجمعة في مسجد صغير بالمدينة، لم يشعر برغبة في الخروج من المكان استند على إحدى الأعمدة وبقى ساكناً.

شعر بحاجة إلى المزيد من الهدوء والسكينة، وهما لا يتوفران إلا هنا...

مرت خمسة أيام لم يلتق فيها بحنين إلا مرتين أمام منزلها..

وكانت لفترة قصيرة جداً... والسبب حالة مِيا واصرارها على أن تبقى حنين بجوارها..

افتقدها كثيراً...

وبدا يعي أنها بالفعل أصبحت جزء لا يتجزأ من حياته...

وهذا أشعره بالضيق من نفسه..

أراد أن ينال هدنة...

هدنة من مشاعر يحاربها ولم يعد يريد أن تزداد.

فآخر ما كان يتصوره أن يغرم بفتاة على غير دينه... وتحمل جنسية أجنبية كذلك...

أمران لا يمكن أن تتوافرا في الفتاة التي يجب أن يرتبط بها..

وهذا يعني ببساطة أن عليه أن يتوقف...

عليه أن يقتل ذلك الحب الذي ينمو في قلبه...

عليه ألا يفكر إلا في سبب تقربه منها...

يجب أن يعود لطبيعته العملية وألا يشغل عقله بغير ذلك...

ربما هذا كله ليس سهلاً...

ربما مستحيلاً..

لكنه النهاية الحتمية لكل هذا.

حب حنين ما هو إلا حب مستحيل...

مط شفتيه وهو يتذكر كيف يتناسى كل هذا فور أن يراها...

لقد حولته لشخص آخر...

شخص يستطيع أن يلبي طلباتها مادامت ممكنة...

شخص يريد أن يراها تبتسم فحسب.

هز رأسه مردداً..

" الهي... كما أدخلتها قلبي أخرجها منه... إن كان هذا ابتلاء فاجعلني من الناجحين فيه"

شعر باهتزاز في جيبه جراء استقبال هاتفه النقال اتصالاً...

تحرك من مكانه كي يجيب دون أن يزعج الجالسين في المسجد ، تصوره اتصالاً من حنين لكنه كان باسم الذي ما أن أجابه حتى قال:

- عد فوراً... هناك تطور هام.

انقبض قلبه بشكل لا إرادي وهو يجيب:

- حسناً.. أنا في الطريق.

ظل يفكر طوال الطريق عن هذا التطور الذي يتحدث عنه باسم...

شيء ما يخبره أنه تطور سيقربه من النهاية...

لكن لمَ يشعر بالضيق؟.. أليس هذا ما كان يتمناه من البداية أن ينتهي من كل هذا؟..

أن يبتعد عن حنين في أسرع وقت...

أن يسعى لنسيانها...

فلمَ الآن لا يريد ذلك؟!.. لمَ يخشاه؟!!

وصل لمنزله ليصعد درجاته بسرعه ليدخل شقته وتقع عينيه على باسم الجالس على الأريكة..

أغلق الباب مسرعاً نحوه وعينيه تحمل الكثير من الترقب والتساؤل، حدق به باسم للحظات فسأله بنفاذ صبر:

- ماذا هناك؟!.. ماذا حدث؟!

تنفس باسم بعمق قائلاً:

- علِمنا أين البطاقة!

اتسعت عينا آدم وهو يجلس بجواره مردداً:

- حقاً... أين؟!

- في مصرف معروف.. يمنح عملاءه خزينة سرية للاحتفاظ بالأشياء الثمينة... زاره رفقي قبل وفاته بأسبوع واحد... يُعتقد أنه وضع البطاقة هناك.

عقد آدم حاجبيه مفكراً:

- وكيف لم نعرف هذا من قبل؟!

- رفقي قبل وفاته كان أكثر حرصاً في تحركاته وينتقل بسرعة... وكان يتمكن من الهرب من المراقبة في بعض الاحيان... بالتأكيد ذهب لهذا المصرف في تلك الأحيان.

- وكيف عرفتم إذاً؟!

ابتسم في سخرية:

- كان ظني في محله حيث توقعت أن الطرف الآخر لا يتحرك كما نتحرك نحن.. لأنهم يعلمون بشكل أو بآخر مكان البطاقة لذا يتركوننا نتحرك كما نريد... لذا قررنا أن نحرك أحد عناصرنا الخاملين في صفوفهم... وكما توقعنا استطاع أن يصل لنا لتلك المعلومة... أنهم يعلمون اسم المصرف وكل ما يحتاجونه هو الفتاة.. لكن عدم تحركهم حتى الآن.. يجعلني أعتقد أنهم لا يريدون الفتاة فقط... هناك من يخطط للنيل منك أنت أيضاً.

- النيل مني أنا!!

قالها آدم بريبة، فأردف باسم:

- كان يمكنهم الحصول على الفتاة في أي وقت، لمَ لم يتحركوا إلى الآن؟... لمَ يتركوننا نتقرب من الفتاة ويكتفون بالمراقبة؟... بالتأكيد هناك نية خفية وراء كل هذا.. ولدي شعور أن تلك النية متعلقة بك أنت.

وقف آدم وقد ضم قبضتيه بقوة مردداً:

- فليكن... أتمنى حقاً أن يظهر أمامي... أعلم أنه يريدني كما أريده.

وقف باسم بدوره مردداً:

- الأمر ليس بهذه السهولة... لذا لن ننتظر أكثر من ذلك.

التفت آدم إليه متسائلاً:

- ماذا تعني؟!

نظر له بجدية قائلاً:

- حنين... يجب أن تكون تحت سيطرتنا الكاملة عاجلاً.. ولن ننتظر رغبتها... ستكون معنا برضاها أو رغماً عنها!.

صمت آدم مفكراً ليردف باسم:

- عاجلاً آدم... عاجلاً.

حدق بوجهه للحظات قائلاً:

- وكيف سيكون هذا؟!!

- ستخبرها بالحقيقة.. ستخبرها بكل شيء.

لا يعلم هل اهتزت الأرض من تحته أم أن جسده هو الذي ينتفض من الداخل مردداً:

- أخبرها بكل شيء؟!!.

أومأ باسم برأسه قائلاً:

- نعم... ولن تمنحها الاختيار.. يجب أن تكون في صفنا نحن... خذها إلى بيت الغابة.. اخبرها حين تصلا إلى هناك.. ولا تسمح لها بالمغادرة أبداً.. أتفهم؟!..

لم يمنحه رد.. بدا وكأنه في عالم آخر.. عقد باسم حاجبيه قائلاً:

- سمعتني!!... لم لا تجب؟!

انتبه له آدم ليوميء برأسه إيجاباً... تجهم وجه باسم للحظات ليقول:

- سأرسل أحدهم لينتظركما في بيت الغابة... كي لا تسمحا لها بالفرار.

بدا الضيق على وجه آدم قائلاً:

- وما الداعي لهذا؟.. أنا كفيل بها.

- حقاً!!

لم يرتح آدم لطريقة باسم الساخرة في قول كلمته فعقد ذراعيه امام صدره قائلاً:

- ماذا يعني هذا؟!!

رد باسم بتصميم:

- يعني أنني لن أسمح لك ولعواطفك تلك أن تفسد علينا الأمر.

رمقه آدم بحذر مردداً:

- عواطفي!!... هل يمكن أن تكون أكثر وضوحاً؟.

- حسناً.. ولتعلم أن حواري هذا رسمياً أيها الرائد... لدي يقين بأن عواطفك تجاه تلك الفتاة ليس كما يجب أن تكن... ولهذا سأسأل وبشكل مباشر... هل توجد داخلك أي مشاعر تجاه تلك الفتاة؟.

زاغ بصر آدم بعيداً ليهمهم باسم:

- ومن أجل هذا ولمصلحة العمل... لن تعمل وحدك معها بعد الآن أيها الرائد.

التفت ليحدق به وهو يقول بنبرة حارب لكي تكون أهدى ما يكون:

- هل تعني أنني غير جدير على اتمام العمل؟... هل تشكك في قدراتي وولائي لوطني؟... هل تعني هذا حقاً؟!!

ابتسم باسم مجيباً:

- لا أيها الرائد... أنا لا أشكك في قدراتك ولا ولائك لوطنك وعملك... ولكن دعني أسألك.. لو اعترضت حنين طريقك في الوصول لهدفنا... فماذا ستفعل؟!

بدا آدم مندهشاً وهو يقول:

- تعترض طريقنا!!... تتحدث وكأنها الطرف السيء.. حنين لن تعترض طريقنا أبداً.

أشار له باسم بكفه:

- مهلاً... يبدو أنني سألت السؤال بشكل غير صحيح.... ماذا ستفعل... لو وضعت حنين في كفه والوصول لهدفك في كفه أخرى؟... كيف ستتصرف أيها الرائد؟.. هل ستهرع لإنقاذها وتتخلى عن البطاقة التي هي هدفك من تلك المهمة... أما ستسعى لهدفك دون أن تلتفت إليها؟؟.

طالت رمقاته لباسم قبل أن يقول:

- لن أسمح لهذا أن يحدث... سأ...

- أاااااااااااا.... إجابة خاطئة... أريد إجابة لسؤالي... بمن ستضحي؟... بحنين أم بالبطاقة؟!

عقد آدم حاجبيه وبدا الإصرار على ملامح وجهه:

- سأضحي بحياتي أنا سيد باسم... لن أسمح لنفسي بالفشل أبداً... سأسلمك البطاقة التي تريد... حتى لو كان الثمن حياتي... حياتي أنا.. هل هذا يكفي؟.

تعلق بصر باسم به لبرهة قبل أن يزفر في ضيق وهو يشيح بوجهه بعيداً، اقترب آدم منه أكثر ليقول برجاء:

- باسم... بعيداً عن الرسميات... أنت صديقي.. وكنت صديق لأحمد أيضاً.. أرجوك لا تقصيني... لا تبعدني.. دعني أنهي الأمر كما وعدت أحمد... أقسم لك أنني لن أخطيء... لا حنين ولا غيرها ستنسيني هدفي الرئيسي...

صمت باسم قليلاً فكراً قبل أن يرفع رأسه قائلاً:

- آسف علي التحدث للإدارة... وهم سيـــ....

تعلق آدم بذراعه مردداً:

- باسم ارجوك... لا تفعل هذا بي... تعلم أن الإدارة ستقصيني في الحال... من أجل أحمد... من أجل صديقنا... دعنا نكملها معاً.. وسننجح معاً... فقط ثق بي.

أطرق باسم رأسه دون رد... فعقد آدم حاجبيه قائلاً:

- كيف لا يمكنك أن تشعر بي؟!

ردد باسم دون أن ينظر إليه:

- وكيف سأشعر بك؟!!

اعتصر آدم قبضته:

- صدقت.. كيف ستشعر بي؟... لست أنت من سالت دماء أحمد على صدره... لست أنت من مات أحمد ليعيش!.. لست أنت من يأوي لفراشه كل ليلة بهذا الألم الضاري بصدره... إنه أنا... أنا فقط...

التقت أعيناهما ليرى باسم فيها الكثير من الغضب والإصرار:

- ولهذا لن أترك الأمر مادمت حياً... ولن أسمح لهم بالفوز... سنصل لهدفنا... حتى لو كان الثمن حياتي.. فلا تصعب الأمور على كلينا... ودعنا نسير في خططنا كما هي..

تعلقت أبصارهما ببعض حتى زفر باسم قائلاً:

- حسناً... سأثق بك... سأثق بك حتى النهاية.

لانت ملامح آدم وإن احتفظ باللهجة الصارمة:

- شكراً صديقي... شكراً... أنا ممتن لك كثيراً.

أنهى جملته ليتجه إلى غرفته ويغلق بابها عليه، ليحدق بها باسم للحظات قبل أن يتجه مغادراً ومتمتماً:

- أرجوا ألا أكون قد أخطأت.

****

جلست حنين تتابع أليكس وهو يكمل رسمته الجديدة بسعادة هائلة، لاحت منها التفاته لـمِيا رفيقتها التي جلست بجوار إحدى النوافذ تتطلع للاشيء، ربتت على رأس أليكس هامسة:

- أكمل الرسمة ثم أريني إياها.

أومأ برأسه ببسمة طفولية جميلة، تركته لتقترب من رفيقتها مازحة:

- مِيا.. أليكس رسمه جيد.. أعتقد أنه سيكون فنان رائع.

منحتها نظرة خاوية واكتفت بهز رأسها مؤيدة لها ، جلست حنين أمامها لتمسك بكفها قائلة:

- مِيا.. أنا أفتقدك.. متى ستعودي؟!

تعلق بصرها بحنين التي ابتسمت قائلة:

- هيا رفيقتي.. أريد أن تصم أذناي ضحكاتك الصاخبة.

لاحت شبح ابتسامة على شفتيها لكنها اختفت سريعاً لتقول:

- آني.. أتلتقين بأدم؟!!

- امممم.. ليس كثيراً هذه الأيام... نتحدث عبر الهاتف.

- ليس عليكِ أن تفعلي هذا.

تسألت حنين:

- ماذا تقصدين؟!

- توقفتِ عن الحديث عن آدم منذ ما حدث معي... توقفتِ عن لقاءه أو الخروج معه... آني... أنا بخير... أحتاج بعض الوقت فقط... لست مضطرة لفعل هذا... يسعدني أن تعثري على نصفك

الآخر... وأتمنى أن يكون حظك أفضل من حظي.. أتمنى لكِ السعادة آني... فهذا فقط ما سيعيد لي السعادة مجدداً.

اتسعت ابتسامة حنين في امتنان، وضمت رفيقتها بقوة، لتقول مِيا:

- هواااااء!.... أريد التنفس!!.

حررتها حنين ضاحكة لتضرب كتفها قائلة:

- نعم... هذه هي مِيا التي أعرفها.

اقترب أليكس منهما قائلاً بصوت طفولي محبب إليها كثيراً:

- آني.. مِيا... لقد أنتهيت.

رفع لهما لوحة ضمت طفل صغير يقف بين رجل وامرأة، ابتسمت حنين لتحمل منه ورقة الرسم:

- رااااائعة أليكس... ستكون فنان موهوب.

كان رسم طفولي لكن ما ميزه أنه كان واضح ومحدد رفع أليكس إصبعه يشير لرسمته قائلاً:

- هذا أنا... وهذا أبي... وهذه أنتِ آني!.

بهتت حنين للحظة وهي تحدق بوجه أليكس البريء، بينما همست مِيا:

- هذا الفتى يعرف ماذا يريد!.

رمقتها حنين بلوم ثم التفتت لأليكس قائلة:

- رائعة أليكس.. يسعدني أن تضعني في صورة مع أبيك الذي يحبك... فأنا أيضاً أحبك كثيراً.

اتسعت ابتسامة أليكس ليقول:

- إذاً ستعيشين معنا كما كانت تعيش أمي معنا؟.

ضمته حنين لصدرها... كم تشفق على هذا المسكين...

لكن عليها أن تكون واضحه معه...

يجب أن يفهم أنها لن تحتل مكانة أمه قط...

همست في أذنه:

- أليكس عزيزي... أنا معلمتك وأحبك كثيراً.. لكني لا أستطيع العيش في منزلك ولا يمكنني احتلال مكان أمك.. لا يوجد أحد في هذا الكون يمكن أن يحتل مكانها في قلبك... لكني أتمنى أن يلتقي أبوك بامرأة رائعة تحبك مثلما كانت تحبك أمك.. وبالتأكيد ستكون سعيداً معها.

تعلق بها الطفل وبدا أنه يستوعب كلماتها ليردد:

- كوني أمي... آني... كوني أمي!.

ربتت على ظهره وقد أعجزتها الحيلة، ماذا يمكنها أن تفعل؟!!

نظرت لمِيا وكأنها تسألها العون، فزفرت مِيا قائلة:

- أليكس.. عليك أن تعلم أن آني معلمتك فقط... وهي تحبك كثيراً.. لكنها لن تكون أمك ولن تعيش في بيتك.

رفع أليكس رأسه إليها وهو ينظر لها بغضب ثم التفت لآني وكأنه يطالبها بمعارضة كلام مِيا، فقالت آني:

- نعم أليكس... لن أستطيع أن أعيش في بيتك.. يمكنك التحدث معي وقتما تشاء وتطلب مني ما تشاء... وسأفعل ما يمكنني لك أليكس.. لأنني أحبك بصدق.

تملص من بين ذراعيها وأمسك رسمته ليمزقها أمام عينيهما الذاهلتين، ليصرخ مبتعداً:

- أكرهكما!!!!.

رددت حنين:

- يا الهي!!.

- أريد أن يذكرني أحد أن هذا الطفل في الخامسة.

قالتها مِيا بينما صمتت حنين مفكرة، أليكس بحاجة إلى معالجة متخصصة.. ويجب أن تحدث أباه في الأمر.

انتهى اليوم الدراسي وبدأ الأطفال بركوب حافلات المدرسة بينما حضر بعض أولياء الأمور لاصطحاب أطفالهم معهم...

وقفت حنين مع ميا كما تفعلان يومياً يتابعان الأطفال.. حتى تتأكدا أن الجميع قد ذهب مع أهله...

التفتت حنين لترى أليكس جالساً وقد بدا الحزن على وجهه، تألم قلبها له.. لكنها تعلم جيداً أن مساعدته ليست في تحقيق طلبه فحسب وإنما في جعله قادراً على التعامل مع وضعه.

وصل أبوه ليقترب منه حاملاً إياه، دنت منهما حنين ببسمة هادئة ما أن لمحها أليكس حتى أشاح بوجهه بعيداً، ابتسم لها ليون قائلاً:

- كيف حالك آنسة آني؟!!

- بخير سيد ديفيد شكراً لك.

ربت على رأس طفله قائلاً:

- كيف حال أليكس معكِ؟!

- أنه بخير... لكنني أردت أن أحدثك بشأنه.

عقد حاجبيه متسائلاً:

- أهناك مشكلة؟.

لوحت بكفها:

- لا.. على الإطلاق... فقط أردت أن أحدثك بشأنه... فهل يمكنك المجيء غداً باكراً... لنتحدث.

صمت مفكراً ليقول:

- لا بأس.. سأتمكن من الحضور.

ابتسمت قائلة:

- شكراً لك.

ثم مسحت على رأس أليكس قائلة بود:

- أراك غداً عزيزي.

مط أليكس شفتيه ولم يجب، مما أصاب والده بالدهشة، فأشارت له حنين بأنها ستشرح له غداً... فأومأ متفهماً ليأخذ طفله ويذهب.

اقتربت مِيا منها قائلة:

- ماذا هناك؟!

- يجب أن أتحدث مع أبيه... أليكس بحاجة لمساعدة.

أيدتها بقولها:

- قلت هذا من البداية.. تعلق الفتى بكِ مرضي.

- معك حق... أتمنى فقط أن يستعيد طفولته بشكل طبيعي.

- هيا بنا لنذهب... اشعر بالتعب.

****

بعد أن غادر باسم... جلس آدم يفكر في كيفية جذب حنين إلى بيت الغابة دون أن يثير شكوكها...

يعلم أن الأمر ليس صعباً... أنها تثق به ثقة عمياء... و

لن تمانع لو طلب منها الذهاب إلى أي مكان...

ولكن...

ليس هذا ما يقلقه حقاً...

بل قلقه الحقيقي في رد فعلها حين يبدأ في إخبارها بالحقيقة...

كل الحقيقة....

كان يضع السيناريو تلو الآخر...

ستصدم...

ستنظر إليه بعدم تصديق...

كلا...

ستصرخ في وجه بأنه مجرد كاذب...

بل ستبكي وترجوه أن يكون مازحاً..

وأن كل ما قاله ليس صحيحاً.

هز رأسه في يأس.. فالمواجهة قادمة لا محاله..

من الجيد أنه هو من سيخبرها..

هذا أفضل من أن تعرف بطريق آخر... لكن عليه إيجاد المقدمة المناسبة...

ولكن أي مقدمة تناسب كلاماً كالذي سيقوله لها...

أن يكتشف المرء أن كل ما في حياته هو مجرد خدعة...

والد مثالي... تحول فجأة الى خائن لوطنه...

وحبيب ظنته الأفضل... غدا مجرد مخادع.

أخرجه صوت رنين هاتفه من أفكاره ليطالع اسمها يتألق على شاشته..

ظل يحدق بالشاشة بوجوم حتى توقف الاتصال...

لكنه سرعان ما بدأ ثانية...

ضغط على زر الايجاب ليصله صوتها الرقيق:

- آدم.. كيف حالك؟

- أنا بخير.. كيف حالك أنتِ؟

- أنا أفتقدك كثيراً.

لاحت بسمة ما على شفتيه يغلفها الكثير من الحسرة وهو يجيب:

- وأنا أيضاً... دعينا نقضي العطلة معاً.

- لا تقلق.. سنفعل... مِيا أصبحت بحال أفضل... فلنلتقي صباح الأحد كالمرة الماضية.

همهم قائلاً:

- كنت أفكر في أن نلتقي مساء الغد... ولنتناول العشاء معاً.. لا أريد الانتظار لصباح الأحد.

ضحكت بخفة مرددة:

- حسناً حبيبي كما تريد... فلنتناول العشاء معاً.

- سأمر عليكِ.. في السابعة.

- سأنتظرك... إلى اللقاء.

أنهى المكالمة.. ليزفر في حرارة:

- أرجو أن تسامحيني!.

****

صباح السبت... ابتسم لمرآها وهو يحيها رحبت به قائلة:

- شكراً على المجيء... سيخرج الأطفال للساحة بعد لحظات.. لا أريد لأليكس أن يرانا...

هل يمكن أن نذهب لنتكلم بداخل مكتب الأخصائية؟.

- بالتأكيد.

كانت الغرفة خالية... فأشارت له بالجلوس لتبدأ بالكلام، شكرته ثانية على حرصه على الحضور... وسردت له تعلق أليكس بها حتى أنه يتمنى منها أن تعيش في بيته... وأن تكون أمه البديلة... واعتقادها أن تعلق أليكس بها مرضي.. وأنه بحاجه لطبيب متخصص

يعينه على تفهم وضعه والتأقلم عليه... ومحاولة الإختلاط بزملائه بدلاً من بقائه معها طوال الوقت أو مع والده فقط.

استمع لها في صمت حتى انتهت من كلامها فأطرق برأسه للحظات... ثم وضع يده في جيبه ليخرج حافظته فتحها ليلتقط منها صورة ما وأعطاها لحنين...

نظرت للصورة ثم اتسعت عيناها في دهشة.. كانت تنظر لوجه امرأة يشبهها الى حد كبير.

ظلت تحدق بالصورة ليصل لها صوت ليون:

- حين فقدت أمه... لم يرد أن يذهب لمدرسته ولا يتحدث مع أحد... فكرت أن علي البحث عن مدرسة أخرى وجعله يلتقي بأشخاص آخرين... وبينما اتنقل بين المدارس وصلت لمدرستك ورأيتك... كنت في دهشة عارمة... ظننت أنكِ رحمة من الرب لنا... أن وجدتك... أحضرت طفلي إلى هنا.. حدثته أن الرب أرسل له هدية... فتاة تشبه أمه كثيراً وستكون معلمته... حينها فقط تحدث ثانية وشعرت وكأنه عاد للحياة... ربما تصرفي هذا لم يكن صحيحاً... ربما كان يجب أن أتحدث معكِ بهذا الشأن... لكنني... لكنني تصورت أنكِ هدية لنا من السماء فعلاً... وقلت لمَ لا؟!!...

رفعت بصرها إليه ليرمقها للحظات قبل أن يقول:

- في الحقيقة بعد أن تعرفنا إليكِ أكثر... وجدت كم أنكِ رائعة.. بل أنني تمنيت...

تمنيت حقاً أن تكوني أما لأليكس وزوجة لي!.

اتسعت عينا حنين وهو ترمقه بذهول، فابتسم مضطرباً ليقول:

- فهل هناك أمل في هذا؟!

هزت رأسها بعدم تصديق قائلة:

- لا اصدق ما تقول... يبدو أنك وابنك بحاجه للحديث مع متخصص.

شعر بالإهانة من كلماتها ليقول:

- هل تعتقدين أنني فقدت عقلي؟!

- لا سيد ديفيد... أنت أحببت زوجتك كثيراً.. زوجتك التي تراها في ملامح وجهي.. أنت تصورت أنه يمكن لكل شيء أن يعود لسابق عهده لو امرأة تشبه زوجتك دخلت بيتك... واهتمت بابنك... لا أصدق أنك عرضت ابنك لكل هذا.. أنه مجرد طفل صغير كيف تجعله يظن أنني هنا بدلاً من أمه... كيف فعلت به هذا؟!

أطرق برأسه مردداً:

- أردت أن يكون سعيداً.

- ما تقدمه له الآن مجرد سعادة مزيفة... لهذا أقول لك أنت أيضاً بحاجة للحديث مع متخصص... لتفهم كيف يمكن أن تتعامل مع ابنك... كيف يمكنكما أن تتجاوزا هذا الأمر... آسفة سيد ديفيد... لكني احملك الخطأ كله... أنا لن أكون أمه بالشكل الذي يريد.. ولن أكون بديلاً لك عن زوجتك التي فقدتها.. كان يجب أن تعي هذا.

اعتدل واقفاً ساحباً صورة زوجته وهو يقول:

- حسناً فهمت... سأقوم بنقل ابني من مدرستك ولن نضايقك ثانية.

زفرت بضيق مرددة:

- هذا ليس ما قصدته.. كما أن ابنك ليس دمية في يدك كي تحركها كيف تشاء.. أنت تدمره هكذا.

عقد حاجبيه قائلاً بغضب:

- لن تعلميني كيف أرعى ابني الوحيد.

وقفت هي الأخرى قائلة:

- لا لن أعلمك... دع أليكس في مدرسته وأبدأ في زيارة معالج نفسي لصحة الأطفال... وسيكون كل شيء على ما يرام... وإذا حتجت مساعدتي في أي شيء فلن أتأخر.. فأمر أليكس يعنيني كثيراً... شكراً على حضورك.. وآسفه جداً على مضايقتك... ففي النهاية مصلحتنا واحدة... سعادة أليكس.

حدق بها للحظات ليطرق برأسه قائلاً:

- نعم .. صحيح.. سعادة أليكس... شكراً لكِ.. وآسف على كل شيء.

ابتسمت في ود:

- لا عليك.. سعيدة لتفهمك.

استئذن منها مغادراً لتلوح منه التفاته على طفله الذي كان يجلس وحيداً كعادته يتابع رفاقه وهو يمرحون... تسرب الحزن لقلبه متمتماً:

- لا بأس بني... سنتعلم أن نستعيد الحياة معاً.

****

أنهت حنين مكالمتها مع مِيا وهي تلقي نظرة أخيرة على طلتها النهائية... التي طغى عليها اللون الأسود... ملك الألوان... بمعطف ذو فراء على رقبته يلتف على خصرها بحزام عريض وينتهي فوق الركبة بهيئة متسعة قليلاً... مع بنطال رمادي وحذاء نسائي أنيق.

رن هاتفها ليتألق باسمه.. لتجيب مبتهجة:

- حبيبي...

- هيا.. معي سيارة صديقي... أنتظرك أمام المنزل.

- حالاً.

حملت حقيبة يدها مسرعة للخارج... تملأها السعادة التي أصبحت رفيقتها منذ ذاك الشعور الذي ملأ جوانبها... حبها لآدم.

استقرت بجانبه في السيارة وبعد كلمات التحية سألها:

- أين تحبين أن تتناولي عشائك؟!

صمتت مفكرة... ثم ابتسمت قائلة:

- هناك مكان كنت أتناول فيه العشاء مع أبي.. أريد أن أشاركك إياه أيضاً.

لم تلحظ تلك النظرة التي ظهرت واختفت في لحظات بعينيه وهو يقول:

- حسناً.. فلنذهب إليه.

أرشدته إلى الطريق حتى وصلا... كان ممتلىء تقريباً لكنهما وجدا طاولة متاحة في أحد الأركان وبدت مميزة بجلوسهما عليها...

حنين بطلتها الجميلة وآدم بوسامته الهادئة.

اقترب منهما النادل حاملاً قنينة نبيذ ليضعها على الطاولة إلا أن آدم أراد أن يشير له.. لكن حنين سبقته قائلة:

- لا داعي لها.. شكراً لك.. لن نشرب منها.

فحمله النادل بعيداً...

ثم عاد لهما ليأخذ طلباتهما التي قامت بها حنين بالنيابة عن آدم لأنها تعرف المكان جيداً.

ابتسم آدم لحنين قائلاً:

- لا تحبين النبيذ؟.

هزت كتفيها مرددة:

ـ أشربه أحياناً.. ولكني أعلم أن المسلمين لا يشربوه.

أومأ لها برأسه:

ـ هذا صحيح... أتعرفين الكثير عن الإسلام؟!!

ـ ليس تماماً.

التزما الصمت للحظات لتتململ حنين في جلستها، فضيق عيناه متسائلاً:

ـ أنتِ غير مرتاحة؟!

ـ لا على العكس... ولكن هناك أمر كنت أريد أحدثك فيه... ولا أعلم كيف هو رد فعلك؟

استرخى في جلسته قائلاً:

ـ ستعرفين حين أسمع.

ابتلعت ريقها واستجمعت شجاعتها أكثر لتقول:

ـ ألا ترى أنه من الأنانية.. أن أعلم أن لدي شيء أفضل مما لديك ولا أشاركك إياه.. أليس نفاقاً... أن أعلم أين الحقيقة وأتركك على ما أنت عليه؟؟

عقد حاجبيه قائلاً:

ـ ماذا تقصدين؟!

استجمعت شجاعتها قائلة:

ـ آدم.. لا أعرف كيف ستتقبل هذا؟... ولكن.. أنا أريد لك الأفضل... كُن معي آدم.. لا بل كُن مع المُخَلِص... فلتكن من أتباع الكنيسة معي آدم... دعنا نتحد روحياً كما اتحد قلبينا.

حبست أنفاسها وهي تترقب ملامح وجهه الهادئة التي استمعت لها باهتمام، ليبتسم قائلاً:

ـ معكِ حق.

تهللت أساريرها بدون تصديق:

ـ حقاً... أنت ترى هذا؟... ستتبع المُخَلِص؟!!

اقترب ليستند بمرفقيه إلى طاولته قائلاً:

- بل أقصد معكِ حق.. في أنه من الأنانية أن أعلم أن لدي شيء أفضل ولا أشاركك إياه... لا أعلم كيف لم أفكر في هذا من قبل.. أنتِ أكثر جرأة مني... لكني سأفعل مثلك... وسأدعوك أنا للإسلام... حقاً ستكون أروع هدية أقدمها لكِ... هدية ستهون عليكِ كل صعب.

قال جملته الأخيرة وهو يفكر في اللحظة التي سيخسرها فيها.. فلقد خطر بباله من كلامها أنه يمكنه حقاً مساعدتها على تجاوز آلامها إن أسلمت.. لكن ما يقلقه ألا يكون مثال جيد عن دينه حين تكتشف خدعته.. وبدلاً من أن تفكر في الإسلام تبغضه.. لكن شيء ما كان يطمئنه.. قلبها الطيب.

عاد الإحباط يسكن ملامحها لكنها قالت بإصرار:

- مهلاً.. أنا لم أقل شيئاً بعد... أنت لا تفهم طبيعة إيماننا...

عاد لاسترخاءه في كرسيه ليترك لها حرية الكلام، فقالت وقد عادت حماستها:

- أنا أؤمن بالمُخَلِص.. الذي افتدانا بنفسه لينقذنا من الخطيئة... فلو لم نؤمن به لن تنال أرواحنا السعادة الأبدية أبداً.. سنبقى أسرى لخطايانا... ألا تشعر بعظم ما فعله يسوع من أجلنا... من أجل البشرية... كيف أن دماءه سالت من أجل أن تطهرنا من معاصينا.

رمقها لبعض الوقت ثم قال بهدوء:

- وأنا أؤمن برب المُخَلِص.. الذي خلقنا وخلق المُخَلِص.. ولعلمك أنا أؤمن بالمُخَلِص أيضاً... لكن بشكل مختلف... نحن المسلمون نؤمن بموسى وعيسى عليهما السلام.. اليهود هم من لم يؤمنوا بعيسى فلم يصبحوا مسيحين وأنتم لم تؤمنوا بمحمد فلم تصبحوا مسلمين.

- الأمر ليس بهذه البساطة.. أنتم تنكرون الفداء؟!..

هز كتفيه بهدوء:

- لم ننكره من تلقاء أنفسنا... أنتِ تؤمنين بما في الإنجيل وأنا أؤمن بما في القرءان... والقرءان لم يتحدث مطلقاً عن تلك القصة... كما أنني حين أفكر فيها.. أستغرب قليلاً.

سألته باهتمام:

- مما؟!!

- من حبكم للصليب رغم أنه رمز للحظات العذاب التي عاشاها يسوع... قُتِل عليه ومع ذلك تضعونه على صدوركم وتصلون أمامه... أعتقد لو كنت مكانك لكرهته.

حديثه الهادىء جعلها تحتفظ بهدوئها هي أيضاً وهي تقول:

- هذا لأنك لا ترى ما نراه... الصليب ليس رمز العذاب... بل هو رمز الفداء.. الخلاص.. لو نظرت له هكذا... لعلقته على صدرك أنت أيضاً.

مط شفتيه متمتماً:

- ربما.. ولكن تحمليني قليلاً... هناك أمر آخر لا أفهمه.

- ما هو؟!

- تؤمنين كما أؤمن بأن اللّه عادل... وحكيم... فما العدل في خلق طفل ثم تربيته ليكون من الصالحين... ويعيش كما أراد له اللّه أن يعش... وبعد هذا يأتي بعض اليهود ليحملوه على صليب... فيضربوه ويهينوه.. ويتركونه يعذب ٣ ساعات حتى الموت.. وكل هذا لأن آدم قد أكل من التفاحة فحمل الخطيئة وورثها منه كل البشر... ولكي يغفر اللّه للبشر.. كان يجب أن يموت يسوع... ولكن.. ما العدل في هذا؟!... لمَ يجب أن يقتل رجل صالح أو ابن اللّه أو اللّه كما يسميه بعضكم.. ليغفر لآدم الذي مات قبله بمئات السنين... لماذا يموت هو... كي أنجو أنا؟!.. لماذا؟!

- إنه اختيار الرب... كيف تعترض عليه؟!... ألا يوجد عندكم أمور ليس لكم أن تسألوا عنها... نحن أيضاً ليس لنا أن نسأل عن هذا... علينا أن نفهمه ونستوعبه ونؤمن به.

- بالطبع ... وأنا لم أستطع أن أستوعبه.. فاللّه أعدل من هذا.. أرحم من هذا... وأحكم من هذا... إن أراد أن يغفر للبشر فهناك بالتأكيد طريقة أفضل من تلك التضحية.. طريقة بسيطة وسهله يسرها لنا جميعاً... يسرها لآدم عليه السلام حين تاب عليه بعد أن خرج من الجنة... طريقة نعيش عليها نحن الآن.. "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم".

أطرقت برأسها وهي تزفر بيأس دون رد ، فاتسعت ابتسامته قائلاً:

- أصابكِ الإحباط؟!

أومأت برأسها دون أن ترفع بصرها إليه، فهمهم ليقول:

- امممممم... لدي فكرة... تعطيني نسخة من الإنجيل... وأعطيكِ نسخة من القرءان... على أن تقرئيها كلها... ولنتحدث بعدها.

ضاقت عيناها للحظة قبل أن تقول:

- هذا عادلاً.... موافقة.

اتسعت ابتسامته قائلاً:

- تمنيت أن أكمل حديثي.. لكنني واثق أن كلمات القرءان ستصل إلى قلبك أفضل مما قد أقول... فالقرءان دوماً يسكن القلوب الطيبة مثل قلبك.

ردت بإصرار:

- وكذلك الإنجيل.

ضحك قائلاً:

- يعجبني إصرارك.

وصل لهما الطعام ليشرعا في الأكل، لتنتقل حنين بحديثها عن مِيا وكيف كانت حالتها سيئة للغاية... وكم شعرت بالدهشة من كون باولو فعل هذا معها.. ولكنها تعلم أن رفيقتها قوية وسيمكنها تجاوز هذا بشكل أفضل... وهي قد بدأت في هذا بالفعل..

كان يستمع لها بهدوء دون أي مقاطعة... كان يعلم بل يثق أنه آخر حديث مطول معها فأراد أن يستمتع به للنهاية.. فهذه المرة الأخيرة التي ستتحدث فيها بهذا الود.. لن يرى هذه البسمة ثانية... لن يرى مكانها غير عبراتها وحزنها.. واتهاماتها طبعاً.

استمر عشاءهما على نحو هادئ.. كانت هي صاحبة النصيب الأكبر من الكلام وكان هو منصت جيد.

انتهى عشائهما ليخرجا من المطعم ليركبا السيارة لاحظت حنين صمته الواجم فقالت:

- ما بك؟!!

قال دون أن يلتفت لها:

- لا شيء... كنت أفكر في أن الوقت مازال باكراً على العودة.. وأنا أريد أن أريكِ شيئاً.

اعتدلت في جلستها لتواجهه بحماس:

- ما هو؟!

التفت لها ليقول بهدوء:

- لدي منزل صغير في الغابة.. يطل على مشاهد رائعة مع شروق الشمس... ما رأيك أن نذهب إليه ونقضي ليلتنا هناك.

شعر آدم أنه فجأة ينظر إلى صورة فوتوغرافية ثابتة ليحدق بها للحظات ثم ابتسم قائلاً:

- حسناً.. فهمت الآن قصدك من تعبيرات وجهي غير المفهومة...لأنني أنظر إلى إحداها الآن.

حررت أجفانها أخيراً لتتلاقى عدة مرات، لتعدل في جلستها متجنبة النظر له... فلقد أضاء داخلها هذا الضوء الأحمر... الذي تملكه كل أنثى.. وكأن حواء خلقت به فورثته لبنات جنسها.. لينبهها إلى شيء ما خاطيء على وشك الحدوث.. وكأنها فطرة أنثوية لتتمكن من الحفاظ على نفسها والنجاة في الوقت المناسب.. وإن كان الكثيرات منهن الآن يصررن على عدم الالتفات لتلك الفطرة التي فطرن عليها.

طال صمتها فأردف:

- هل ما قلته سيء لهذه الدرجة؟!

هزت رأسها بالنفي وإن لم تخفي توترها:

- لا.. لكن.. أقصد..

ابتسم لإرتباكها الواضح واستوعب بالطبع فيما تفكر فقال:

- ألا تثقين بي؟!!

صمتت لوهلة قبل ان تقول:

- بالطبع أثق بك.. والأمر ليس كذلك.. أنا فقط لا أحب أن أفعل شيء لا أريده.. وأخشى أن أفعل شيء لا أريده.

عقد حاجبيه وبدا غير مستوعب لكلماتها فقال:

- أحجية تلك؟!! لم أفهم.

- كيف سنقضي ليلتنا معاً؟!!

سألته بغته وكأنها تلقي به.. فنظر لها قائلاً ببساطة:

- كما قضيناها سابقاً.

فهمت أنه يقصد الليلة التي دعته للمبيت عندها، فالتفتت له وكأنها تبحث عن تأكيد فاتسعت ابتسامته قائلاً:

- سيبقى كل شيء على ما يرام طالما سيبقى كلاً في مكانه.

كانت تلك كلماتها التي رددتها عليه حينها.. ضحكت قائلة:

- نعم.. صحيح... طالما سيبقى كلاً في مكانه... ولكن.. ألا يمكن أن نأتي في الصباح الباكر... لنرى الشروق.

قال بإصرار:

- المسافة طويلة.. قضاء الليلة هناك أفضل.

صمتت مفكرة.. كان لا زال الضوء الأحمر مشتعلاً وإن خفت درجته قليلاً.. لكنها تثق به بالفعل.. وتعلم أنه لن يؤذيها قط.. فأومأت برأسها موافقة ليتنفس الصعداء قائلاً:

- أخيراً... هيا بنا إذاً.

انطلق بالسيارة وقد كان الصمت هذه المرة حليفهما.. لكن توتر حنين لم يقل ولم تفهم سببه حتى.. هي تعلم أنه لن يجبرها على شيء لا تريده.. ستحافظ على ما تعملته من أبيها.. وما هي مقتنعة به.. وآدم سيساعدها على هذا.. فلمَ التوتر إذاً؟!

هل هناك شيء خاطيء.. هل هذه الحاسة السادسة التي يتحدث عنها البعض؟!

كانت تفرك كفيها لا شعورياً حتى أنها ازدات بياضاً لهروب الدماء منها.

لاحظ بطرف عينه حركة كفيها الدؤوب، عاد يتطلع لطريقه متجاهلاً هذا.. عليه تجاهل أي مشاعر الآن.. عليه أن يثبت لنفسه قبل باسم أنه بالفعل يعرف ما هو هدفه الحقيقي؟!!..

هو لم يبدأ هذا الأمر كي يتورط في مشاعر مع حنين.. صحيح أن هذا ما حدث.. لكنه يعرف جيداً أن عليه أن يفرق بينهما في الوقت المناسب.. وحتى الآن الأمور تسير بشكل جيد... وجود حنين معه يحقق له هدفين... بقاء أمر الوصول للبطاقة ميسراً... وأيضاً حماية حنين ووجودها تحت ناظريه... يعلم جيداً أنها ستكرهه.. وستكره بقاءها معه... لكن عليه ألا يسمح لها بالإبتعاد... ليس قبل أن ينتهي كل شيء... هو يثق أنها مهما كرهته لن تقف ضده... خاصة بعد أن تعرف الحقيقة كاملة... صحيح لا ذنب لها في شيء.. لكن ذنبها الوحيد.. أنها ابنة رفقي.

"توقف آدم"

قالتها ليضغط المكابح بقوة ولولا حزام الأمان لارتطاما بزجاج السيارة فالتفت لها مترقباً فابتسمت بتوتر:

- لما توقفت فجأة هكذا؟!

- لقد افزعتيني.. ماذا حدث؟!!

نظرت له بدهشة فكلمتها كانت هادئة وصوتها أيضاً كان منخفض، شعر بدهشتها فتمتم قائلاً:

- لقد كنت أفكر في أمراً ما... فبدا لي كلامك مفاجيء... لا بأس.. ماذا حدث؟!!

داعبت خصلات شعرها قائلة:

- لا أعلم.. كنت أفكر أن نجلس هنا قليلاً قبل أن نكمل طريقنا.. أشعر بالتوتر لا أعلم لماذا؟!

نظر حوله ليجد ساحة ما تدور حولها عدة مقاعد خشبية، فابتسم قائلاً:

- لا بأس.. فلنجلس هنا قليلاً.

هو أيضاً يشعر بالتوتر كلما تأخر الأمر توتر أكثر... لكنه لا يريد أن يثير ريبتها برفضه الجلوس... وإصراره على الذهاب ربما يقلقها أكثر فتغير رأيها...

ترجلا من السيارة ليتجها إلى تلك الساحة ويجلسان على أحد المقاعد التي يجاوره عمود إنارة، كانت درجات الحرارة منخفضة بالفعل وبدا هذا واضحاً مع خروج البخار من أفواههما عند الزفير.. ليتمتم آدم:

- الجو بارد... لن نبقى كثيراً.

- تكره البرد؟.

- أووووووه... كثيراً... لا أحب الثلوج.

- حقاً... يبدو أننا مختلفان في أمور عدة وأنا لا أعلم .. وماذا أيضاً؟.. ماذا تكره أيضاً؟!!

بدت بسمة حزينة على شفتيه ليقول:

- فلأخبرك ماذا أحب؟!..

استند بظهره على مسند المقعد متطلعاً للسماء المظلمة:

- أحب السماء الصافية... حيث تتوسطها شمس مبهجة لتعكس آشعاتها على سطح البحر... حين أسبح أحب أن أخترق الأمواج بدلاً من تفاديها... أرفع بصري وأنظر للشمس غير مبالياً بتلك البقع التي تراه عيني بعد تلك النظرة الطويلة.. أحب أن أستلقي على الرمال وأشعر بها تبتلعني عند انحصار الموج عنها... أحب كل ما هو متعلق بالبحر وشاطئه...

تأملته بحب هامسة:

- يبدو هذا جميلاً.

أومأ برأسه:

- إنه كذلك.

ظل بصرها معلق بوجهه، شعر هو بذلك لكنه فضل أن يبقى بصره بعيداً... ربما لا يريد لها أن ترى ما تحمله عيناه من قلق وحزن لما هو آت..

وقف قائلاً:

- هيا بنا.. حنين... الجو يزداد برودة فعلاً.

وقبل أن تتحرك فوجئت بتساقط الثلوج فضحكت وهي تنظر للسماء:

- يا الهي لم تثلج منذ فترة... هذا رائع.

مط آدم شفتيه قائلاً:

- ما الرائع في هذا؟!... ستكون القيادة صعبة الآن... ما كان يجب أن نتوقف.

ضربت كتفه قائلة:

- لا تكن سخيفاً.

ركضت فجأة وهي ترفع ذراعيها على امتدادهما، فصاح أدم:

- حنين.. ماذا تفعلين؟.. كفِ عن التصرف كالأطفال.

توقفت لتلتفت له:

- ما أروع التصرف كالأطفال.. ألم تجرب العدو أثناء تساقط الثلوج.

هز رأسه بالنفي:

- لا .... ولا أريد... هيا بنا.. الجو حقاً يزداد برودة.

قالها والتفت ليعود للسيارة كي يجبرها على اللحاق به، لوت شفتيها وهي ترمقه يبتعد...

كانت ترغب بمعاندته لكنها تعلم أنه لن يعود...

فزفرت بيأس لتتبعه... لكنها شهقت حين شعرت بأحدهم يجذبها من الخلف لتصدم عيناها بعينين خضراوين.. تحمل نظرة غير مريحة إطلاقاً... فصرخت:

- آدم!!

من الواضح من صوتها الذي اخترق أذنه أنه لم يكن نداء طبيعي.. التفت بكل جوارحه ليعدو ناحيتها لكنه تسمر مكانه لرؤيته لها محتجزة بين ذراعي رجل ما وقد صوب مسدسه إلى رأسها.

كانت ترتعش وهي تنظر نحوه مرددة:

- آدم.. آدم!!

أراد الإقتراب أكثر لكن صوت الرجل أوقفه:

- لا تقترب... إذا أردت أن تبقى حيا.

عقد حاجبيه وهو يذكر أين سمع ذلك الصوت من قبل..

كان تساقط الثلوج مستمراً بل ويزداد مما جعل رؤية ملامح هذا الشخص صعبة.. ثبت مكانه ليتنفس بهدوء محاولاً تحليل الموقف سريعاً... هل هذا مجرد لص مثلاً يريد سرقتهما؟؟.. أم أنه شخص ممن يتوقع أنهم سيطاردون حنين؟؟

أما حنين فحاولت الإفلات من هذا الشخص قائلة:

- ابتعد عني... ماذا تريد؟؟!

شعر آدم بالقلق من ردة فعلها فقال:

- اهدئي حنين... لا تخافي.

ثبتت بصرها عليه بحثاً عن الأمان ليقول:

- ماذا تريد؟!

لم يرى بسمة السخرية التي ارتسمت على شفتيه وهو يقول:

- أريد... أريد ما تريد؟!... ألست أنت أيضاً تريد؟!!

خفق قلب آدم داخل صدره وقد تأكد له حدسه الثاني.. أنه منهم بكل تأكيد، أما حنين فبدت مندهشة مما سمعت، لتقول:

- ماذا تقول يا هذا؟!..

همس في أذنها:

- اهدئي... أنتِ لم تسمعي شيء بعد... فلدي الكثير.

ابتعلت ريقها وقد زاد خوفها من أن تكون بين ذراعي رجل مجنون فعادت بنظرها لآدم الذي ظل على حاله يفكر في الطريقة التي يخرج بها من هذا المأزق دون تعرض حنين للخطر.

وصل له صوت الرجل وهو يقول:

- ألم تعرفني بعد؟!...

عقد آدم حاجبيه وعقله يسترجع تلك النبرة مجدداً... يذكر الآن أين سمعها..أنه هو.. نفس الوغد الذي انتظر لقاءه ثانية.... وأقسم أن ينتهي هذا اللقاء بموته وأخذ ثأر أحمد...

لكنه يمسك بحنين بين ذراعيه... هل هذا موقف الضعف الذي كان يتحدث عنه باسم؟...

ولكن حتى إن لم يكن لديه مشاعر لحنين هل سيجعلها تدفع حياتها ثمناً لما يريد؟...

لن يضحي بامرأة...

سواء أحبها أو كرهها..

لن يضحي بامرأة قط...

ولكنه أيضاً لن يتنازل عن ثأر أحمد...

سيقتل هذا الحقير.. لا محالة...

المهم الآن كيف يصل لسلاحه ويطلق النار في وقت أقصر مما قد يفعله هو...

وهذا ما يعد ضربا من الخيال في الوضع الذي هو فيه الآن.

أردف ستيف قائلاً:

- لا يهم... دعنا نتعرف عليك أولاً ...هل تعرفين هذا الشخص آنستي؟!

فردت حنين :

- بالطبع أعرفه... ماذا تريد منا بالضبط؟...

- هل أنتِ واثقة؟!... أشك في أنكِ تعرفينه.. يكفي أن أسمعك تناديه باسم آدم... لأعلم أنكِ لا تعرفيه.

انتقلت ببصرها لآدم الذي ظل متسمراً مكانه لتقول:

- آدم هل تعرف هذا الشخص؟... ما الذي يحدث هنا؟!!

بقاء آدم كما هو دون رد أشعرها بأن هذا الرجل يعرف جيداً ما يفعل فرددت بيأس:

- آدم.. آدم!!

ضحك الرجل ضحكة عاليه:

- آدم... من قال لكِ أن اسمه آدم؟!.. هل حقاً اسمك آدم؟!!

قالها وهو يرمق آدم بسخرية بينما التزم الأخير بالصمت وقد وضع كل تركيزه في الطريقة التي تخرجه من هذا المأزق...

هو يعلم أن كلام هذا الرجل لن يتوقف عند هذا الحد... وأنه سيخبر حنين بالكثير...

وعليه الآن أن يتعامل معه ومع رد فعل حنين كذلك.

وصل لحنين صوت الرجل كفحيح الثعابين وهو يهمس:

- استعدي لأكبر مفاجآت حياتك.

رفع رأسه محدقاً بآدم وقد علا صوته:

- هذا الرجل ليس آدم... بل اسمه آسر.. الرائد آسر سراج... واحذري ماذا؟!!...

عقدت حنين حاجبيها وهي تحدق بآدم... تبحث في ملامحه على أي نكران لما يردده هذا المعتوه...

بينما لم يستطع آدم أن يحكم ضربات قلبه التي تعالت بشكل مفاجيء.. فالحقيقة التي من المفترض أنه هو من كان سيحملها لحنين... ستسمعها من آخر شخص تمنى أن تلتقي به.. ودون أن يشعر رفع بصره عن وجه عدوه وتعلق بملامح حنين المرتعبة والمندهشة أيضاً..

ليصل لأذانهما كلمات ستيف..

- الرائد آسر يعمل كضابط مخابرت في مكافحة الجاسوسية... وهدفه... كان القبض على.... الجاسوس.... رفقي ميلاد!!

اخترقت كلماته أذن حنين لتتسع عيناها وهي تحدق بوجه آدم الصارم... والذي حملت عيناه نظرة لم ترها من قبل... لقد كان غاضباً... حانقاً.. وهادئاً جداً.

ظلت تحدق بوجهه وكأنها تبحث عن وجه آدم المعتاد..

لكن.. مهلاً..

أنه آدم بالفعل.. نعم هذا هو آدم نفس الملامح... نفس الهيئة.. ما الذي يهذي به هذا الأحمق؟!.. جاسوس... مخابرات!!

رددت دون وعي:

- أنت تكذب!!.. تكذب!!

حاولت التملص منه مجدداً لكنه ضغط على رقبتها بقوة أكبر لتتوقف عن ذلك في الحال خشية الاختناق... ليعتصر آدم قبتضيه وهو يرى إمارات الألم على وجهها.

ليضحك ستيف بسخرية مردداً:

- أكذب!!... أليس من الأفضل أن يصرخ بها هو... ألا ترين أنه لا يعترض.. لعله يخشى ما سأقوله وليس ما قلته.

منح آدم نظرة ماكرة مضيفاً:

- فأنا لم أخبرك بالجزء الأ روع بعد... فهذا الرجل الذي يقف أمامك.. وبعد مطاردة ليست بالقصيرة... تسبب في سقوط رفقي من أعلى الجرف وموته... ليأتي إليكِ باحثاً عما لم يجده مع أبيكِ.

اتسعت عينا حنين بفزع وهي تهز رأسها ببطء لتعيد الكلمة الوحيدة التي لا تردد سواها:

- كاذب... كاذب.

صمت أذنيها ضحكته العالية:

- أيتها الغبية... هل حقاً أنا أكذب؟.. لمَ لا تسأليه إذاً؟.. هل أنا أكذب... آسر.. هيا أخبرها الحقيقة؟!

لم يعد همه أن يُكذب ما قيل... فالحقيقة اختلطت بالباطل.. ولا يوجد وقت لتوضيح الأمور... لذا وجه تركيزه لدراسة الوضع...

شعر بالضيق من نفسه لأنه سقط في هذا الفخ مجدداً...

نفس الموقف تقريباً...

ستيف يقف على مسافة بعيدة نسبياً لا تسمح له بالقفز نحوه دون التعرض لخطر إطلاق النار.. الجديد هذه المرة أن حنين تقف بينهما مما يصعب الأمر أكثر.

أراد التحرك خطوة أنتبه لها ستيف فألصق فوهة مسدسه أكثر برأس حنين قائلاً:

- آه..آه.. ما الذي تحاول فعله؟!.. ألا تشعر بالخوف؟ سأقتلها قبل أن تصل إليّ بكثير.. أووه.. لقد نسيت.. فأنت ماهر في استخدام أحبائك كدروع بشرية... جعلت رفيقك يموت بدلاً منك.. وهذه المرة تتوقع من تلك الغبية أن تفعل المثل وتحميك بجسدها من رصاصاتي... أليس كذلك؟!.... كم أشعر بالشفقة على كل من يحبك؟!!... فحياتهم تنتهي دوماً أسفل قدميك.

انتفضت عروق آدم في رقبته وصك أسنانه تحت شفتيه حتى أنها ألمته... وقد اعتصر قبضته أكثر فأكثر..

بينما لا زالت حنين تريد استيعاب ما يحدث حولها ، فصمت آدم يكاد أن يصيبها بالجنون.. وكلمات هذا الرجل غير مفهومة..

أبيها لا يمكن أن يتجسس على وطنه هي واثقة من هذا كثقتها بنفسها... هو يكذب بشأن أبيها وبالتالي يكذب بشأن آدم...

لكن لمَ آدم صامتاً هكذا؟!

وأخيراً فتح آدم شفتيه ليقول بصوت قاسي:

-أعلم جيداً أنك لن تقتلها... لأنك تريدها حية بقدر ما أريدها... لأنك لن تصل لما تبغيه إذا قتلتها الآن.. لهذا أنا لست قلقاً عليها مطلقاً.

تقطع تنفس حنين وهي ترمق آدم بدهشة وهو يكمل:

-الذي عليه أن يقلق هو أنت!!

ارتسمت بسمة ماكرة على شفتي ستيف قائلاً:

-لا يجب أن أستهين بذكائك... ولكن عليك أنت أيضاً ألا تستهين بي... فإن كانت هي مهمة لنا... فأنت لا..

قال كلمته الأخيرة ليحول فوهة مسدسه عن رأس حنين لصدر آدم...

هوة ما تتسع داخل صدر حنين...

وصوت يريد اقناعها بان ما يحدث مجرد كابوس...

وأن كلا هذين الرجلين يهذي... فآدم هو آدم..

ولكن هل هذا هو آدم فعلاً؟!

لمَ يبدو مختلفاً؟!..

عينيه تبدو أكثر قسوة... صوته شديد الصرامة.. ملامح وجهه بادت جامدة..

خرجت حروف اسمه من بين شفتيها باهتة.. وغير مسموعة.. وعيناها تبحث عنه في قسمات وجهه.

شيء واحد أخرجها من هذيانها... جملة الرجل الأخيرة والتي وصل مفهومها جيداً لها...

وأكدتها حركة ذراعه بتحويل السلاح عن رأسها...

ليتوجه لصدر آدم.. وبدون ذرة تفكير... رفعت كفها تدفع ذلك الذراع بعيداً ونجحت في ذلك قبل أن تنطلق الرصاصة لكن هذا لم يمنع ستيف من ضغط الزناد....

فاتسعت عيناها في ذهول حين وجدت أنه برغم ما فعلت أن جسد آدم ارتطم بالأرض واختلطت دمائه بالثلوج البيضاء...

لتصرخ باسمه بلوعة:

-آداااااااام.

ابعاد حنين عن الخطر كان شغله الشاغل...

شيء ما يطمئنه أنها ليست هدفه الآن..

هو يريدها حية كي يصل لمبتغاه...

فالخطر محدق به هو..

لكن إلصاقه لفوهة المسدس برأس حنين يربكه..

لذا عليه أن يجبره على توجيه هذا المسدس له هو..

المهم أن ينجح في التحرك في الوقت المناسب والسرعة المناسبة كي يخرج سلاحه المخفي بين طيات ثيابه ويبتعد عن مرمى النيران في الوقت ذاته...

فاستفز ستيف بكلماته وما أن شعر بحركة يده حتى وضع خطته حيز التنفيذ ليقفز جانباً وفي نفس الوقت يحاول أن يستل مسدسه..

ليسمع صوت طلقات النار..

ويشعر بشيء ما يخترق جسده ويدفعه أرضاً..

عقد حاجبيه وقد بدأ يشعر بوخزة...

لقد اخترقت الرصاصة جسده بالفعل...

لكن كيف؟!...

المفترض أنه قفز على جانب آخر كيف توجهت الرصاصة له قبل حتى أن ينجح في تصويب مسدسه هو...

استكان مكانه وصوت صراخ حنين باسمه يتردد عالياً أما ستيف فقال:

-أحسنتِ التصرف.. لولا تدخلك وإطاحة يدي جانباً ما كانت الرصاصة لتصيبه!... رائع.. لقد انتقمتِ لأبيكِ بشكل جيد.

استمر صراخ حنين وهي تدفع ستيف عنها للوصول لآدم الذي سكن تماماً ولم يكن وجهه مرئياً لها..

إلا أن ستيف تعلق بذراعيها وهو يجذبها نحوه بقوة:

-أنتِ أيتها المعتوهة... ألم تسمعي كلمة مما قلت؟.. هذا الوغد قتل أباكِ... كان هدفه الوحيد منكِ هو الوصول لما أخذه أبوكِ منهم.. أنتِ كنتِ مجرد جسر.. وسيلة ليس إلا.. أفيقي.. واعرفي من عدوك.

تحجرت دموعها في مقلتيها وهي تحدق به بعدم تصديق كانت شفتاها ترتجف وهي تردد:

- أنت تكذب... أبي ليس خائن.. وآدم ليس كاذب.

زفر ستيف بحنق:

- يالنساء وغبائهن!... اسمه ليس آدم... ليس آدم.

"ستيف"

وصل لهما النداء الذي ارتجف له قلب حنين، ليلتفتا وفي نفس اللحظة انطلقت رصاصة أخرى لتخترق رأس ستيف وتفجرت الدماء في وجه حنين التي عادت لصراخها الهستيري..

وهي تمسح الدماء التي تناثرت على وجهها...

ويسقط ستيف جثة هامدة.

أخفض آدم سلاحه وهو يتنفس بسرعة ما قائلاً:

- وأخيراً أحمد.. ارقد بسلام يا صديقي لقد أخذت بثأرك.

كان لا يزال على الارض لكن في وضع شبه جالس.. فألقى بجسده ليستلقي على الأرض مجدداً وهو يضغط على جرحه النازف، ليلتفت إلى حنين التي لا زالت تصرخ فناداها بما تبقى له من قوة:

- حنين... حنين...

ظل يناديها حتى انتبهت له ولما حولها...

سقطت على ركبتيها وجسدها بالكامل ينتفض.. فرفع كفه ناحيتها قائلاً:

- تعالي حنين... اقتربي... امسكي يدي.

زحفت إليه حتى وصلت له لتمسك بكفه وتضغطها بقوة فقبضها بدوره لكن بضعف وهو يردد:

- ابق معي.. أحدهم سيأتي لمساعدتنا.. لا تتركي كفي حنين.

مالت ناحيته تنتحب قائلة:

- أنت.. آدم؟... صحيح... آدم؟.

ابتلع ريقه بصعوبة وقد أغلق عينيه:

- نعم... أنا آدم..

بدت بسمة مضطربة على شفتيها لكنها انزوت سريعاً حين أتبع جملته قائلاً:

- سامحيني.. سامحيني.

ليصمت بعدها غائباً عن الوعي، هزت كتفيه قائلة:

- ماذا تقصد؟!... ماذا تعني؟... آدم... لا تذهب... آدم..

وضعت كفها على الجرح الذي لا زال ينزف وهي تتلفت حولها باحثة عن النجدة التي تحدث عنها لكن لم يظهر أحد بعد.

فزادت شهقاتها ثانية وهي تنادي متعلقة بكفه أكثر وأكثر:

- فليساعدنا أحد... النجدة... ساعدونا!!!.

****

قفز باسم إلى سيارته منطلقاً بها وقد تم تحديد وجهته مسبقاً...

"سيد باسم... جاءت لنا إشارة طواريء من جهاز الرائد آسر... في منطقة قرب الغابة... سنرسل لك الإحداثيات حالاً"

"آسر.. ماذا حدث؟.. ماذا حدث؟!!"

رددها بقلق بالغ..

فإشارة الطواريء تلك لا ترسل إلا في حالة الخطف أو الاصابة..

فأيهما تعرض له آسر.

اقترب من مكان الإحداثيات وانتبه إلى السيارة التي كان يقودها آسر ليتوقف بجانبها وهرع من سيارته باحثاً بعينيه في المكان..

كانت الرؤية مشوشة لزيادة هطول الثلوج.. لكنه استطاع أن يلمح كومة ما لشخصين على ما يبدو..

فاندفع ناحيتهما لكنه كاد أن يتعثر في جسم ما...

لينتبه إلى جثة هامدة متأثرة بثقب دموي بالرأس...

أصابه الفزع ليميل أكثر مستوضحاً وجهه لكنه اطمئن حين تأكد أنه ليس آسر..

فاتجه للشخصين لتتضح له الرؤية...

كان آسر مستلقي على الأرض بينما حنين تحتضن ذراعه...

وتنتحب..

أسرع نحوهما ليجد بقعة دماء كبيرة أسفل جانبه الأيمن...

فمال إليه فانتفضت حنين حين شعرت به مرددة:

- من أنت؟.. ماذا تريد؟!

أشار إليها أن تهدأ:

- اهدئي.. أنا هنا للمساعدة..

وضع سبابته والوسطى على رقبة آسر ليتأكد من نبضه الذي بدا ضعيفاً جداً:

- يا الهي.. هيا بنا بسرعة.

قام بحمله إلا أن كفه كانت متعلقة بكف حنين فصاح بها:

- اتركيه.

هزت رأسها بقوة:

- كلا... طلب مني ألا أتركه.

حدق بها ثم قال:

- تحركي معنا اذاً... أسرعي.

تحركت معه كي تسهل عليه حمل آدم ووضعه بالسيارة ليرقده في المقعد الخلفي وتدخل حنين معه لتريح رأسه على فخذيها.. ليضع باسم قطعة قماش نظيفة على الجرح آمراً إياها ان تضغطها بقوة...

فعلت في الحال ليسرع باسم جالساً أمام عجلة القيادة منطلقاً بها وهو يردد:

- تماسك آسر... تماسك يا صديقي.

كان صوته أقرب للهمس لكن حنين استطاعت تمييز الاسم الذي أطلقه على آدم..

"آسر"

رددتها وهي ترمق باسم الذي نظر لها عبر المرآة الأمامية دون تعليق وهو يمسك بهاتفه متصلاً:

- أرسلوا الطبيب ديك إلى بيت الغابة في الحال... لدي أصابة بطلق ناري... ونزيف حاد... حسناً... أسرعوا.

ألقى بالهاتف جانباً ليرفع بصره إلى المرآة الأمامية ليرى حنين تحدق بوجه آسر الشاحب وقد تجمدت العبرات في عينيها وتوقف انتحابها.

تعلق بصرها بملامح وجهه التي أغرقها الاجهاد جراء النزيف...

أليس هذا نفس وجه آدم؟!..

آدم الذي تعرفه... الذي تحبه... الذي شعرت أنه جاء لها كسلوان لفقدها لأبيها...

واستطاع بالفعل أن يعيد لقلبها الدفء.. ولروحها الامان.

فمن آسر هذا الذي يتحدثون عنه؟!!!

لتقفز كلمات ستيف الى رأسها...

"الرائد آسر سراج... ضابط مخابرات... الجاسوس رفقي ميلاد.... تسبب في سقوطه من أعلى الجرف..."

سرت قشعريرة باردة في أطرافها... لتجذب يدها من كفه التي كانت تحضن أناملها باصرار...

ضمت كفيها لصدرها وللحظة شعرت وكأنها تهوي من مكان عالٍ لا قرار له.

لم يلتفت باسم لها ثانية...

فقط انتبه لطريقه حتى وصل لوجهته...

ترجل من السيارة ليفتح الباب الخلفي قائلاً:

- تحركي معي.

لكنه ثبت مكانه ليرمقها لبرهة حين لاحظ أنها حررت كف آسر من يديها.. وهي تنظر للاشيء ودمعة متعلقه بأهدابها..

سحب آسر برفق ليحمله قائلاً لها:

- هيا اتبعيني.

بدا وكأنها لم تسمعه..

تحرك مسرعاً ليدلف لمنزل خشبي أنيق يبدو أنه مكون من عدة غرف.. كانت الأضواء مطفئة لينيرها فور دخوله... ويدخل إحدى الغرف ليرقد آسر على الفراش بحذر...

نظر خلفه فلم يرى أثر لحنين... عاد للخروج ليجدها كما تركها...

زفر وهو يرمقها من مكانه.

كل شيء فقد هويته.. معناه.. أهميته.. لا تشعر أن لديها أي طاقة حتى لتحرك أناملها لتزيح عن أهدابها تلك الدمعات التي تصر على الاستقرار حيث هي...

حتي تنفسها بدا مجهوداً لا طائل منه...

عقلها يسبح في فراغ لا حدود له... وظلام لا نور فيه...

بدت كمن يشعر بالتيه ويتمنى أن يتشبث بأي حافة ليقف عليها.

لا شيء..

ملخص لكل ما يجول في عقلها حالياً.

شعرت بمن يقترب منها فلم تحاول التخمين لتسمع صوته يأتيها من بئر عميق.

- الجو بارد هنا.. هيا لتدخلي.

لم تحرك قيد أنملة... بدت كجسد فقد أي معالم للحياة...

لوحة صامتة لوجه قد اكتسب برودة كصقيع الثلوج.

مال وهو يمد يده نحوها تصورأنها ستنتفض... ستفيق من غيبوبتها تلك.. لكنها تحركت معه بيسر، ليدخلها المنزل ثم يجلسها على أريكة صغيرة في مواجهة الغرفة التي يرقد بها آسر.

أراد الذهاب لآسر لكنه سمع صوت محرك سيارة يقترب..

أسرع للخارج ليجد سيارة تتوقف بالفعل ويهبط منها رجل في منتصف العقد الخامس فأشار له:

- هنا دكتور.. هنا.

سحب الطبيب حقيبته وأسرع خلف باسم ليصل لآسر الراقد مكانه والذي زاد شحوب وجهه بسبب الدماء التي فقدها...

ليبدأ عمله في الحال.

استمر عمل الطبيب لما يقارب الساعة... ليخرج بعدها من الغرفة فيسرع له باسم قائلاً:

- كيف حاله؟!

- ليس بحال جيد.. لكنه أفضل مما توقعت.. استلقائه على الثلوج لفترة أفادنا كثيراً في الحد من النزيف وإلا لاحتاجنا إلى نقل الدم له... والجيد في الأمر أن كبده لم يتضرر فلقد مرت الرصاصة بجواره تقريباً ولولا هذا ما بقي على قيد الحياة... سأبقى معه حتى شروق الشمس... ونرجو ألا تدهور الحالة.

أومأ باسم له قائلاً:

- شكراً دكتور...

لاحت من الطبيب التفاتة تجاه حنين ورأى الدماء التي على ملابسها ليسأل:

- هل هي بخير؟!

- نعم.. هذه ليست دمائها.

- لمَ تبدو وكأنها..؟..

أكمل له باسم:

- في حالة صدمة تقريباً... كانت حاضرة لحادث إطلاق النار.. وهو شيء تراه للمرة الأولى...

هل يمكنك مساعدتها؟!

اقترب منها ليثني ركبتيه وينظر لوجهها مباشرة... رأى عينين خاويتين.. لا تحمل أي إشارة لوعي صاحبتهما...

لوح بكفه أمامها مردداً:

- آنسة.. هل أنتِ بخير؟!!

لم تبدي أي رد.. فالتفت لباسم قائلاً:

- أحضر لي ماءً بارداً.

عاد باسم سريعا بكوب من الماء البارد فأخذه منه وقذفه في وجهها بقوة، انتفضت وقد اتسعت عيناها عن أخرها ومقلتيها تدوران فيهما بعشوائية.. كمن تستوعب للتو أين هي.

عقد باسم حاجبيه وهو يرمقها بترقب.. منتظراً رد فعلها التالي والذي لن يكون هيناً قط... هكذا يعتقد.

بدأت مقلتيها تثبت أكثر وهي تنتقل بين ملامح رجلين لا تعرفهما، لكنها تذكرت أحدهما... أنه من صحبها مع آدم في السيارة...

آدم... لا... ليس آدم.. لقد ناداه آسر..

عاد صوت ذلك الرجل لرأسها وهو يخبرها عن الرائد آسر الذي طارد رفقي لاتهامة بالجاسوسية...

هزت رأسها بعنف وكأنها تمنعها من الاسترسال أكثر...

اقترب منها الطبيب قائلاً برفق:

- هل أنتِ بخير آنستي؟!!

رمقته بشك لتقول:

- من أنت؟!

- أنا الطبيب المعالج.. هل أنتِ بخير؟!!

أومأت برأسها ومنحت باسم نظرة جانبية متوترة قبل أن تقول:

أ هل يمكنك أن تخرجني من هنا؟!... أنا لا أعرف هؤلاء الناس.. ألست هولندي؟... ساعدني أرجوك.

زم باسم شفتيه بينما ارتسمت الدهشة على ملامح الطبيب الذي التفت لباسم فأشار لغرفة آسر قائلاً:

- أرجو أن تتفقده سيدي.

- حسناً.

ما أن تحرك الرجل حتى تعلقت حنين بذراعه صارخة:

- سيدي أرجوك ساعدني.. أخرجني من هنا... لا أعرف هؤلاء الناس ولا ماذا يريدون مني... أرجوك ساعدني!.

بدت كمن فقدت السيطرة على أعصابها ثانية حتى أنها ألمت الرجل بتعلقها به فأسرع باسم نحوهما ليحرره منها قائلاً:

- لا عليك دكتور... سأتولى أمرها.

جذبها باسم بقوة وحزم إلا أنها لوحت بذراعيها في كل مكان وهي لا زالت تصيح:

- ابتعد عني... ماذا تريدون مني؟... اتركني أيها الوغد؟!

دفعها باسم لغرفة أخرى وأغلق الباب عليها جيداً ليصل له ضربات قبضتيها على الباب وهي تأمره بإخراجها.

تركها ليعود للطبيب الذي راقب ما حدث قائلاً:

- تفقده أرجوك.

رمقه الطبيب للحظات...هو يعلم جيداً أن ليس له الحق أن يسأل أو يستفسر عن أي شيء... لكنه على الأقل يعرف مع من يعمل وهم ليسوا من الأشخاص الذي يتصرفون بدناءة مع النساء لذا قرر أن يترك أمر تلك الفتاة ويعود لمتابعة حالة مريضه.

تتالت ضرباتها على الباب حتى آلمتها قبضتيها...

كانت تصيح وتبكي وتصرخ.. دون مجيب...

خارت قواها تماماً فسقطت على ركبتيها لتستند بجبهتها على الباب وهي تردد بصوت مبحوح:

- أخرجني من هنا...

ودون وعي منها ضربت بجبهتها الباب عدة مرات قائلة:

- آدم.. لا تذهب.. أين أنت؟.. آدم عُد إليّ..؟!

ألقت بجسدها ارضاً... ضمت ركبتيها إلى صدرها بكلتا ذراعيها حتى كادت تدفن وجهها بين ركبتيها...

شعرت بالبرد الشديد...

عادت البرودة التي انتابتها فور فقد أبيها..

عادت لها بقوة أكبر... وبتأثير أكثر إيلاماً...

برودة نابعة من قلبها وتسري في سائر جسدها.. ضمت نفسها أكثر وأكثر أملاً في تدفئة نفسها..دون جدوى...

فتعالى نحيبها من جديد وزادت ارتعاشت شفتيها....

لتصرخ بآخر ما تبقى لها من قوة....

"لاااااا"

****

شعر باسم بمن يربت على كتفه ، انتفض محدقاً بالطبيب الذي ابتسم قائلاً:

- اهدأ.. هذا أنا.. لقد أشرقت الشمس وعليّ أن أذهب.

وقف باسم ليفرك رقبته:

- لقد غفوت... كيف حاله؟

- مستقرة... هناك ارتفاع طفيف في درجة الحرارة... استمر في اعطائه هذا الدواء كل ٦ ساعات... لو زادت درجة الحرارة ولم تنخفض على الإطلاق اتصل بي... ولكني أعتقد أنه سيكون بخير.

أومأ باسم برأسه:

- حسناً... شكراً لك.. جميع التكاليف ستجدها في حسابك.

- جيد.. أعلم أنكم لا تتأخرون.

حمل حقيبته مغادراً، ليدلف باسم لغرفة آسر مقترباً منه لينظر لوجهه الهادىء الذي لايزال شاحباً...

ويمسك بكفه هامساً:

- حمدلله على سلامتك يا صديقي.

جلس على المقعد المقابل له، وهو يعيد ترتيب كل شيء...

الجيد حتى الآن أن الفتاة معهم كما كان مخططاً...

المشكلة الآن كيف يمكن اقناعها بمساعدتهم..

هو لا يعرف ما الذي حدث وما الذي عرفته عن آسر لكن حالة الانهيار التي كانت فيها لا تبشر بخير...

وعليهم الحيطة من تحركات الآخرين.. فموت رجلهم على يد آسر يجعلهم أكثر غضباً وعنفاً.

****

فتحت عينيها بتألم.. لتلتقي مباشرة مع ضوء الشمس الذي سقط على وجهها...

أغلقت عيناها ثانية.. لتدير وجهها بعيداً هامسة:

- منذ متى تضرب الشمس وجهي حين أستيقظ؟!!

أعادت فتح عيناها ليقع بصرها على جُدر خشبية تحيطها من كل جانب.. لتنتبه أنها ليست على فراشها الوثير بل على أرضية خشبية باردة... ضاقت عيناها وهي تحاول تذكر كيف انتهى بها الأمر هنا.

اعتدلت ببطء حتى جلست.. مدت أناملها تلامس قلب فضي متعلق بسلسلة رفيع تحيط عنقها.. وكلماته تتردد في عقلها...

"إنه قلبي.. فابقيه بجوار قلبك"

اعتصرت القلب الصغير في قبضتها...

وبدأ جسدها بالانتفاض لتعود لعينيها العبرات مجدداً...

وسرعان ما تنتحب شاهقة:

- كاذب... كاذب... كيف أمكنك أن تفعل هذا بي؟... أي نوع من البشر أنتم؟!!

هزت رأسها بعنف:

- كفي عن البكاء أيتها الغبية... أنه لا يستحق... لا يستحق.

طرقات على الباب جعلتها تلتفت نحوه بعنف وبعينين غاضبة لتقف رغم ألم جسدها من قضاء ليلتها على الأرض..

ومسحت دموعها عن وجهها بقسوة.. وضربت الباب بقوة صارخة:

- أخرجني من هنا أيها الحقير.

جاءها صوت باسم الهادىء:

- يبدو أن حالتك لم تتحسن كثيراً... لذا لن أفتح الآن... لكنني لن أصبر عليكِ كثيراً أيضاً.. يجب أن ننتهي سريعاً... ولكن أولاً.. هل أكلتِ ما احضرته لكِ أمس.. كنت في حاله سيئة ولم تستجيبي لندائي.

لاحت منها التفاته لتلاحظ .. صينية تحمل فوقها شطيرة ما.. وكوب من العصير.. وآخر من الماء.

ردت بغضب:

- لا أريد شيئاً منكم.. أخرجني من هنا.

- سأفعل لكن أخبريني... ماذا عرفتِ عن آدم؟!!

بدت ضحكة عصبية وساخرة وهي تجيب:

- آدم... من آدم؟!.. آدم مات.

عقد باسم حاجبيه ليفتح الباب ناظراً لعينين مليئة بالعبرات والشرر الغاضب ليرمقها للحظات قائلاً:

- على العكس.. آدم لا زال حياً.

- آدم الذي أعرفه مات.

قالتها بإصرار، فالتفت باسم ناحية غرفة آسر قائلاً:

- حسناً.. آدم الذي أعرفه أنا.. لم يمت..

ثم عاد ببصره لها قائلاً:

- والآن أخبريني... ماذا سمعتِ عن الرجل الراقد في تلك الغرفة؟!

حاولت التماسك أكثر وهي تقول:

- أخبرني أنت.. من هذا الرجل الراقد في تلك الغرفة؟.. ومن أنت؟ وما شأنكما بي؟!! ولماذا تحتجزونني هنا؟!

- من الأفضل أن نجلس.

قالها مشيراً لمائدة صغيرة يحيطها مقعدان لتتحرك حنين خارج الغرفة ليجلسان ليبدأ باسم بالكلام قائلاً:

- كان المفترض أن تسمعي تلك الكلمات من آدم...

قاطعته قائلة:

- كف عن ذكر هذا الاسم... أرجو أن تتحدث عنه باسمه الحقيقي.

مط باسم شفتيه قائلا:

- حسناً... سأتولى بدلاً من آسر اخبارك بالأمر... ودعينا نبدأ من البداية... من عند رفقي ميلاد...

ارتجاف كفيها أجبارها على ضمهما بقوة معتصرة قبضتها.. لتستمع لباسم الذي أردف:

- رجل بسيط... عادي.. لا يهتم إلا بعمله وابنته الوحيدة... لم يكن موضع اهتمامنا.. برغم كونه من أفضل مخترقي المواقع الأمنية... لكن عمله لم يتعدى العمل ضمن شركات الأمن الخاصة ووضع الشفرات اللازمة للحماية.. ولم يحدث أن اخترق أي مواقع أمنية لدول أخرى... لكنه وبدون سابق إنذار قام باختراق إحدى المواقع لدولة ما... لحساب مافيا الجاسوسية... وتم التحقيق في الأمر حيناها... ووصل لنا أنه أحد المشتبه بهم... ولم نصدق هذا.. ولكن لم يمنعنا هذا من البحث والتأكد.. ففي النهاية هو من موطننا... ولم تكن معرفة قصته صعبة... لكننا تفاجأنا حين علمنا أنه يقوم بتنقلات لم يكن معتاد عليها قط... ولم نسجلها له أبداً... ثم حدثت الخطوة التالية.. اختراق مواقع أمنية خاصة بنا نحن... وتمت سرقة العديد من الوثائق الهامة... وثائق تهدد أمننا القومي إذا ما سقطت في يد الأعداء.. ونظراً لأن العملية متشابهة تماماً مع سابقتها.. اتجهت أبصارنا على الفور لنفس المشتبه بهم... لتصل لنا معلومات فحواها أن المشتبه الوحيد هذه المرة هو "رفقي ميلاد".

صاحت حنين:

- هذا ليس صحيحاً.. أبي ما كان ليفعل هذا قط... أنتم مخطؤون.. بالتأكيد هناك لبس ما.

- تمنيت لو كان هذا حقيقي... فأكثر ما يغضبني أن تأتي الخيانة من أبناء بلدي.

أ اصمت.. أبي ليس خائن.

صرخت به ليقول باسم:

- اهدئي.. ودعيني أكمل... وصل لنا من مصدر موثوق.. أن رفقي سيلتقي أحد أعضاء رجال المافيا لمنحة بطاقة ذاكرة فيها وثائقنا.. وهنا تم تكليفي مع الرائد آسر والملازم أحمد لإلقاء القبض على رفقي أثناء التسليم واستعادة البطاقة.. وتم مراقبة رفقي لعدة أيام قبل موعد التسليم... وفي اليوم السابق لهذا الموعد بالتحديد.. كان أحمد هو من يتولى مراقبة رفقي... ليفاجئ به متجه نحوه ببساطة.. ليخبره أنه يعرف من هو.. وأنه يراقبه... وادعى أنه فعل ما فعل اضطراراً.. ويتمنى أن يسلم نفسه وأن نساعده على الخروج من هذا المأزق الذي قد يعرض حياته وحياة ابنته الوحيدة للخطر...

ارتجفت شفتا حنين التي بدأت تشعر بصدق ما تسمع، ليكمل باسم:

- وللأسف صدقناه فتاريخه قبل تلك الواقعتين نظيف.. فقدرنا أنه ربما تم الضغط عليه أو إبتزازه لذا فهو مجبر ويحتاج حمايتنا.. التقينا به.. وقال أنه سيساعدنا على القبض على الرجل الذي سيسلمه البطاقة ويسلمنا إياها... وفي يوم التسليم.. لم نرَ رفقي.. لم نرى غير مجموعة مسلحة حاصرت آسر وأحمد... بينما كنت أراقب من بعيد.. فأسرعت لطلب المساعدة لكننا فقدنا أحمد... قُتل بسبب خدعة رفقي.

هزت حنين رأسها وعادت لرفض ما تسمع لكن كلمات ستيف تشبه تلك الكلمات كثيراً... أذاً هو كان يقول الحقيقة...

إذاً هذا الضابط قتل أباها حقاً..

امتلأت عينها بالدموع وهي تردد:

- لهذا قتله... أراد الإنتقام لرفيقكما.

ظن باسم أنها تتحدث عن ستيف فأجاب:

- آسر أقسم على أخذ الثأر لأحمد...

بدى الامتعاض على وجهها ليردف باسم:

- أتشعرين بالشفقة على وغد مثله.. كان ليقتلك أنتِ أيضاً لو أخذ منك ما يريد.

ارتسم الذهول على ملامحها وهي تردد:

- قتلني أنا!... أبي كان ليقتلني أنا!!.. يالك من كاذب.

عقد باسم حاجبيه مردداً:

- أبوكِ... وهل نحن نتحدث عن أبيكِ؟... أنا أقصد ذلك الوغد الأشقر الذي قتله آسر بالأمس.

هل تسرب لها شعور بالراحة المزيفة أن آدم لم يقتل أباها هل هذا ما تحاول أن تقنع نفسها به؟؟...

هل ما زالت تبحث له عن أشياء تقلل من كرهيتها له التي لم تنشأ بعد حتى؟!.

رمقت باسم بشك قائلة:

- الأشقر هذا أخبرني أن الضابط هو من قتل أبي.

اتسعت عينا باسم لكن سرعان ما رسم بسمة سخرية على شفتيه:

- يالوقاحته!... يريد أن يلصق التهمة بنا... شيء متوقع من حقير مثله... كانوا يريدونكِ في صفهم بتشوية صورتنا نحن ودفعك للانتقام لأبيكِ... خطة حقيرة وفاشلة.

ضاقت عيناها ولم تعد تعرف من تصدق ومن تكذب...

انها حتى لا تظن أن بإمكانها تصديق أي شيء بعد الآن... فعلى ما يبدو ستكون طريقتها في الحياة هي...

"أن الكل يكذب حتى يثبت العكس"

عادت بذهنها له وهو يردد:

- الذي نعرفه نحن أن هم من قتلوه... ولكننا لم نعرف السبب أبداً.

- مستحيل ما الذي سيدفعهم لهذا؟.. لو بالمنطق.. أنتم فقط المستفدون من موت أبي.

هز باسم كتفيه:

- هو كان ميت في كل الأحوال.. فعقوبة التجسس.. الإعدام... ولا رأفة في ذلك.. فما الذي يدفعنا لقتله؟!.. نحن أردنا استرداد ما سرقه منا والقبض عليه.. أما قتله فلم يكن في حسباننا إطلاقاً... لكِ أن تصدقي هذا أو لا... لكننا نعلم أن هم من فعلوها.

عادت لشرودها وهي تردد:

- لماذا؟!... لماذا يقتلوه؟!!

وقف باسم قائلاً:

- لم تأكلي شيئاً منذ أمس... هل أحضر لكِ طعام؟!

- أريد أن أغادر... لمَ أنا هنا؟!!

استدار باسم قائلاً:

- آسف.. لا يمكنك المغادرة... ليس حالياً على الأقل... لقد قام أبوكِ بخيانتنا... وبما أنكِ ابنته الوحيدة.. فانتِ مضطرة لحمل هذا الإرث.

تركها ليتفقد آسر... بينما ظلت مكانها... تعيد كلمته الأخيرة..

"هذا الإرث"..

****

بارزت حرارة الشمس مبارزتها اليومية مع تلك الثلوج التي تغطي المكان في تلك الغابة الشاسعة.. في محاولة لمنح أحيائها بعض الدفء.. ومن ضمنهم فتاة تقف خلف نافذتها تطالع شروق الشمس الذي من المفترض أن تراه مع من حدثها عنه في ذلك المكان...

قال انه شروق جميل...

لكن أين هذا الجمال؟..

لمَ لا تستطع أن تراه!.. هل كانت تنوي أن تراه بعينيه هو؟...

هل اختفاءه أعماها عما كان يقصده؟؟..

أم أن دموعها التي لا تزال تسكن أجفانها هي التي تتحمل هذا الوزر.

مر يوم كامل وها هو اليوم التالي قد بدأ وهي على حالها...

بقيت في غرفتها بعد انتهاء كلامها مع باسم...

كلمات مزقت أخر أمل كانت متمسكة به...

كلمات أفقدتها كل عزيز لديها...

وبدون أي رحمة...

حرمها حتى من مجرد احترام لذكرى من أحبتهم...

أب جاسوس.. وحبيب مخادع!...

لتهوي بعدها في عدم... حيث لا أساس تقف عليه ولا حائط تستند إليه... تتذوق معنى مختلف لحياتها...

معنى أن تعيش بلا هوية... وبلا قلب.

طرقات خفيفة تأتيها كل ثلاث ساعات باستثناء ساعات الليل ومن بعدها صوت باسم:

- عليكِ أن تأكلي شيئاً؟!

رفعت ذراعها لتفرك جبهتها بأناملها فآلالم رأسها وصلت لمداها...

اتجهت ببطء للباب لتفتحه لتقول:

- أريد كوب قهوتي فقط.

مط باسم شفتيه قائلاً:

- لست من محبي القهوة.. وليس لدي منها هنا... سأذهب لأشتري كوب لكِ من مكان قريب... ولكن عليكِ أن تأكلي الطعام الذي على المائدة... لو عدت لأجده كما هو... سأسكب كوب قهوتك على الأرض.. أمام عينيكِ.

لم ينتظر ردها بل اتجه خارجاً ليفتح الباب وقبل أن يغلقه قال:

- أعتقد أنكِ من الذكاء الكافي للبقاء.. فخروجك من هذا المنزل وعودتك لبيتك.. سيكون نهاية لحياتك... هنا أنتِ في أكثر الأماكن أمناً.

ظلت ترمق الباب الذي أغلقه وذهب... شعرت بالدهشة من نفسها فلم يخطر على بالها أن تتجه لهذا الباب وتغادر... ولماذا عليها أن تغادر؟... لم يعد لديها أي أسباب لتستمر حياتها كما كانت... اتجهت بهدوء إلى المائدة التي وضع عليها بعض الطعام المعلب... لم ترد أن ترى كوب قهوتها التي تتعطش إليه يروي تلك الارضية الخشبية... فلا بأس ببعض الطعام... فعلى ما يبدو أن باسم هذا.. لا يتراجع في كلمة قالها ويتعامل بشكل نظامي جداً...

ترى هل هذه طبيعي آدم أيضاً.؟!

لاحت بسمة ساخرة على شفتيها... آدم!...

يالغبائها.. لازالت تناديه بهذا الاسم.. رفعت رأسها تجاه الغرفة التي تعلم أنه يرقد بها لليلتين...

لم تقوى فيهما أن تراه..

أو حتى تقترب منه..

لا تعرف حتى كيف أصبحت اصابته؟...

وهل يهمها أن تعرف؟!.. هذا الشخص لا أحد بالنسبة لها..

ظلت تحملق بباب غرفته.. ودون شعور منها زادت رغبتها في الاقتراب.. لتلقي نظرة واحدة فقط وتعود...

هزت رأسها مرددة:

- غبية.. هل تريدين رؤيته حقاً؟!!

جاءت الإجابة لها وهي تشرع الباب...

تحدق بملامح وجهه النائمة بهدوء وسكينة..

اقتربت بحذر... بصرها معلق بوجهه... نظرة أعادت كل شيء في لحظة..

فرحها.. حبها.. وسعادتها.. وكذلك.. حزنها.. ألمها.. وصدمتها.

لتضع كفيها على فمها لتكتم شهقة كادت تفلت منها وقد عادت رغبتها بالبكاء تهاجمها من جديد...

بكاء أصبحت تمقته لكنها لا تستطيع التحكم فيه.

التفتت لتهرب من أمامه لكنها عادت تلتفت له...

وكأنها لا تصدق أن ملامحه لم تتغير كما تغير كل شيء آخر...

نظرت طويلاً...

نفس الوجه... نفس الانف... الشفتين.. الذقن... الشعر...

وبالتأكيد العينين التي لا تستطيع النظر لهما.

عضت على شفتيها قبل أن تفتحها أخيراً ناطقة:

- أين وجهك الحقيقي؟!... أليس ما أراه الآن هو القناع الذي استخدمته لخداعي... كيف لا زلت ترتديه إلى الآن... محوت كل شيء... اسمك.. عملك.. هويتك.. وحتى مشاعرك.. لمَ لم تمحو تلك الملامح أيضاً؟... لمَ لم تدعها لي؟.. كي أدفنها مع كل ما يخص آدم... لأنك لست آدم... فلمَ تحمل ملامحه؟!

زاد بكاءها لتسقط بجوار فراشه تردد من بين عبراتها:

- هل تدرك ما الذي فعلته بي؟!.. هل تعلم كم أحببتك؟!... وكم عليَّ أن أكرهك؟!.

"حنين"

جاءها صوته باهتاً...

تصلب جسدها للحظة لترفع بصرها نحوه لترى عينيه كما هي في نومها ولكن شفتيه كانتا ترتجفان وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة...

لكن اسمها كان يظهر من بين شفتيه واضحاً.

عقدت حاجبيها لتقف على قدميها لتصيح:

- لا تنطق بهذا الاسم ثانية... لا يحق لك.

فوجئت بجفنيه يتباعدان لتظهر مقلتيه التي طالما أحبت النظر إليهما. كانت تحدق به ويحدق بها...

مرت ثواني أو ربما دقائق... لتفق أخيراً على كلمته:

- حنين.. أنتِ بخير؟!

استقر الغضب على ملامحها في لمح البصر لتستدير مبتعدة متجاهلة ندائه لها حتى وإن صدر من شخص يعاني الألم...

هربت لغرفتها من أشياء تخشى أن تصدرمنها ولا تقدر على اخفائها.. أغلقت بابها لتقف خلفه وكأنها تمنعه من محاولة الشروع مجدداً...

لمَ قلبها ينتفض هكذا؟!...

بالتأكيد من الغضب..

من كرهها له...

لن يكون شيئاً آخر...

هذا الرجل لا شيء إلا خدعة كبيرة...

لن تكون من الغباء الذي يجعلها تتناسى هذا أو حتى تسامحه.

تعلق بصره بمكان اختفائها..

يعيد رسم ملامحها الغاضبة ودموعها التي كانت تغرق وجنتيها...

هي ليست بخير!!...

كلما استعاد وعيه للحظات يسأل باسم عنها ليخبره أنها في غرفتها..

وأنها بخير...

لكنها ليست بخير!!

بذل مجهوداً غير عادياً فقط ليعتدل قاعداً وهو يطبق شفتيه ألماً..

وضع كفه على مكان جرحه ليحرك ساقيه في محاولة لترك الفراش... هاجمه الدوار..

فثبت مكانه للحظات..

أرهف سمعه فلم يصل له أي صوت..

يبدو ان باسم ليس هنا...

كرر محاولة النهوض مستنداً على فراشه.. لينجح في ذلك ويسير ببطء أجبره عليه الألم..

وصل لباب غرفته في رحلة بدت طويلة..

مد بصره إلى حيث يعتقدها اختفت..

استمر في سيره معتمداً على كل ما تصل له ذراعه إلى أن وقف أمام بابها... ك

ان تنفسه يزداد دليلاً على المجهود الذي يبذله..

حاول أن يتنفس بعمق أكبر كي يمنح نفسه بعض الطاقة ليقول بعدها بصوت علم أنه يصل إليها حتماً:

- حنين.. اسمعيني.. يجب أن نتحدث.

تنصت ليلتقط أي شيء من الداخل لكن لم يجبه إلا الصمت المطبق... تمنى أن يخترق تلك القطعة الخشبية التي تقف حائل بينه وبينها.

كانت لا تزال تستند على بابها حين وصل لها حركة ما في الخارج، تساءلت لو كان هذا هو باسم..

لكنها لم تسمع صوت الباب يفتح أو يغلق..

هل هذا الأخرق ترك فراشه وهو مصاب؟!!.

ارتعشت أطرافها مع وصول صوته منادياً إياها...

ابتعدت عن الباب خشية أن ينقل له انتفاضها...

أطبقت شفتيها كي لا تصدر أي صوت...

سيبتعد.. مادامت لم تجبه.. سيبتعد.

خاب ظنها حين عاد لها صوته:

- أعلم أنكِ غاضبة... ومن حقك أن تغضبي... أرجو فقط أن تتفهمي.

وضعت كفيها على أذنيها...

فصوته بدا صاخباً... مزعجاً.. مؤلماً....

لكن لم يمنعها ذلك عن سماعه حين أردف:

- أنا كنت مضطر... كنت أؤدي عملي.

اشتعل رأسها غضباً وصدرها ناراً... وهي تردد:

- أؤدي عملي!!

عاد يناديها ثانية باصرار:

- حنين...

اندفعت لبابها تفتحه صارخة:

- لا تناديني بهذا الاسم... ولا تحدثني وكأني أعرفك.. فأنا لا أعرفك.

استقبل عاصفتها الهوجاء بهدوء قائلاً:

- بل تعرفيني... تعرفيني جيداً حنين.

- قلت لك لا تناديني بهذا الاسم.

صاحت بها فأشار مهدئاً:

- حسناً.. لن أفعل.

أثار هدوئه آخر لحظات تماسكها لتتسع عيناها محملقة في وجهه لتشير له بأصابع مرتعشة:

- كيف يمكنك أن تكون بهذا الهدوء؟!.. بل كيف تجرؤ على الوقوف والحديث معي؟!.. أي نوع من البشر أنت؟! وكأن شيئاً لم يحدث... وكأنك لم تتلاعب بقلبي... وكأنك لم تكذب علي... وكأنك.. لم تمنحني حلم لأعيشه وأكتشف في النهاية أنه أسوأ كوابيس حياتي.

صرخت بكلماتها الأخيرة وقد تسارعت أنفاسها ، لتتفجر بها كل لحظات غضبها... يأسها.. صدمتها...

- كانت حياتي هادئة... كنت بخير... فلماذا؟!... لماذا اقتحمت حياتي بتلك الطريقة... لتدمرني... ماذا فعلت لك؟!.. ما هو خطأي؟!!.. لمَ تحولني إلى شخص يشك في كل ما حوله بل حتى في نفسه... لمَ تجبرني على فقد الثقة في كل شيء حتى الهواء الذي أتنفسه... لماذا؟!.. لماذا؟!!

ظل على حاله يرمقها بصمت... يعلم أن أي كلمات لن تواسيها أو تخفف عنها... لكنه شعر ببعض الراحة... كان يخشى أن يصيبها انهياراً يطمس كل شيء فيها...

صحيح أن نظرتها تغيرت وبريقها اختفى لكنها تصرخ في وجهه... تغضب..

وهذه علامات ايجابية فلقد تصور أن أقصى رد فعل لها..

هو البكاء والصمت.

استمرت في كلماتها المتألمة الصارخة:

- كل ما قلته لي كان كذباً... خداعاً... من أين لك هذه القدرة؟... تنظر إلى وجهي تلتقي عينك بعيني وتكذب علي بمنتهى البساطة... مشاعر زائفة... كلمات لا معنى لها... هل كنت تسخر مني في داخلك؟؟... بالتأكيد كنت تفعل.. أنا الغبية التي همت حباً في وهم... مجرد وهم... في الوقت الذي تصورتك فيه ملجأي وحمايتي... منذ اللحظة الأولى التي التقيتك بها.. طلبت مني أن أثق بك...

تجمد وجهها للحظة...

ليبدو عليه الاشمئزاز بعد ذلك...

وهي تتذكر...

لقائها الاول به..

رفعت وجهها له ينظر لها بنفس الهيئة الهادئة..

لتسأله بلهجة تتمنى الإنكار:

- المرة الأولى التي التقيت بك فيها... كانت صدفة... كان حادث منح لك الفرصة للتقرب مني... أليس كذلك؟!... لم يكن من تدبيرك؟!.. أنت لم تعرضني لهذا الرعب الذي كاد أن يوقف قلبي... أليس كذلك؟!!

أشاح ببصره عنها... ليقول بنفس النبرة الهادئة:

- الفكرة كانت إرهابك فحسب لا أحد منهم كان ليمسك بسوء.

هزت رأسها بغير تصديق...

مزيد من الوجع...

طعنة جديدة نافذة الى قلبها...

وهل هناك مكان لمزيد من الطعنات؟!.

- يالكم من أوغاد!.

صرخت بها وهي ترفع يدها للطمه...

لكنه التقط يدها ببساطة قبل أن تصافح وجنته..

فحاولت سحبها بقوة وهي تصيح به أن يتركها..

لكنه أمسك بها أكثر رغم آلامه التي زادت قائلاً:

- افهمي.. يجب أن تفهمي..

هزت رأسها بقوة:

- لا أريد... لا أريد أن أسمعك.. لا أريد.. دعني ... دعني.

"ما الذي يجري هنا؟!"

قالها باسم وهو يحدق بهما ، فقامت حنين بدفع آسر بكل ما أوتيت من قوة لتسحب يدها منه..

لكنه كان أضعف من أن تحتاج كل تلك القوة فترنح وهو يحاول التمسك بأي شيء..

فأسرع نحوه باسم قائلاً:

- احترس.

وصل له في الوقت المناسب ليمنعه من السقوط، ليلتفت لحنين غاضباً:

- ماذا دهاكِ؟!.. إنه مصاب.

صرخت:

- فليذهب إلى الجحيم... فلتذهبوا جميعاً إلى الجحيم... أريد أن أخرج من هنا... لا أطيق رائحة الكذب والخداع التي تملأ المكان... سأختنق.

قال باسم بحدة:

- وماذا عن رائحة الخيانة.. التي كانت تعبأ بيت أبيكِ.. ألم تسبب لكِ الإختناق أبداً؟!!

حدقت فيه للحظات قبل أن تصفع باب الغرفة في وجههما...

ليصل لهما صوت بكاءها الحاد.

أعاد باسم آسر الى فراشه وما أن استكان فيه حتى قال بلوم:

- ماذا أصابك؟!... لمَ ذهبت للحديث معها؟!.. ألم أخبرك أن تدع أمرها لي؟!

صمت لبرهة قائلاً:

- قالت "فليذهب الى الجحيم"!!.

عقد باسم ذراعيه أمام صدره:

- وهل كنت تتوقع أقل من هذا؟!... آسر... قصتك مع تلك الفتاة انتهت.

- أعلم.. أعلم انها انتهت.

التفت له سائلاً:

- ما الجديد؟!

جلس باسم قائلاً:

- عثرت الشرطة على جثة ستيف... ولم يعرفوا من هو بعد.. ولا أعتقد أنهم سيعرفون.. سيتولى أعوانه محو كل شيء... كما أنهم بدأوا البحث عنها وعنك كالمجانين... سنضطر للاختفاء هنا لبعض الوقت.. قبل أن نتحرك لاحضار البطاقة... وعلينا الحذر.. فمن المتوقع أنهم سيكونون بانتظارنا.

- أخبرتها عن طريقة مساعدتها لنا.

- ليس بعد.. لمَ العجلة؟!.. نحن معاً حتى ذلك الحين.. انتبه أنت لنفسك فحسب.. لا نريد لإصابتك أن تتفاقم.

تركه باسم حاملاً كوب قهوة حنين، ليذهب إليها لكنها لم تفتح الباب.. وانتهى أمر الكوب على منضدة جانبية.

****

أغلق عينيه وعقله يردد ويكرر كل كلماتها...

ويصور كل نظراتها..

وخزات متتالية ضربت قلبه.. كانت مؤلمة... أكثر من آلام جرحه..

توقع الكثير والكثير لكن توقعاته شيء ومواجهة الواقع شيء آخر...

كم تمنى أن يضمها الى صدره.. أن يواسيها...

يطلب منها أن تسامحه.. أن تتفهمه..

لكنه لم يعد باستطاعته فعل ذلك...

انتهت قصة آدم العاشق... حتى وإن كان لا يزال عاشقاً..

هو يعلم أنها قصتهما ما كانت لتستمر...

العوائق التي تحول بينه وبينها لا حدود لها...

والآن كما أسقطها في حبه فعليه أن يجبرها على كرهه...

عليه أن يتركها أقوى..

وأكثر حذراً.

****

ضربت ميا هاتفها للمرة الألف...

وفي كل مرة نفس الجواب...

"الهاتف مغلق"

- تباً.. أين ذهبت تلك الفتاة؟!!..

تكاد تفقد عقلها....

مرت عطلة الأسبوع دون أن تستطيع الوصول لها...

وها قد بدأ اليوم الدراسي وتصورت أنها ستراها في المدرسة لكنها تفاجأت بغيابها عن الحضور...

وهذا شيء غير طبيعي..

العمل بالنسبة لآني شيء مقدس...

كما أنها لا تفهم لمَ هاتفها مغلق...

أصابها القلق وبدأت تتزاحم داخل عقلها كل الأفكار السيئة.

ما أن انتهى عملها حتى أسرعت لمنزل رفيقتها لديها أمل أن تكون نائمة فيه بعد عطلة بعيدة مع آدم..

ظلت تطرق الباب..

تتصل بهاتفها المنزلي...

ولا مجيب..

وضعت كفها على رأسها وهي تتلفت يمنة ويسرة:

- آني... ماذا حدث؟!... أين أنتِ؟! لماذا ليس لدي هاتف آدم ؟.. لماذا؟!

رددتها وهي تلوم نفسها...

- اهدئي ميا... عليكِ أن تفكري.. ماذا يجب أن أفعل؟!

ظلت مكانها للحظات ثم التفت لوجهتها الجديدة..

لن تقف مكتوفة الأيديّ وتترك قلقها يقتلها على رفيقتها..

عليها أن تفعل أي شيء.

انتهى بها الطريق الذي حدته سابقاً أمام قسم شرطة المدينة...

ظلت تحدق به للحظات فهذه المرة الأولى التي تدخله فيها...

لكنها لن تتراجع ..

آني في خطر.. هذا ما تشعر به..

فهي لا تريد أن تتخيل أن سوء أصابها بالفعل.

"آنسة ميا"

انتفضت حين سمعت اسمها على لسان أحدهم...

التفتت لتتعرف عليه على الفور:

- سيد ديفيد!!

- ماذا تفعلين هنا؟!

لم تجبه على الفور فلقد كانت متفاجئة برؤية والد أليكس هنا...

ليقول:

- آسف.. لا أقصد التطفل... لكن يمكني أن أقدم أي مساعدة.

- أي مساعدة!!

قالتها بتردد ، فأجاب:

- نعم.. ألست هنا لتدخلين قسم الشرطة؟!

- أنت شرطي!!

- لا.. محامي.. هل يمكنني مساعدتك؟!

قالت على الفور:

- آني اختفت.

عقد حاجبيه مردداً:

- آنسة آني اختفت!.. ماذا تقصدين؟!

بدأت في السرد سريعاً:

- كانت تناول العشاء ليلة الأحد مع آدم.. هكذا أخبرتني.. وطلبت منها أن تهاتفني حين عودتها.. لكنها لم تفعل... قلت لعلها عادت تعبة ونامت.. اتصلت بها في الصباح كان هاتفها مغلق... وهو مغلق إلى الآن... ذهبت إلى منزلها انتظرتها في المدرسة.. لم تظهر.. لم تظهر أبداً... آني اختفت.. اختفت.

كانت تتحدث بتوتر وعصبية شديدة.. ليربت ليون على كتفها قائلاً:

- اهدئي.. اهدئي آنسة مِيا... وماذا عن آدم الذي كانت معه؟!

- لا أملك رقم هاتفه.. لا أعلم عنه شيء سوى أنه يعمل في دار نشر ما.. لا أذكر اسمها.. يا الهي.. أخشى أن يكون أصابهما مكروه.

استمر في تهدئتها قائلاً:

- حسناً لا تقلقي.. دعينا ندخل قسم الشرطة ونسجل محضر غياب لها... ولو أصابهما مكروه سيعرفون... ونرجو أن يصلون لها سريعاً وأن تكون بخير.

أومات إيجاباً لتتبعه إلى داخل القسم.

****

استيقظت والجوع يمزقها... وآلام الرأس تهاجمها بضراوة... تأملت ما حولها.. مازالت تتمنى لو أن كل هذا مجرد كابوس...

كابوس تستيقظ منه لتجد كل شيء عاد لطبيعته..

عادت آني.. الفتاة الهادئة المنطوية..

التي تستيقظ كل صباح تتناول كوب قهوتها المفضلة وتلتقي رفيقتها الوحيدة مِيا وتذهبان معاً إلى المدرسة...

كم تريد أن تمحو من ذاكرتها أي شيء آخر غير هذا.

ولكن الواقع شيء آخر... الواقع الذي لا يحمل لها إلا الألم...

الكذب.. الخداع... وأيضاً الخيانة...

مازالت لا تستوعب فكرة أن يكون أباها خائن لوطنه...

مستحيل.. لا يمكنها تقبل هذا..

ألا يعرفون من هو رفقي ميلاد؟...

إنه رجل عاشق لوطنه... أسماها حنين لتذكره دوما بحنينه لوطنه... فكيف يخونه؟...

كيف يخون حباً بهذا الشكل؟!..

هناك شيء غير مفهوم...

حلقة مفقودة.. و

عليها ان تصل لها..

كذب آدم وخداعه حقيقة لا مفر منها وعليها التعامل مع هذا..

أما خيانة أبيها فما زالت تأمل ألا تكون كما يظنون...

ستتأمل هذا حتى النهاية.

طرقات على بابها لم تقوى حتى على إجابتها فقط ظلت على فراشها تحدق في الباب بصمت..

ليشرع الباب بهدوء ويطل منه باسم الذي دلف الى حجرتها حاملاً صينية عليها افطار بسيط ولم ينسَ كوب قهوة ساخن..

وضع الصينية على منضدة صغيرة بجوار سريرها قائلاً:

- خدمة فندقية!.

لم تبتسم فرمقها للحظات ثم قال:

- لا أعتقد أنكِ تنوين الانتحار.. عليكِ أن تتناولي الطعام.

التفت ليغادر فأوقفته:

- اليوم يوم عمل.. هل سأخسر عملي بسببكم؟!.

نظر لها قائلاً:

- آسف.. لكن لا يمكنكِ المغادرة... حفظاً على حياتك.. وعلى ما يخصنا.

- والى متى سيستمر هذا؟.. متى سأعود لعملي؟.

- قريباً... اللذين حاولوا الوصول لكِ وقتل آسر يبحثون عنكما... لذا سنبقى هنا لعدة أيام قبل أن نتحرك.

عقدت حاجبيها سائلة:

- نتحرك الى أين؟!

اتجه للباب مغادراً غرفتها ليقول قبل أن يغلق بابها:

- ستعرفين حينها.

جلس آسر على فراشه يتناول افطاره لينضم له باسم فسأله:

- هل أكلت؟!

- أعتقد أنها ستأكل؟!.. لن تقتل نفسها جوعاً.

- هل هي أفضل حالاً؟!

رفع باسم بصره لآسر يرمقه بنظرة فهمها الأخير جيداً ليقول:

- هل سؤالي هذا سيضر بالعمل؟!

اعتدل باسم قائلاً:

- أخشى أنه سيضر بك أنت؟!!

عقد حاجبيه قائلاً:

- ماذا تعني؟!

- أعني أن تلك الفتاة لن تكون جزءً من حياتك بأي حال من الأحوال... إلا في حالة واحدة... ولا أتصور أن رفيق عملي قد يترك عمله من أجل امرأة.

تلاقت نظراتهما للحظات قبل أن يبتسم آسر بسخرية:

- آسر سراج يترك عمله من أجل امرأة!.

ابتسم باسم بدوره مردداً:

- كذبة ابريل.. أليس كذلك؟!

- كذلك.

قالها وقد شخص ببصره بعيداً وقد اندثرت ابتسامته الساخرة على شفتيه.

****

خرجت ميا مع ليون بعد أن ساعدها في تقديم بلاغ باختفاء رفيقتها...

قل توترها قليلاً بعد أن طمئنوها أنهم سيبحثون عنها جيداً..

وسيتصلون بها قريباً.

أصر ليون على توصيلها لمنزلها فقبلت.. وهما في الطريق قالت:

- أشكرك على مساعدتك لي... كنت متوترة للغاية.

- لا عليكِ.. أنا متفهم.

زفرت قائلة:

- أنا أعرف آني جيداً لن يمنعها عني وعن عملها إلا شيء خارج إرادتها.. عقلي لا يتوقف عن التفكير في الاسوأ.

- نرجو أن تكون بخير... ربما كما قال الشرطي.. سافرا إلى مكان قريب وتعطلا عن العودة... بسبب الثلوج.

- ولكن لمَ هاتفها مغلق.

- ربما هناك مشكلة في الاتصالات.

قالت متأملة:

- أرجو هذا.. أرجو هذا حقاً سيد ديفيد.

كانا وصلا لوجهتهما ليقول:

- ليون.. أرجو أن تناديني ليون فقط... ولو أردتِ يمكن أن نبدأ بالبحث أيضاً.. لسنا مضطرين لانتظار الشرطة.

قالت بحماس:

- حقاً... نعم صحيح.. فلنبحث عنها.. ولنبدأ من حيث اختفت.

- جيد... سأمر عليكِ بعد انتهاء المدرسة لاصطحاب أليكس ولتأتي معنا.. سأعيده للبيت مع جليتسه ثم نذهب معاً.

- حسناً.

ترجلت من السيارة لتعيد شكرها الشديد له على اهتمامه..

مع وعد ثاني باللقاء غداً.

تابعها حتى دخلت لمنزلها وهي تلوح له ليبتسم قائلاً:

- لديها طاقة غريبة... شعرت بها فور أن تحمست لكلامي.

بدأ البحث من آخر نقطة تواجدت بها آني...

ذهبت مع ليون إلى المطعم الذي أخبرتها آني عنه...

حملت صورتها وبدأت في سؤال العاملين.. لم يتذكرها أحد إلى أن قال ليون:

- مَن مِن العاملين هنا.. لديه الذاكرة الأقوى؟.

ابتسم أحد النادلين قائلاً:

- لا يوجد غيرها!..

ثم التفت منادياً:

- ماريت... تعالي.

اقتربت فتاة تبدو في العشرينات لتقف أمامهم تلاحظ عيون ما تتعلق بها بلهفة فتساءلت..

ليأتيها الجواب من زميلها قائلاً:

- لا تنسين الوجوه عادة... هل تذكرين هذه الزبونة؟!.. يقولان كانت عندنا ليلة الأحد.

رفعت مِيا لها الصورة لتنظر لها قليلاً ثم ابتسمت قائلة:

- نعم.. أذكرها.. كانت برفقة شاب... شاب بملامح شرقية.

قالت مِيا بابتهاج:

- نعم أنها هي.

- ماذا عنها؟!

سألت الفتاة فقال ليون:

- نحن نبحث عنها.. وآخر ما نعرفه أنها كانت هنا بصحبة صديقها لتناول العشاء... فهل لاحظتِ أي شيء غريب حدث بينهما.

هزت رأسها نفياً:

- لا.. على العكس.. كان ثنائي هادييء جداً.. لاحظتهما يتحدثان معاً.. وكان يبدو عليهما السعادة.. خاصة الفتاة.. حتى بعد انتهاء العشاء رأيتهما يخرجان معاً وبدا متحابان جداً وعلى وفاق.

أومأ ليون برأسه لتقول مِيا:

- هل رأيتِ إن كانا استقلا سيارة خاصة... أم لا؟!

- آسفة.. لم أنتبه لهذا.

فقال ليون:

- ولم تسمعوا في تلك الليلة أي أنباء عن حادث سيارة أو سقوط اصابات لأي سبب؟.

هز الجميع رأسهم نفياً.

شكرهم ليون كثيراً وكذلك مِيا ليغادرا المطعم.. ركبا السيارة لتقول ميا:

- ماذا سنفعل الان؟!..

صمت مفكراً للحظات ليقول:

- أعتقد يمكننا أن نطمئن قليلاً... فلم يحدث شيئاً غريباً... مازالت أعتقد أنهما ربما ذهبا لمكان ما وتعطلا هناك.

هزت مِيا رأسها قائلة:

- لا أعلم.. لا يمكنني أن أوقف عقلي عن القلق.

- هل تريدين أن نسأل في المستشفيات القريبة من هنا؟!

انقبض قلبها خشية ما قد تلاقيه... لكنها أرادت أن تنزع أحد الاحتمالات السيئة من رأسها لتقول:

- حسناً فلنفعل.

****

أصبحت أكثر هدوءً وتقبلاً لما حدث وما يمكن أن يحدث...

تقضي وقتها في غرفتها، لا تخرج إلا لحاجة...

أحضر لها باسم ماكينة قهوة كي يتوقف عن الخروج وشراء أكواب لها.. فاستخدمتها لأكثر من ٥ مرات متتالية!.

إذا حدث والتقت به تتصرف وكأنها لم تره...

تستطيع أن تشعر بعينيه تتابعها...

تخطو بهدوء لغرفتها متمكنة من اخفاء تلك الرعشة التي تصيب أوتارها.

أفضل وقت لها هو حين تخرج من المنزل وتجلس على جذع شجرة مقطوعة تأخذ بعض من آشعة الشمس... وتغرق في ذكرياتها...

ذكرياتها القديمة...

مع أمها وأبيها تتفادي تماماً الخوض في ذكرياتها معه...

لا تنجح في هذا كثيراً لكنها دوماً تقاوم..

تريد أن تمحوه حقاً من عقلها... أن تتناسى أنها التقت به يوماً..

أنها كانت مجرد وسيلة... لعبة لا أكثر...

من شخص ادعى حبها لأسباب أخرى.

طال وقوفه خلف نافذته يراقبها... كانت هادئة.. ساكنة.. وتمنى أن تكون مطمئنة..

هل عليه الخروج والحديث معها الآن؟..

تبدو أكثر تقبلاً للحديث...

لم يحاول محادثتها ثانية بعد اللقاء الاول.. والذي انتهى بذهابه إلى الجحيم!!

فضل أن يتركها.. تستوعب.. تتأقلم.. وربما تتفهم..

كانت تمر أمامه وكأنها لا تراه.. تظهر بسمة ما على شفتيه حينها... تبدو رائعة وهي تدعي القوة..

هذا لا يغضبه البتة هو فعلاً يريدها قوية..

الشيء الوحيد الذي سيواسيه أن تخرج من تلك الأزمة بشخصية أكثر صلابة.. فالعالم لا يتحمله الطيبون أمثالها.

كان لا زال يتألم من حركة جسده وعليه التحرك ببطء...

خرج من المنزل بهدوء.. ليخطو بخطوات تُخالطها أصوات سحق الثلوج.

وصلت لها صوت خطواته.. تعلم أنه هو..

فباسم خرج منذ الصباح ولم يعد بعد...

تجاهلت قربه منها وتصرفت كالعادة...

وكأنه غير متواجد.

توقف بجانبها يتأمل ملامحها الصامتة... هكذا أصبحت..

كان يقرأ الكثير منها سابقاً..

دون أن تحرك شفتيها.. كان يقرأ السعادة.. الحب... السرور..

أما الآن فلا شيء... صمت فقط.

- ألا تشعرين بالبرد؟!

سألها بروية مترقباً الرد..

لم تلتفت.. لم تحرك ساكناً... بقيت كما هي...

فعاد الصمت ليكسره مجدداً:

- لا يوجد تبرير يمكنني تقديمه.. فمنظورك للأمر مختلف تماماً عن منظوري.. أنتِ شخص يحمل قدر كبير من الطيبة... عليكِ أن تتعلمي أن تكوني أكثر قوة... فالطيبون كثيرون لكنهم يمرون بجانبنا دون أن يشعر بهم أحد... أما الأشرار حتى وإن قلوا فوجودهم مؤلم جداً.

لاحت بسمة ساخرة على شفتيها لتلتفت ناظرة له...

تعلق بعينيها باحثاً عن بريقهما المعتاد لكنه لم يجد إلا العتمة.. والكثير من الظلام وهي تقول:

- أعلم.. فلقد التقيت بأحدهم.

أنهت جملتها بنظرة تحقير.

كلمة أخرى مؤلمة... ونظرة موجعة.. وعليه انتظار المزيد..

هي تراه الشرير الآن.. فهل يلومها؟!...

أنه حتى لم ولن يحاول إقناعها أنه أحبها بصدق...

فلا طائل من كل هذا.. فلمَ الخوض فيه مرة أخرى؟.

شخصت ببصرها بعيداً عنه... فليس لديها ما تقوله له...

بل لديها الكثير لكنها فضلت الاحتفاظ بما تريده لنفسها...

فهو لا يستحق عناء الكلام.

- لم نكن نعرف عنكِ شيء... أب منطوي وابنة أكثر انطوائاً... ما الذي يمنع أن تكوني مثله.. كانت البداية باختبار قوي.. اختبار يكشف شخصيتك أكثر.. ودوماً تظهر طبيعة الإنسان في لحظات الخوف... كنت أتوقع فتاة أكثر قوة.. لكني فوجئت بفتاة تبكي كالأطفال... لن أنكر.. حقاً تفاجأت!!.. وبدأنا في الخطوة التي لا رجعة فيها... لم يكن هدفنا قلبك.. فقط ثقتك.. فحصلنا على أكثر من ذلك... فلا تلومني أنا!!

عقدت حاجبيها وبدت تفقد هدوءها:

- نعم.. لن ألومك أنت.. سألوم نفسي الغبية وقلبي الأعمى.. وشكراً على الدرس.. فلقد تعلمته جيداً.

قطع كلامهما أو صمتها البادئ من جديد صوت سيارة أجرة لينزل منها قائدها الذي هو باسم ليقف أمامهما قائلاً:

- أليس الجو بارد على البقاء هنا؟!

لم يرد أياً منهما.. رمقهما للحظات قبل أن يشير لحنين قائلاً:

- تعالي معي.

كانت الدهشة من نصيبهما معاً.. ليقول آسر:

- الى أين؟

فقالت بضيق:

- أنا من أوجه هذا السؤال وليس أنت؟؟

هز باسم رأسه بسخرية مجيباً:

- المهم... مِيا صديقتك أبلغت الشرطة.

هبت واقفة:

- مِيا فعلت ذلك!!

- نعم.. ونحن لا نريد أن نورط الشرطة في الأمر فهذا سيعطلنا أكثر... ستأتين معي لنتصل بها من هاتف عمومي بعيد عن هنا قليلاً...

ردت:

- لمَ لا تعطيني هاتفي لأتصل بها.. لمَ تحتفظ به؟!

- لأن أي اشارة لهاتفك يمكن تتبعها وهذا يكشف أمرنا... هيا.

لم ينتظر ردها..

عاد للسيارة لتتبعه حنين مرغمة، بينما يراقبهما آسر من مكانه.

****

انطلق باسم بالسيارة وقد أجلس حنين في الخلف ليبدو وكأنها تستخدم سيارة أجرة عادية... لتسأل:

- متى أبلغت مِيا الشرطة؟!

- في أول يوم عمل لكما... علمنا أن اسمك ادرج في بلاغ اختفاء قدمته هي ورجل معها..

اسمه؟!!... نعم.. ليون ديفيد.

عقدت حاجبيها مرددة الاسم، وتسألت في نفسها متى اجتمع مع مِيا.

أردف قائلاً:

- ستتصلين بها... وتخبريها أنكِ بخير وأنكِ سافرتِ مع آدم لبلدة مجاورة واحتجزتكما الثلوج وأنكِ فضلتِ قضاء بعض الوقت هنا.. وأن هاتفك قد فرغت بطاريته ولم تحاولي شحنها مجدداً... عندما تخبرك أنها ابلغت الشرطة.. أطلبي منها أن تسحب البلاغ.. وكذلك أن تحصل لكِ على إجازة من عملك.. كي لا تفقديه... ولا تزيدي في الكلام.

استمعت له بتأفف لتقول:

- كف عن إلقاء الأوامر.

لم يعلق باسم وظل صامتاً.. حتى وصلا لكابينة هاتف عمومي فأوقف السيارة.. فأرادت التحرك فأوقفها بقوله:

- ولا تخبريها أين أنتِ مهما سألت... كي لا تعرضين حياتك وحياتنا للخطر..

ثم التفت لها قائلاً بلهجة أكثر حزماً:

- وأريني وجهك طوال المحادثة.

عقدت حاجبيها لاستغراب الطلب.. لم تفهم لمَ يريد أن تظل بوجهها نحوه طوال المحادثة...

وصل لعقلها أنه ربما يشك فيها...

هل سيقرأ حركة شفتيها مثلاً؟!...

ما زال لا يثق بها..

ما زال يراها مجرد ابنة لجاسوس.

- شيئاً آخر أطلبي منها حذف الرقم الذي سيظهر عندها... هيا انزلي.. كي لا نثير الشكوك.. سأقف كسيارة أجرة تنتظر راكبها.

- ولكنها ستستغرب هذا...

- أعلم... لكن هذا ضروري.. لا نريد ترك أي خيط قد يقودهم نحونا.

*****

حاولت مِيا مجدداً الاتصال بهاتف حنين وكالعادة الإجابة "مغلق"...

زفرت بضيق... لقد سألا في عدة مستشفيات ولا فائدة... واتفقا على اللقاء اليوم للذهاب لقسم الشرطة ومتابعة بحثهما هناك لعلهما يجدان نقطة جديدة يبدأن منها..

نظرت لساعتها.. لقد تأخر ليون قليلاً.. رجل يبدو مختلف عن باولو كثيراً... فهو هادىء.. خطواته محسوبة... ويبدو رقيق وحنون جداً خاصة حين يكون مع ابنه.

لا تعرف لمَ تقارنه بباولو.. لكنها لا تستطيع منع نفسها.. ربما لأنه أول رجل يكون بقربها منذ افتراقها عن باولو... ربما لأنها من الطبيعي ستضع الجميع تحت الاختبار حتى ولو لم يكن هناك شيء بينهما.

رن هاتفها الذي لا زالت تحتضنه بأصابعها لتلقي نظرة على رقم بدى غريب..

لم تفكر كثيراً فقط أجابت ليأتيها صوت تعرفه جيداً واشتاقت كثيراً له فتصرخ:

- آني.. آني... يا الهي!!.. أنتِ بخير؟... آني.. أين أنتِ؟.. أين اختفيتِ؟... كيف تفعلين هذا بي؟!

أوقفتها حنين قائلة:

- اهدئي مِيا.. اهدئي... تنفسي أولاً.

- أين أنتِ؟!

قالتها صارخة.. فأجابت:

- سامحيني مِيا.. ليست مقصودة.. لقد تجولنا بالسيارة فابتعدنا أكثر من اللازم.. ثم احتجزتنا الثلوج.. فاقترح ..آ.. آدم أن نبقى معاً ولم أستطع الاتصال بكِ... سامحيني.

- تباً آني.. هل تعرفين كم قلقت عليكِ.. لقد ذهبت للشرطة؟!!

حاولت حنين ادعاء الدهشة ويبدو أنها نجحت في ذلك:

- ماذا؟!.. الشرطة... يا الهي مِيا.. لمَ هذا التسرع؟.. اذهبي وقومي بإلغاء هذا البلاغ في الحال... كما أني أريدك أن تحصلي لي على إجازة من المدرسة.

- إجازة... لمَ متى ستعودين؟!

- ربما بعد نهاية هذا الأسبوع أو الأسبوع الذي يليه.

عقدت مِيا حاجبيها في دهشة:

- لمَ كل هذه المدة؟!

صمتت حنين قليلاً لتقول:

- سأخبرك حين أعود.

قالتها بلهجة لم تكن مريحة لمِيا التي قالت:

- آني... أنتِ بخير... لن تكذبي علي.. أليس كذلك؟!

اخذت شهيق طويل قائلة:

- نعم... أنا بخير... مِيا هل يمكن أن تسامحي باولو في يوماً من الأيام؟!

بدا سؤالاً لا يناسب الوقت ولا الحوار:

- ما هذا السؤال آني؟... لمَ تتحدثين عن هذا الوغد؟!. هل اتصل بكِ؟!

- لا.. لم يفعل... فقط أريد أن أعرف لقد كنتِ تحبينه كثيراً فهل ستسامحيه يوماً حتى لو لم تجتمعا مجدداً.

لم تفكر مِيا كثيراً لتجيب:

- لا... بقدر ما أحببته وخدعني.. لن أسامحه أبداً.

ظهرت ابتسامة حزينة على وجه حنين لتقول:

- معكِ حق... سأذهب الآن... كما أخبرتك اسحبي البلاغ.. والإجازة لا تنسي.

ابتسمت مِيا:

- لن أنسى.. لا تتأخري... يبدو أنكِ تعيشين أوقات رائعة مع آدم... ستخبريني بكل شيء يا شقية.

مرارة في حلقها تتزايد..

"كُفي عن أسئلتك مِيا .. أكره الكذب عليكِ."

لم تعطيها اجابة فقد أخبرتها كم تشتاق لها.. وأنها ستقص عليها كل شيء حين تعود..

ثم تذكرت أمر الرقم لتقول:

- سأطلب طلب آخر ولكن لا تسألي لماذا... سأخبرك حين أعود..

- ما هو؟!

- احذفي الرقم الذي أحدثك منه... ولو سألتك الشرطة عن الرقم اخرجي لهم أي رقم لهاتف عمومي آخر... تصرفي.

- لمّ كل هذا آني؟!

- قلت لا تسألي.. مِيا أنا بخير... فقط افعلي ما أقول.

- آني هل تخفين عني شيئاً؟!!

- بعض الإثارة لا بأس منها... أليس كذلك؟!.. سأراك قريباً.. الى اللقاء صديقتي... أحبك كثيراً.

اتسمعت ابتسامة مِيا لتجيب:

- وأنا أيضاً آني... أحبك كثيراً... في انتظار عودتك.

أغلقت الهاتف لتعود للسيارة التي ظل فيها باسم يراقب ملامحها جيداً..

لم يتوقع أن تنفذ طلبه وأن تبقى في مواجهته كي يراها..

لكنها ببساطة فعلت...

هل تريد أن تقدم دليل لحسن النية وأنها أصبحت في جانبهم.؟. بما تفكر تلك الفتاة الصامتة طوال الوقت؟...

هناك ما يخبره أنها تريد أن تصل معهم لشيء ما.

استقرت في مكانها بالمقعد الخلفي لينطلق باسم عائداً...

- ماذا أخبرتيها؟!

- أخبرتها ما أخبرتني به؟!

ظهرت بسمة على طرف شفتيه ليقول:

- ألم تسأل عن آدم؟!

بدا الامتعاض على وجهها وهي تقول:

- كم كان مقيت الحديث بهذا الاسم الوهمي على رفيقتي... تجيدون الكذب.. لكني لا أطيقه.

اتسعت ابتسامته أكثر:

- لا تقلقي... من الأشياء التي لم يكذب آسر بشأنها.. اسمه.

عقدت حاجبيها لترمقه بدهشة متسائلة:

- ماذا تقصد؟!

- سيخبرك هو إن أراد.

اكتفى بذلك وهي لم تضف شيئاً.

****

رأها تقف في مكانها وكانت تبدو سعيدة ...

تضحك رغم كونها تقف وحدها.. هذه المرأة التي تفعل ما تريد دون تفكير فيما حولها.. مختلفة عن زوجته الراحلة كثيراً بل وحتى عن آني التي ذكرته بمحبوبته... فكلتاهما هادئتان... قد يجلسان بجوارك ولا تشعر بذلك... وهذا هو النوع الذي يحب من النساء... لكن مِيا.. تشعرك بوجودها حتى لو مجرد مرور عابر... تحيط نفسها بهالة من الطاقة يمكنك التقاطها بسهولة.. دون أي عناء منها... وأكثر ما لفت انتباهه أنها قادرة على نقل تلك الطاقة لمن حولها أيضاً... وكم يشعر بحاجته لمثل تلك الطاقة في حياته.

اقترب أكثر منادياً لاسمها فالتفتت له وبدا وجهها مبهجاً بضحكتها العريضة ليفاجئ بها تندفع نحوه وتضمه اليها بقوة وهي تردد:

- ليووون.. آني بخير... أنها بخير.

حررته وإن آسرته بفعلها ذلك داخل إطار من الدهشة والذهول..

لتردف وهي تكاد تقفز من مكانها:

- لقد اتصلت بي من لحظات.. حمداً لله.. أنها بخير... آني بخير.

بدأ يستعيد تركيزه وهو يردد:

- حقاً.. اتصلت بكِ!

- نعم... لقد اغلقت معي للتو... دعنا أولاً ندخل معاً لقسم الشرطة ونخبرهم بذلك..

- مهلاً من أين اتصلت؟!

- أنها في مدينة مجاورة ... وكما خمنت أنت... حجزتهما الثلوج.. ولكن يبدو أن الأمر أعجبهما... لن يعودا قبل أسبوع أو اثنين.

- ألم تذكر اسم المكان؟

هزت مِيا رأسها نفياً ليقول:

- أريني الرقم الذي اتصلت منه؟!

حدقت به.. وتذكرت كلام رفيقتها الذي وإن بدا مريباً فهي تثق برفيقتها وعليها تنفيذ ما تطلبه منها، لتقول ببسمة بدت بلهاء وهي تنظر لهاتفها:

- لقد حذفته عن طريق الخطأ... يبدو من سعادتي لم أعي هل أحفظ الرقم أم أحذفه؟!!

رمقها بشك ليقول:

- هل بدت طبيعة أثناء الحديث؟!

- نعم... بدت طبيعة ربما لم تخبرني لأنها تعلم أنني قد أسرع اليها... تعرف أنني مجنونة.

قالتها ضاحكة ليبتسم ليون قائلاً:

- وهل أنتِ كذلك؟!

همهمت مفكرة:

- امممممممممم... لا أعلم... ما رأيك أنت؟!

تأملها للحظات قائلاً بلهجة بدت مختلفة عليها:

- هذا شيء ستجيبه الأيام القادمة.. إذا قبلتِ أن نلتقي فيها.

لا تعلم لمَ شعرت أن الدماء تندفع إلى وجنتيها لتزيدها حُمرة، وحرارة جسدها ترتفع لتجيب:

- يسعدني هذا...

طالت نظارتهما لبعض حتى قال:

- أتعلمين أنكِ تبدين مختلفة تماماً عن الآنسة آني!!

أومأت بسعادة:

- أعلم... وهذا ما يجعلنا مقربتان... أنا أؤمن بأن العلاقة التي تقوم على التكامل أفضل من العلاقة التي تقوم على التوافق.

عقد حاجبيه متسائلاً:

- ماذا يعني هذا؟!

- أقصد أن الكثير من الناس يتصادقان لأنهما متوافقان في ميولهما وأفكارهما وربما أكثر من ذلك... وهذا أمر جيد ومريح لأي صديقين... لكن حين يكون الأمر مختلف.. أن تصادق أو تحب شخص يختلف عنك... تشعر أنه يكمل ما ليس فيك... أجد أن هذا أفضل بكثير... وهذا ما هو بيني وبين آني... هي تكمل العقل والهدوء الذي افتقدهما في حياتي وأنا أكمل عندها التهور والاندفاع الذي لا تجيدهما على الاطلاق.

ابتسم لمنطقها الذي بدا جيد ليقول:

- نظرية جيدة.. تستحق التطبيق.. وهل تطبق على الأصدقاء فقط؟ أم يمكن تطبيقها على الأحباء أيضاً؟!!

قالها وقد ضاقت عيناه متعلقة بعينيها التي هربت إلى مكان آخر وهي تردد:

- اممم.. أعتقد... نعم ... تطبق على أي علاقة.

قالتها بلهجة بدت مرتبكة لتلتفت إلى قسم الشرطة :

- أوه نسينا... دعنا ندخل القسم ونخبرهم بالأمر.

- حسناً سنفعل... هيا بنا.

****

احتل مكانها على جذع الشجرة الضخم... ترتسم أمامه ملامح وجهها ونظرة عينيها التي تغيرت كثيراً...

لم تعد تضيء سعادة برؤيته.. فقدت بريقها الذي أحب دوماً رؤيته...

حنين تغيرت!!.. تغيرت كثيراً...

يخفف على نفسه الألم بأنها أصبحت أقوى من ذي قبل وستتمكن من مجابهة الحياة وحدها... فهو لن يبقى بجوارها ليحميها.

"لا أتصور أن رفيق عملي قد يترك عمله من أجل امرأة"

كلمات باسم التي تقفز إلى عقله من حين لآخر.. برغم اندهاشه من تلك الكلمات... إلا أنه اجتاحه القلق من نفسه...

هل حقاً قد يصل حبه لها إلى المدى الذي يجعله يترك عمله ليبقى معها.

هز رأسه بعنف... فالفكرة لا تعجبه مطلقاً.. عمله هو حياته... شخصيته... طبيعته...

تركه يعني ترك كل هذا...

فهل سيعيش معها بلا شخصية ولا هوية!..

سيعيش حينها كمسخ لا هدف له..

إن أقصى أمانيه أن يحتفظ بكليهما...

حبه وعمله..

ولكن من داخله يعلم باستحالة ذلك...

القواعد واضحة... لا استثناءات..

كل القواعد لها شواذ إلا قواعد عمله..

"لمَ أحببتك حنين.. لمَ.. لمَ؟!!"

سؤال لا يبحث فيه عن إجابة...

وإنما إنكار...

إنكار على نفسه أنه سقط صريعاً في حبها وهو يعلم من هو ومن هي.

****

راقبت دخان فنجان قهوتها فبدا لها شبيهاً بأحلامها التي أضحت سراباً.. هواء يحمل لونًا ما.. لا تكاد تراه.. لا يمكنك إمساكه..

فقط كل ما تستطيع فعله هو الاستمرار في النظر إليه إلى أن يختفي من أمام عينيك..

وكأنه لم يكن..

وهكذا أصبح آدم.. شخص يمر من أمامها لا تكاد تعرفه...

تلمحه يتحدث.. يتحرك...

ولكن سرعان ما تشعر وكأنه لم يكن من قبل...

ليعود للظهور أمامها مجدداً.

متى ستتخلص من ذلك الشعور؟!..

متى ستفصل تماماً آدم عن ذلك الشخص الذي يتجول حولها؟..

ولكنها حتى عندما تحاول تجد ما يردعها عن الاستمرار.

"آدم لم يكذب بشأن اسمه"

ما الذي كان يعنيه هذا الرجل؟!...

كيف لم يكذب بشأن اسمه؟!... هل يحمل اسمين؟!..

أم أن اسمه مُركب مثلاً؟!.

"إذا استمريتِ في التحديق به هكذا ستشربينه بارداً!!"

بدا أن الصوت من عقلها لكن فهمها للمعنى أخبرها أن أحدهم يتحدث لها، ليستطيع دماغها تحديد صاحب الصوت، مما أجبرها على عدم الالتفات إليه..

فعدم الاهتمام به كان هو سلاحها الوحيد لتناسيه...

ولكنه لا يزال سلاح غير فعال على الإطلاق!!

عاد صوته من جديد من نقطة ما خلفها:

- التجاهل!.. هل تعتقدين أن هذا مجدياً؟!

اعتصرت قبضتيها لتشعر بوخز أظافرها مرددة:

- ابتعد عني.

تحرك لكن في اتجاهها قائلاً بنبرة باردة:

- أنا لم أقترب لأبتعد.. أنتِ من اقترب أكثر من اللازم!.

التفتت له بحدة بالغة وعيناها ترمقانه بغيظ..

اصطدم سعير عينيها بصقيع حدقتيه.. للحظة رأت عينا آدم الذى تعرفه... عينان كانتا تنظران لها بحب...

عينان ترمقانها الآن ببرود وصرامة...

صرامة أغضبتها وآلمتها.

ترقق الدمع في عينيها بعد أن خاصمها لفترة وهي تقول:

- لمَ تتحدث معي هكذا؟!.. لمَ أنت قاسي هكذا؟!.. أليس من المفترض أن تطلب الصفح؟!..

أليس من المفترض أن ترجوني أن أتفهم ما كنت تقوم به؟!.. أليس من المفترض أن تتمنى أن

أغفر لك؟!... أليس من المفترض أن ألمح في عينيك أي نظرة ندم أو حزن على ما سببته لي من ألم؟!

رفع حاجبيه مردداً:

- حقاً!!.. هل من المفترض أن أفعل كل هذا؟!!.. أليس كثيراً؟!

هزت رأسها:

- هل هذه حقاً طبيعتك؟.. هل أنت بلا قلب؟!

أشاح بوجهه بعيداً ليتحرك في اتجاه غرفته قائلاً:

- سيبرد فنجان قهوتك.. اشربيه أفضل.

أغلق الباب خلفه تاركاً إياها تُشوى في بركان غضبها وألمها..

تذكرت حين قذفت مِيا بكوبها في وجه باولو.. التفتت لفنجان قهوتها وشعرت أنها تريد أن تفعل المثل...

نعم تريد أن تقذفه بهذا..

تريده أن يتألم ولو ألم جسدي...

ولكنها لم تفعل أياً من هذا فقط تركت فنجانها وذهبت لغرفتها.

****

نقر نورمان على مكتبه برتابه قائلاً:

- إذاً لم يظهرا بعد؟!

أجابه محدثه:

- نعم سيدي... مازلنا نراقب البنك ومنزل الفتاة ومدرستها.. ولم تظهر في أي مكان منهم.

- قد يتنكرون للوصول للبنك!!

- وضعنا هذا في الحسبان سيدي... وننتبه جيداً لمن قد يحمل نفس الطول والحجم... لكننا نتأكد أنهما ليسا منهم.

استرخى في كرسيه وقد مط شفتيه:

- إلى متى سيستمر اختفائهما يا ترى؟!

لم يجد محدثه إجابه فآثر الصمت إلى أن قاطع جلستهما طرقات على باب المكتب ليدخل أحدهم حاملاً ورقة ما سلمها لنورمان الذي قرأها بحرص ثم رفع رأسه قائلاً:

- لقد سحبت رفيقتها وذلك المحامي بلاغ الاختفاء من قسم الشرطة... لابد أنها تواصلت معها بشكل أو بآخر.

لم يحتج الرجل كلمات أخرى ليقف قائلاً:

- سنتأكد من هذا سيدي.

****

لم تغادر غرفتها منذ آخر كلمات معه، استند على باب غرفته يراقب بابها.. يعلم أنها خلفه ربما تبكي.. تتألم، وبدلاً من أن يخفف ألمها.. أصبح لا يجيد إلا زيادته ضراوة، لا يستطيع أن يكن رقيقاً...

لقد قرر مسبقاً أنه سيجبرها على بغضه وبغض لحظاتها معه..

ترى هل اختار الطريقة الخاطئة؟.

"لا تزيد الضغط عليها... فتتركنا وتهرب للجانب الآخر"

كلمات قالها باسم لينبهه إلى أن ما يفعله من أجلها قد يضر بعمله الذي لا يريد خسارته أيضاً لأجلها..

يبدو أنه راق له أن يتصنع وجه مختلف عن آدم الذي عرفته، ربما أراد أن يؤكد لها أن آدم مجرد شخصية تمثيلية أتقنها لتحقيق هدفه،

لا يرى جدوى من أن تعرف الحقيقة...

أنه أحبها بصدق..

أنه الآن يتعذب كعذابها وربما أقسى...

فعليه أن يتعايش مع فكرة كرهه لها، أن يتقبل كل لوم وغضب وتقريع من ناحيتها..

إن يبقي هو المذنب وهي الضحية.

التفت لحركة باب المنزل ليرى باسم على عتبته ناظراً نحوه وبدت الجدية على ملامحه، عقد حاجبيه قائلاً:

- ما الجديد؟!

اقترب باسم منه قائلاً:

- سنتحرك قريباً.. علينا أن نتحدث إليها عما يجب أن تفعله.

أومأ آسر إيجاباً، ليتجه باسم إلى غرفة حنين طارقاً بابها:

- آنسة... يجب أن نتحدث.. لقد اقترب موعد خروجك من هنا.

مرت لحظات ليست بالطويلة لتخرج حنين له وبدى على عينيها بكاء جُفف حديثاً، نظر لها قليلاً قبل أن يشير لأقرب مقعد قائلاً:

- اجلسي.

تحركت بشكل آلى لتجلس وعيناها تنظر للا شيء

جلس باسم بينما ظل آسر في مكانه لكنه يستطيع سماعهما.

- نعتقد أن بطاقتنا في خزينة خاصة قام رفقي بشرائها في أحد البنوك قبل وفاته بأسبوع.. ولكننا لن نستطيع أن نفتحها إلا عن طريق ورثته.. وأنتِ وريثته الوحيدة... لقد أحضرت نسخة من وثيقة وفاة أبيكِ.. كل ما علينا فعله أن نذهب للبنك لتقدمي الوثيقة وأوراقك الثبوتية كي توضيحي صلة القرابة بينكما.. سيسمح لكِ بفتح الخزانة والحصول على ما فيها.. ابحثي عن بطاقة هاتف صغيرة وأعديها لنا.. وسينتهي كل شيء بعد ذلك.

صمت لحظات يرمقها فلم تبدي أي ردت فعل فسألها:

- هل في كلامي ما ليس واضح؟!

اكتفت بهز رأسها نفياً فأضاف:

- علينا أن نغير هيئتك قليلاً... أنهم يراقبون البنك طوال الوقت.

تحفز آسر لكلماته ليقترب قائلاً:

- وهل ستدخل البنك وحدها؟!

رمقه باسم لعدة ثوان ليقول:

- بالتأكيد لن تدخله وحدها... سترافقها زميلة لنا... ستكون تمويه جيد لها.. سنذهب بسيارة الأجرة وأنا سأكون بانتظارهما بالخارج بشكل طبيعي.

كان آسر بجوارها تماماً وهو يقول:

- سأذهب معكما إذاً.

مط باسم شفتيه قائلاً:

- وما الداعي لهذا؟!... أنه بنك كبير وحراسته شديدة.. ستكون بأمان في الداخل مع عميلتنا... لن يخاطروا بمهاجمتهما داخل البنك.. ليسوا بهذا الغباء!..

رد آسر باصرار:

- فليكن.. دعني أكمل مهمتي للنهاية.. وأذهب معكما.

اعتصرت قبضتيها لا شعورياً وعقلها يردد كلمته..

"مهمتي؟!"

هز باسم رأسه قائلاً:

- أرى أنك لازلت مصاب ليس من الحكمة خروجك معنا.

- أصبحت بخير.. لا أرى مشكلة في وجود طرف ثالث معكما يراقب من بعيد... سأستخدم سلاحي فقط ولن اشتبك جسدياً... هل يكفيك هذا؟!

صمت باسم مفكراً ليقول:

- حسناً.. ربما من الأفضل أن يكون هناك طرف ثالث يراقب.. سنذهب جميعاً... سيكون عليك تغيير هيئتك أنت أيضاً لمزيد من الحيطة.

أومأ آسر برأسه متفهماً.

ولم يضف أحد شيء فتحركت حنين لتعود لغرفتها بينما جلس آسر حيث كانت تجلس، ليقول:

- هل تعتقد أن تنكرها سيكفي؟!

- ربما لا... علينا أن نحتاط حال خروجها من البنك... قد يتعرفون عليها ويتبعون سيارتنا... لكن لا تقلق... دع أمر القيادة لي.. فهذا تخصصي... أعرف كيف أتخلص منهم... المهم أن تأخذ العميلة البطاقة منها فور حصولها عليها... سيكون هذا أكثر اطمئناناً.

- حسناً.

سادهما الصمت للحظات كان باسم يطالع وجه آسر الذي بدى مهموماً:

- هل لي أن أسألك سؤال؟!

التفت آسر له مستفهماً، فأردف:

- لمَ تريد أن تدفعها لكرهك؟!.. لا أفهم بأي منطق تفكر؟!... ما المشكلة في أن تتفاهما وتفترقا متسامحان.

حدق به آسر وبدا عليه الدهشة ليبستم باسم قائلاً:

- أتعتقد حقاً أنني بلا قلب؟!... أنا فقد أنظر للأمور بعقلانية أكثر... وأرى أن مادام ما حدث بينكما سينتهي لا محالة... ما الذي يمنع من أن ينتهي كل شيء وأنتما متصافحان لا متغاضبان.

لم يعلق آسر فقام باسم قائلاً:

- سأذهب لشراء بعض الملابس لها وكذلك شعراً مستعار بعدة ألوان... لنرى أيهم أنسب وأكثر بعداً عن هيئتها الحقيقية.

قالها وانصرف ليترك آسر مكانه يفكر في كلماته.

****

راقب عقارب ساعته وهي تدور ببطء منتظراً وصولها، ابتسم وهو يتذكر كيف كان يتلعثم وهو يطلب لقاءها وتناول الغداء معها اليوم...

وكأنه مراهق في الثامنة عشر يترقب موافقة أول فتاة لموعد معه، هو يعتبره موعداً لأنه لقاء لا هدف له إلا رغبته في أن يكون معها، ليس للبحث عن آني ولا للحديث عن أليكس.. وإنما يريد أن يتحدث معها عنها وعنه..

يريد أن يتعرف إليها أكثر.

تراه من بعيد في انتظارها.. ينظر لساعته من حين لآخر، عدلت كوفيتها مع نظرة سريعة لهيئتها، ديفيد ليس بالشخص المثير من وجهة نظرها.. لكنها فقط تشعر بالراحة معه.. قضاء الوقت معه ليس مملاً ولا سيء.. فلمَ تمانع، هي لا تشعر نحوه بشيء.. ناهيك عن أي مشاعر كمشاعرها لباولو الذي لم تحب أحد كما أحبته، لكنها قررت ألا تنظر لذلك طويلاً..

مادامت ستمضي وقتاً سعيداً فلا بأس.. وكم تفتقد وجود آني كثيراً معها.. لديها الكثير لتخبره لها.. خاصة عن ذلك المدعو ديفيد!!

اعتدل حين لمحها تقترب، استقبلها بابتسامة ودودة ليعدل لها كرسيها لتجلس فوقه قائلاً:

- سعيد حقاً أنكِ قبلتِ دعوتي.

اتسعت ابتسامتها:

- وأنا أيضاً سعيدة بدعوتك لي.

صمت للحظات لا يعرف بما يبدأ، فتحدث عن الشيء الذي جمعها معاً:

- كيف حال الانسة آني؟!

هزت كتفيها:

- لم تتصل بي ثانية.. لكن بما أنها أخبرتني أنها قد تغيب لنهاية الأسبوع فليس عليّ سوى الانتظار.

- بلغيها سلامي حين تتصل.

أومأت برأسها إيجاباً، ليتحول حديثه عما تحب تأكل، ليطلبا الطعام..

وتبدأ هي أيضاً بالحديث معه.. لتصبح هي الطرف الأكثر كلاماً، وهو الأكثر استماعاً، لكنه كان مبتسماً وكذلك هي..

يروق له مراقبتها حين تتحدث.. وهي تلوح بكفيها أو تحرك عضلات وجهها انفعالاً مع كل كلمة...

وكأنها تمتلك طاقة لا تنضب... طاقة مازال يتمنى أن يمتلك بعضاً منها.

قررا بعد انتهاء وجبتهما التجول قليلاً، ليبدأ هو بالحديث وكان عن أليكس، قص عليها كيف كانت فرحته بكونه سيكون أباً، والشعور الذي لم يستطع وصفه حين حمله بين ذراعيه لأول مرة...

ترقبه لأول ضحكاته... خطواته... كلماته..

ليرتسم الحزن عليه بحديثه عن فقد زوجته وكيف أصبح أليكس طفلاً آخر، كم شعر بالعجز عن كيفية التصرف معه..

كم تضايق وغضب من نفسه لأنه لم يكن راعي جيد له في ذلك الوقت، مما جعل حالته تزداد سوءً.

شعرت بالأسى من كلماته التي تقطر حزناً، من الجميل أن تعرف رجلاً يحمل هذا القدر من الحنان، حتى ولو سيبقى مجرد صديق، فهي لا تفكر في أي شيء آخر فيما يخصه، لكنها أصبحت تريد أن تتعرف عليه أكثر.. وأن تساعده في التغلب على حزنه.

أحاطهما الصمت لبعض الوقت لتقطعه بقولها:

- لقد كان يوماً مميزاً .. شكراً لك.

ابتسم مجيباً:

- أعتقد أن تميزه يكمن في كونك جزءً منه.. فأنتِ تملكين القدرة على إضافة التميز على ما حولك.

ضحكت ببهجة:

- حقاً.. أنا أفعل ذلك.. لم أكن أعر....

قطعت جملتها صوت سيارة فان وقفت أمامهما فجأة ليفتح بابها الجانبي وبدا وكأن أذرع كثيرة خرجت من هذا الباب تجذبها من كوفيتها بقوة، كانت مفاجأة لها فلم تجد إلا الصراخ.

ووصل لها صوت ديفيد يصيح:

- دعوها.. ماذا تفعلون؟!

وقبل أن تعي ما يحدث وجدت نفسها ملقاة على أرضية السيارة وأحدهم يوجه لها بخاخ ما، جعلها تسقط في الظلام في لحظات.

****

أوقف باسم سيارته ليجد حنين تجلس كعادتها على جذع الشجرة الضخم، ترجل من السيارة وحمل منها عدة أكياس واقترب منها قائلاً:

- أريدك أن تجربي تلك الملابس وكذلك الشعر المستعار، حاولي اختيار الشكل الأكثر بعداً عن حقيقتك.

أومأت إيجاباً دون أن تلتفت له، ظل مكانه يرمقها لترفع رأسها إليه قائلة:

- هل هناك شيء آخر؟!

مط شفتيه مهمهماً:

- امممممممم... في الحقيقة لا أصدق أنني سأقول هذا.. ولكنني سأقوله على كل حال.

وضع حمله أرضاً وجلس بجوارها، بدت مندهشة من تصرفه فظلت ترمقه بشك، داعب بعض الثلوج التي أمامه بيديه ثم نفض عنها الثلج قائلاً:

- ربما كنت أكثر الناس غضباً مما أصاب آسر، لكن من منا يستطيع التحكم في مشاعر من حوله.

ضاقت عيناها وقد تعلقت بشفتيه وكأنها تتأكد من الكلمات التي يقولها:

- فما حدث قد حدث.. ولن نستطيع تغييره.. الشيء الذي لا يروق لي.. تعاملكما مع الأمر.. هو قرر أن يدفعك لكرهه وأنتِ قررتِ تجاهله... ما كل هذا؟!... لمَ لا يمكنكما التعامل بنضج وعقلانية أكثر؟.

كررت كلماته بصوت مسموع:

- دفعي على كرهه!!

منحها نظرة جانبية سريعة ليعود ببصره للأمام ليمنحها لحظات صمت قبل أن يقول:

- آسر أحبك .. فعلاً.

ارتجافة قوية أصابت قلبها ، وانتقلت إلى سائر أوصالها ، هبت واقفة صائحة:

- ماذا حدث؟!... هل تعتقد أنني سأتخلى عنكم في اللحظة الأخيرة... هل تريد أن تجعلوني أعيش في وهم جديد... أنا لن أفعل شيئاً إلا ما تريدون؟... فما الداعي إلى الاستمرار في التمثيل وخداعي؟!

ارتسمت الصرامة على وجهه ليقول بلهجة جافة:

- بالضبط.. ما الداعي إلى الاستمرار في خداعك؟!.. أنتِ تجيبن على نفسك.

التقت أجفانها عدة مرات قبل أن تثبت ببصرها على وجهه وقد ارتسمت الحيرة على ملامحها ، قام باسم ودس يده في جيبي معطفه ليقول:

- أنا أقول الحقيقة... آسر أحبك بالفعل.. وهذا خطأ لا يغتفر منه أقر به أنا ، لكنه يدفع ثمنه الآن... فهو يعاني مثلك تماماً.. وما تفعلانه لا يزيدكما إلا معاناة وأنا لا أرى داعي لذلك... فالفراق قادم لا محالة... وآسر سيذهب ولن يبقى معكِ.. فلما لا تتسامحا وبدلاً من الذكرى الأليمة تحتفظا بذكرى جيدة.. لن أقول سعيدة.. ولكن على الأقل ربما تبتسما حينها.

برقت عيناها بدمعات وليدة ليبتسم قائلاً:

- تصافحا قبل الفراق.. هذا فقط ما أقصده.

تركها وقد عاد لحمل الأكياس، ودلف للمنزل ليقف محدقاً بآسر الذي على ما يبدو كان يراقبهما من خلف النافذة، استمر في سيره حتى توقف أمام غرفة حنين ووضع الأكياس أرضاً ليلتفت لآسر قائلاً:

- يوجد بالمنزل الأدوات اللازمة لتنكرك.

أومأ آسر برأسه قائلاً:

- نعم... فيما كنتما تتحدثان؟!

رفع باسم أحد حاجبيه مجيباً:

- فيما تعتقد أننا سنتحدث؟!.. أنت الشخص الغارق في حبها وليس أنا!.

عقد آسر حاجبيه مردداً:

- لا تكن سخيفاً.

- حسناً لن أكون سخيفاً... وعليك أنت أن تستعد.. فبعد غد يوم مهم.

عاد آسر لغرفته ليستلقي على فراشه وقد وضع كفه مكان جرحه الذي لا زال يؤلمه قليلاً عند الاستلقاء أو النهوض.

هل يمكنه أن يقول كلمة وداعاً؟.. أم أن تلك الكلمة لم تعد من حقه؟.. عليه أن يراقبها حتى تختفي من أمامه.. تختفي الى الأبد..

ستذهب وهي تحمل في عقلها فكرة واحدة..

أنه لم يحبها قط.. وأنها مجرد وسيلة له.

" ما المشكلة في أن تتفاهما وتفترقا متسامحان؟!"

يتمنى هذا حقاً...

يتمنى أن تمنحه نظرة الغفران قبل أن تذهب بعيداً... يتمنى أن يرى ابتسامة تخبره دون كلام..

"أتفهمك"..

لكنها مجرد أمنيات ولا يعلم هل حقاً يمكن أن تصبح حقيقة؟!..

****

وقفت خلف نافذتها تتابع هطول جديد للثلوج، منطقة الغابة تشهد الكثير منها، لطالما أحبت هطول الثلوج.. لكنه أصبح يحمل ذكرى كثيراً مؤلمة، مدت أصابعها تسحب سلسلة رفيعة احتفظت بها حول عنقها لكنها لم تسمح لأحد برؤيتها بارتدائها كنزة طويلة العنق، تلمست القلب الفضي المعلق بها.. لا زالت ذكراه تتأرجح في عقلها ما بين السعادة والحزن...

ما بين الصدق والكذب... لم تستطع التخلص منه..

كم حاولت تمزيقه عن عنقها لكنها تشعر وكأنها تقطع جزء من جسدها فتتركه ثانية...

اعتصرت القلب الصغير بأناملها.. وكلمات صاحبه تنساب إلى عقلها..

"إنه قلبي... فابقيه بجوار قلبك طوال الوقت."

أكان صادقاً حقاً؟!... هل ما قاله رفيقه صحيحاً؟.. هو أحبها كما أحبته!!

كم تريد تصديق هذا؟...

كم تريد أن تتخلص من شعور الغبية.. الحمقاء الذي يتلبسها طوال الوقت..

على الاقل ستكون المشاعر التي تصورتها حقيقة كذلك فعلاً.

ظهرت بسمة حزينة على شفتيها وملامحه الجامدة التي أجاد رسمها على وجهه تظهر أمامها ، ملامح المفترض انها عكس ما يخفي...

هو يجيد التمثيل حقاً والإدعاء.

هزت رأسها في حيرة..

كيف يمكنها التأكد من أشياء متضادة بالفعل، هل أحبها أم لم يحبها؟... هل يدعي خداعها أم خدعها بالفعل؟!

عقلها يرفض تصديق كلام باسم وقلبها يهفو للعكس..

فتلك الراحة الغريبة التي تسربت لقلبها بعد كلمات باسم تؤكد لها أن قلبها الأحمق مال لما يحب.. كالعادة!!.

****

عقله يدور في هوة مظلمة، يشعر ببطء باستقرار جسده على أرض صلبه، عيناه مثقالتان وكأنهما تحملان أطنان من الحجارة، جاهد بالفعل لفتحهما بدأ عقله يستعيد وعيه.

استقرت عيناه أخيراً على سقف يعلوه، بدا أنه في مكان لا يألفه..

ما زالت رائحة المخدر النفاذة تصل لأنفه، حاول التركيز أكثر ليتذكر الذي حدث...

مِيا.. كان على موعد معها... كانا يمضيان الوقت معاً...

حتى..

اتسعت عيناه وصوت صراخ مِيا يعود لعقله كآخر ما سمعه قبل أن يستقبل أنفه ذلك المخدر ليغيب عن الوعي.

حاول الاعتدال لكنه اكتشف أنه مقيد اليدين والقدمين، حرك رأسه حسبما استطاع، لتتسع عيناه في ذهول وهو يحدق بمِيا الملقاة بجوارة مقيدة هي الأخرى دون حركة فتح شفتيه منادياً:

- مِيا.. مِيا!... استيقظي... مِيا.. اجيبيني.

لكنها لم تحرك حتى جفن، ركز بصره بجسدها ليلحظ تنفسها من عدمه فاستراح قليلاً حين شعر بتنفسها الرتيب.

دار ببصره في المكان الذي بدا شبيهة بقبو...

يبعد عنه درج خشبي لأعلى ينتهي عند باب مغلق تعلق بصره بالباب للحظات قبل أن يبدأ في الصياح:

- هل من أحد هنا!!!؟!... اجيبوني... من هنا!!!!؟!!

مر دقيقة... اثنتان... خمسة ولا مجيب، ليكرر صياحه مرة بعد مرة دون رد..

شعر بالتعب ليريح رأسه على الأرض وظل بعينيه مع وجه مِيا النائم وفي عقله يدور ألف سؤال وسؤال!!

مر الوقت دون أن يدري عنه شيئاً، لازالت مِيا بحالتها لا تستجيب لندائه حتى أنه أصابه القلق عليها، ولم يكن هذا فقط ما يقلقه..

ابنه أليكس..لا يعلم كم مر عليه فاقداً للوعي...

رفع رأسه مجدداً ليعيد ندائه الذي لا يجيبه إلا الصمت.

التفت لمِيا ليزحف نحوها..

واقترب منها أكثر حتى أصبح وجهه مقابل وجهها تماماً.

- مِيا.. مِيا استيقظي.. مِيا أرجوكِ.

ضرب جبهته بجبهتها برفق وهو يعيد ندائه حتى بدت أجفانها بالحركة، أرجع رأسه للوراء كي لا يفزعها حين تفتح عينيها لينادي:

- مِيا... مِيا هل تسمعيني؟!

أصدرت همهمات متقطعة وهي تحرك رأسها وتحاول فتح عينيها لتظهر صورة مشوشة أمامها اتضحت رويداً رويداً لتهمس:

- ديفيد.. هذا أنت؟!

تنفس براحة لاستيقاظها أخيراً:

- نعم مِيا هذا أنا.. هل أنتِ بخير؟!

حاولت التحرك لكنها شعرت بعدم قدرتها على ذلك، لتتسائل:

- أين انا؟... لمَ لا أستطيع تحريك يديّ؟... لمَ أشعر أنني نائمة على الأرض؟.

- مِيا افيقي.. أننا بالفعل على الأرض... ومقيدان.. لقد تم اختطافنا.

ضاقت عيناها في محاولة للتركيز واستيعاب ما تسمع، حتى استطاع عقلها ترتيب الأحداث مجدداً...

فاتسعت عيناها لتصرخ بكل ما أوتيت من قوة.

حتى أن ديفيد أغلق عينيه وشعر بألم في أذنيه:

- يا الهي مِيا توقفي... سأفقد حاسة السمع!!

لكنها لم تتوقف واستمرت في اطلاق صرخاتها المتتالية حتى صاح ديفيد:

- مِيا.. اصمتي.

انقطع صوتها وهي تحدق به بعينين ترتجفان، زفر بقوة مردفاً:

- من أين تأتين بذلك الصوت؟؟

دارت بعينيها في المكان قائلة بفزع:

- ما الذي يجري؟... لمَ يقوم أحد باختطافنا؟؟

هز رأسه:

- لا أعلم.. لم يظهر أحد بعد.. ولكن بعد صيحاتك المتتالية سيظهر أحدهم حتماً.. أو أننا وحدنا هنا.

- يا الهي!.. يا الهي!!.

كانت ترتجف خوفاً فنظر لها مطمئناً:

- لا تخافي مِيا.. لا تخافي أنا هنا معكِ.

حاولت الابتسام وهي تومىء برأسها إيجابا لكنها كانت بسمة معبئة بالخوف كحال قلبها الذي كاد أن يتوقف حين استمعت لحركة باب ما قريب منها ، رفع ديفيد رأسه ليرى أحدهم يفتح باب القبو ويهبط درجات الدرج القليلة مقترباً منهما ، عقد ديفيد حاجبيه محدقاً بهذا الغريب الذي لم يستطيع تميزه بسبب الكوفية العريضة التي يحيط بها وجهه ليقول:

- من أنت؟!.. وماذا تريد منا؟!!

وقف الرجل يرمقهما فحسب... بينما قلب مِيا يقرع صدرها بقوة!!

ألقى سؤاله وعقله يعجز عن طرح أي احتمالات...

من هذا الرجل؟!...

وما الذي يدفعه لاختطافهما؟!..

رد فعل مِيا يؤكد له أنها أيضا تجهل تماماً ما يحدث...

هناك حلقة مفقودة وهو ينتظر ايجادها عند هذا الرجل الغريب.

سحب الرجل مقعداً تحطم مسنده وجلس عليه ليراقبهما قليلاً ، بينما تعلقت به أعينهما ثم استقرت عيناه على وجه مِيا التي ارتجف وجهها من نظرته ليقول:

- أين آني؟!!

بهتت مِيا للسؤال وعقد ديفيد حاجبيه..

فأخر ما قد تصورا سماعه منه هو هذا السؤال!!.

لتقول مِيا بعد استيعاب:

- ماذا قلت؟!

- كنتِ تبحثين عن رفيقتك وقدمتِ بلاغ للشرطة.. ولكنك قمتِ بإلغائه.. ليس لهذا إلا تفسيراً واحداً..

صمت قليلاً وأردف بتقرير:

- أنتِ عرفتِ أين هي... إذاً أين هي؟!

ابتلعت مِيا ريقها بصعوبة.. هل كل ما يحدث الآن بسبب آني؟!.. آني؟!...

مستحيل..

مستحيل أن تتورط رفيقتها مع أشخاص كهؤلاء... مستحيل أن تتسبب في تعريضها للخطر هكذا؟!...

إذاً فمن هؤلاء؟.. وماذا يريدون من صديقتها الوحيدة؟.. ولمَ يسألون عنها؟!

التفتت لديفيد ترجو المشورة لكنه كان ينظر لها بحيرة أيضاً وإن منحها نظرة تحذيرية، قرأها الرجل في الحال فنهض من مكانه ليسحب ديفيد من شعر رأسه بقسوة جعلته يتأوه وجعل مِيا تصرخ:

- ماذا تفعل؟!.. دعه وشأنه.

منحها نظرة صارمة ليقول بلهجة مخيفة:

- اجيبيني إذاً.. أين رفيقتك؟!

- ماذا تريد منها؟!

سألته برجاء، فترك رأس ديفيد قائلاً:

- لديها شيء يخصنا... لا تقلقي... لن نؤذها... فقط أخبرينا أين هي؟.

لم يطمئنها هذا مطلقاً... لكنها بالفعل لا تعرف أين هي، فهل سيصدقها؟!

بللت شفتيها:

- أنا.. أنا لا أعرف أين هي بالظبط؟!

عقد الرجل حاجبيه متسائلاً:

- ما الذي تعرفينه إذاً؟!

دارت عيناها في محجريها قبل أن تثبتهما على وجهه:

- أعرف أنها ليست هنا... فقط.

ارتسم الغضب على وجهه في لحظات وفي ثواني قليلة وجدت فوهة مسدس ملتصقة بصدغ ديفيد وصوت الرجل يصل لأذنيها:

- حقاً... هل تريدين أن ترين وجه صديقك هذا ممزق إلى أشلاء؟!

ارتسم المشهد أمام عينيها لتهز رأسها بعنف مرددة:

- لا... صدقني.. أنا لا أعرف أين هي.. لا أعرف.

سحب الرجل صمام أمان المسدس وبدا وكأنه في استعداد لإطلاقه على رأس ديفيد الذي لا شعورياً أغلق عينيه وكأنه في انتظار موته ولم يرى في ظلمته إلا صورة ابنه الوحيد..

لتصرخ ميا:

- لاااااا... أرجوك... لا أعرف إلا أنها مع آدم... أقسم لك لم تخبرني مكانها... صدقني... صدقني.

رمقها الرجل طويلاً.. كان يقرأ الصدق في ملامح وجهها المرتعبة، فأعاد صمام الأمان إلى موضعه، ونهض قائماً:

- حسناً... سأعود لكما.. لا تتحركا... صحيح.. أنتما بالفعل لا يمكنكما التحرك!.

قالها مستهزءً.. لينصرف تاركاً اثنين في أقصى لحظات رعبها وحيرتهما.

****

عقد نورمان حاجبيه وهو يستمع لمحدثه عبر الهاتف ليقول:

- توقعت هذا بعض الشيء.. لن يسمحوا لها أن تخبر رفيقتها بمكانها.. هي معهم الآن.. أثق بهذا.

عاد لصمته ليستمع لاقتراح من محدثه... لترتسم بسمة خبيثة على شفتيه وهو يقول:

- فكرة لا بأس بها... نفذها... سيخرجون من جحرهم قريباً!.

****

تأوهت ميا وهي تحاول تغيير وضعها مجدداً:

- آآآآآه.... هذا مؤلم... لقد تعبت.

لم يعلق ديفيد بشيء، فرفعت بصرها إليه قائلة:

- ديفيد.. إلى متى سنبقى هنا؟!

- إلى أن يجدوا آني.

زفرت قائلة:

- أكاد أجن.... ماذا يريدون من آني؟... آني لا يمكن أن تتورط مع أناس كهؤلاء.

ضيق ديفيد عينيه قائلاً:

- هي لم تختفي وحدها.. كان معها شخصاً آخر.. ربما يكون هو السبب.

اتسعت عيناها مرددة:

- ماذا؟!... تقصد آدم.

- نعم .. آدم.

قالها بلهجة بدت واثقة أكثر منها متشككة.

لتهز ميا راسها نفياً:

- مستحيل!!...

وللحظة ظهرت صورة باولو أمامها ليبدو الامتعاض على وجهها مردفة:

- بل.. جائز... كل شيء جائز حقاً... ماذا سنفعل؟!

أجاب بعجز مؤلم:

- وماذا يمكننا أن نفعل؟!

وصل لها ألمه فتعلق بصرها به قليلاً لتقول:

- تفكر في أليكس؟!!

أومأ برأسه بصمت لتقول:

- هل معه أحد؟!

- المربية تبقى معه لكن المساء قد حل وهي تعلم إذا تأخرت ستذهب به لجارة لي... أعتقد أنه عندها الآن.

- سيكون بخير لا تقلق.

ابتسم ممتناً:

- شكراً لكِ.

انزوت ابتسامته في الحال مع عودة الرجل الملثم وبدون قول كلمة واحدة اقترب من ديفيد ليفك قيد قدمه ويرغمه على الوقوف..

تصورت مِيا أنه سيفعل المثل معها لكنه بدأ في سحب ديفيد دون حتى الالتفات لها لتصرخ:

- مهلاً... انتظر... إلى أين تأخذه؟!

كان هذا سؤال ديفيد أيضاً للرجل وهو يحاول مقاومته لكنه أخرج سلاحه وألصقه برأس ديفيد قائلاً:

- توقف عن هذا إذا أردت العودة لابنك... نفذ ما نريد فحسب ولن يؤذى أحداً.

توقف عن المقاومة وتحرك معه وصراخ مِيا يتبعه، أراد أن يلتفت.. ينظر لها ولو للمرة الأخيرة فشيء ما يخبره أن حياتهما بالفعل على المحك... لكن إحساسه بالضعف وعدم قدرته على فعل شيء أرغماه على عدم النظر لها حتى اختفى صوتها من خلفه ليقذفه الرجل في سيارة شبية بتلك التي تم اختطافهما فيها.. ويقوم بتعصيب عينيه بقطعة قماش.

انطلقت السيارة وبقى ديفيد على حاله.. شعر بأنهم تحركوا لمسافة ليست بالقصيرة.. لقد ابتعد كثيراً وهو حتى لا يستطيع أن يرى أين كان ولا إلى أين يذهب... ولم يزاحم تفكيره عن ابنه الوحيد إلا تلك المرأة... مِيا.

توقفت السيارة أخيراً، ليجذبه أحدهم خارجها كان السير صعباً جداً وهو معصوب العينين... لكنه لم يسر كثيراً، بضع خطوات وحسب ثم شعر بنفسه في مصعد ما، ليخرج منه ويفتح باب ليدلف خلاله إلى أن استقر أخيراً أرضاً وصوت أحدهم يقول بالإنجليزية والتي يفهمها أيضاً:

- الصباح اقترب... فلنستمر في المراقبة وإذا ظهرا، تعرف ما الذي يجب أن تفعله مع هذا... وأنا سأعود إلى حيث الفتاة... سأنتظر اتصالك.

لم يسمع ديفيد الرد، ولم يستطع أن يعرف كم شخص معه في نفس المكان لكنه فقط تأكد أن الرجل الذي اصطحبه إلى هنا قد عاد الى مِيا.

استعاد كلمات الرجل...

عن أي مراقبة يتحدث؟.. ومن اللذان سيظهرا؟

وهل هو المقصود بكلمة.. هذا؟!!

أسئلة عديدة لم يجد لها إجابة...

ومع تعبه والهدوء الذي حوله غلبه النعاس لينام.

****

كان صباحاً قاتماً... هكذا شعرت...

وضعت يديها على صدرها الذي كان منقبضاً... شعور غريب بالاختناق لا تدري سببه... أو هي تدري لكنها تكابر...

فاليوم هو آخر يوم لها معه.. لقد انتظرت هذا اليوم كثيراً منذ دخلت هذا المنزل لكنها الآن تبدو كمن يخشاه..

فكلمات باسم لا تكف عن الصدح في عقلها، تريد أن تسمعها منه.

أحبها كما أحببته..

حتى لو كان الأمر سينتهي هنا كما قال باسم...

ولكن..

هل هي غاضبة فقط لأنها تظن أنه لم يحبها أم غاضبة لأنه خدعها؟!...

الاعتراف بالحب هل يغفر الذنب؟!!

سؤال لا تعرف له إجابة..

ويومها سينتهي دون أن تجد له إجابة وسيبقى آدم أو آسر مجرد وهم عاشته وحدها ودفنته داخلها.

ثبتت شعراً مستعاراً على رأسها... ذي لون أحمر...

ووضعت نظارة شمسية كبيرة تخفي الكثير من ملامحها...

وأحاطت رقبتها بكوفية سوداء عريضة كي تدفن بها النصف السفلي من وجهها..

كان لابد من عدم تغيير ملامح وجهها كي لا تختلف عن صورتها في بطاقتها الشخصية التي ستقدمها لموظف البنك...

هكذا أوضح لها باسم.

طرقات على الباب تنذر بقرب الرحيل، تلفتت حولها.. لا تصدق أنها تودع تلك الجدران التي أحاطتها في أسوأ لحظات حياتها...

فبعد الحصول على البطاقة سيفترقان..

وستذهب هي إلى بيتها وعملها وحياتها السابقة.. التي بالتأكيد لن تعد كسابق عهدها...

اتجهت للباب بخطوات مثقلة برغبة البقاء.

أشقر!!

أصبح آسر أشقر بالفعل...

قد صبغ شعره ولحيته باللون الأشقر بل ومنح بشرته لون أبيض...

غير لونه القمحي المعتاد...

بدا مختلفاً تماماً خاصة مع عينيه التي اكتسبت لوناً أزرقاً...

لقد أصبح أوربياً تماماً.

ظلت تحدق به دون وعي فحتى بعد تغير لون ملامحه إلا أنه ظل وسيماً لكنها بالتأكيد تفضل ملامحه الشرقية..

طال وقوفهما وصمتهما... ولم يقطعه غير صوت باسم:

- العميلة المساعدة في طريقها إلينا.. سننتظرها قليلاً.

لم يلتفت له أحدهما فمط شفتيه مردداً:

- سأنتظرها في الخارج.

خفضت حنين عينيها وهي تهم بإغلاق باب غرفتها.. فأوقفها بقوله:

- لعله آخر لقاء بيننا... فهل يمكننا أن نتحدث ولو للمرة الأخيرة.

سكتت وطال سكوتها... لتستدير وتجلس على طرف فراشها..

خطا لداخل غرفتها وجلس في مقعد أمامها وبعد شهيق عميق قال:

- كنتِ أبغض الناس إلى قلبي.. عندما رأيتك لأول مرة.. شعرت وكأن دماء أحمد تغرق كفيكِ... أحمد لم يكن مجرد زميل.. كان أخي الصغير... والمفترض أن يحمي الأخ الأكبر الأخ الأصغر لا العكس... وهذا ما فعله أحمد.. هو من حماني.. هو من تلاقى الرصاصات بدلاً مني... لا يمكنك استيعاب مشاعري حينها.

جز على أسنانه وكأنه يكتم مشاعر تجددت داخله لمجرد الذكرى..

كانت تراقبه بعينيها تبصر ملامح ألم ترتسم على وجهه.

- كنتِ بالنسبة لي وسيلة الانتقام الوحيدة التي أملكها.. كنتِ صورة مصغرة لرجل مخادع تسبب في كل ذلك... ولا أعرف كيف بدلتِ كل هذا بسرعة كبيرة... كيف استطعتِ أن تمحي صورة شيطانية حفرتها بداخلي لكِ وترسمي بدلاً منها صورة ملائكية.. صورة لفتاة لا تحمل داخلها إلا قلب أبيض.. قلب.. تمنيت أن يحويني أنا.. أنا فقط.

ضاقت عيناها تتفحص ملامحه أكثر...

لأول مرة منذ أن تحول إلى آسر تشعر أنها أمام آدم الذي تعرفه..

لكن هل يمكنها تصديقه فآدم في الأصل كذبة!!

كانت تبدو هادئة تماماً.. نظارتها تخفي الكثير من ملامحها..

زفر مردفاً:

- ربما لا تصدقيني... لكن... حين كنا على الجسر... حين منحتك تلك القلادة.. لم أكذب.. لم أكذب أبداً.

أخيراً سمحت له برؤية عينيها.. لم يتمالك نفسه عن الابتسام...

فلقد عاد بريق عيني حنين الذي يألفه جيداً، صحيح أنه مصحوب بعبرات لكنها عبرات زادت من ذلك البريق وجعلته أكثر تألقاً...

تابعها وهي تمد يدها إلى عنقها ليظهر بين أناملها القلب الصغير الذي اهداها اياه...

اتسعت ابتسامته فلقد تصور أنها تخلصت منها....

تلمست القلب بأناملها لتحتضنه قبضتها برقة قائلة:

- هل يمكنني تصديقك حقاً؟!!

أومأ برأسه إيجاباً:

- نعم حنين... صدقيني... صدقيني.

خفضت بصرها تتأمل القلب الصغير ثم خفته داخل ملابسها كما كان.... لتصمت لبرهة قبل أن تقول:

- أعلم أنني ساذجة... ويبدو أنني سأظل هكذا... وأعلم أيضاً ننني أثق بك... حتى لو خدعتني ثانية أعتقد أنني سأعود وأثق بك... لأنني لا يسعني إلا أن..

لترفع بصرها إليه قائلة بلسانها وقلبها:

- أن.. أثق بك.

المفترض أن تفرحه كلمتها... أن تسعده...

ولكن بدلاً من هذا آلمته...

شعر بمرارة في حلقه...

مرارة الفراق الوشيك، ابتلع ريقه بصعوبة ليقول:

- أشكرك.

ابتسمت في حزن ليغلفهما الصمت لدقائق...

فخطر في عقلها ما سمعته من باسم فقالت:

- صحيح.. ما قصة اسم آدم... لمَ اخترت هذا الاسم؟!

أراحه أن يتحدثا في شيء مختلف... بعيداً عن كل الخطر الذي قد يحيطهما بعد لحظات:

- جدي من اختاره وليس أنا.

عقدت حاجبيها بعدم فهم، فأردف:

- كنت الحفيد الأول للعائلة... أراد أبي أن يسميني آسر وأراد جدي لأمي أن يسميني آدم... فاقترحت أمي عليهما لكي لا يحدث شجار... أن يبقى اسمي في العائلة آدم ويكون الاسم الذي سيقترن باسم أبي في أوراقي آسر... وقبل أبي وجدي ذلك... فأصبح اسمي الرسمي في المدرسة والجامعة من بعدها ثم عملي هو آسر... أما آدم فبقي الاسم العائلي الذي يناديني به المقربون والمعارف ما عدا أبي طبعاً... لا أعرف لما اخترته حين تعرفت عليكِ.. لكنني سعيد أنكِ أصبحتِ من المقربين الذي يناديونني بآدم.

سمحت لعينيها أخيراً أن تنظر له بحب...

هل سامحته؟..

لا تدري!..

لكنها لا يمكنها أن تمنع نفسها من السرور لمجرد أنه قال أنه لم يكذب حين قال أحبك...

نعم لا زال بداخلها ذلك الغضب لأبيها...

هي لا زالت لا تصدق أن أباها خائن...

تأمل أن تجد الإجابة في تلك الخزينة التي يتحدثون عنها...

تريد أن تخبره كم كان مخطئاً حين ظن بأبيها الظنون...

ولكن إلى إن يحدث ذلك فكما قال باسم..

سيفترقان في كل الأحوال فلمَ لا يفترقان متصافحين.

جاءهما صوت نفير سيارة باسم.. فعرفا أن العميلة المساعدة وصلت وحان وقت الرحيل وقفت حنين وكذلك هو..

تبادلا النظرات لتضع نظارتها الشمسية قائلة:

- شيء في داخلي يتمنى ألا أجد تلك البطاقة التي تتحدثون عنها... لأنني لا أصدق أن أبي خائن... وشيء آخر يريد لكما أن تنهيا مهمتكما التي يبدو أن أبي كان طرفاً في كل مآسيها.

ثم رفعت كفها لترسم بسمة طفيفة على شفتيها مرددة:

- وداعاً آدم.

مد يده مصافحاً:

- وداعاً حنين.

تقدمته بخطوات ثابتة... واثقة.... مرتاحة.

خرجا معاً ليتقدما إلى سيارة الأجرة التي سيقودها باسم لتصل بهم إلى البنك...

كان باسم يقف وبجانبه العميلة المساعدة..

عقدت حنين حاجبيها وهي ترمق تلك الفتاة بعينيها....

فتاة في منتصف العشرينات.. ذات شعر أسود فاحم..

وجه بملامح دقيقة وجميلة.. وعينان تحمل قوة شخصية واضحة..

لتبتسم لها الفتاة:

- أهلاً حنين... ستناديني بجولي.. المفترض أننا رفيقتان فلنتصرف على هذا الأساس.

اكتفت حنين بايماءه من رأسها وعقلها يردد أسئلة لا علاقة لها بالأمر..

"هل ستبقى تلك الفتاة تعمل مع آدم؟... هل كل الفتيات اللاتي تعملن معه بهذا الشكل؟!"

ضاقت عيناها أكثر مع ملاحظة نظرات تلك الفتاة لآدم وهي تقول:

- رائد آسر... يسعدني العمل معك.

- وأنا ايضاً.

قالها آسر بطريقة تقليدية ليشير باسم لسيارة مجاورة:

- آسر.. ستقود أنت تلك.. حافظ على مسافة بيننا كي لا يلاحظ أحد تتبعك لنا... البنك له باب خلفي.. ربما من الأفضل أن تراقبه أنت وسأبقى أنا أمام الباب الرئيسي.. تحسباً لأي شيء.

أومأ آسر برأسه ليتخذ كلا منهم مكانه..

وتنطلق السيارتان.

.

.

داخل البنك..

استعلمت عن أمر خزانة أبيها فأرشدوها إلى مكتب إحدى الموظفات لتقف إمامها بينما خلفها جولي تتجول عيناها في المكان وكأنها تهوى المشاهدة.

طلبت منهما الموظفة الجلوس.. فجلستا...

فسألتها عن الأوارق الثبوتية ووثيقة وفاة أبيها ، فمنحتها اياها وهي تخلع نظارتها وتبدي وجهها أكثر لتراها الموظفة وهي تطالع الأوراق ثم ضربت لوحة مفاتيح حاسبها الألى..

لتلتفت لها:

- أهلاً آنسة رفقي... خالص مواساتي لوفاة والدك...

تقبلتها حنين بإماءة برأسها لتردف الموظفة:

- حين اشترى والدك الخزانة قد ترك لنا بياناتك وقال أنكِ الوحيدة المخول لها فتحها حين غيابه لأي سبب.. أرانا أحد توقيعاتك.. فهلا وقعتِ لنا هنا.. المفترض أن توقعي بنفس توقيعك المعتاد.

أخذت الورقة وزيلتها بتوقيعها المعتاد لتتفحصه الموظفة وتقارنه بما لديها فقامت قائلة:

- دقائق وسأعود لكِ... لتفتحي الخزانة بنفسك.

انتظرت حنين وهي تفرك كفيها بتوتر واضح فهمست جولي:

- لم أنتِ متوترة سيكون كل شيء على ما يرام؟

أومأت برأسها وهي ترمق الفتاة من خلف عدسات نظارتها الشمسية لتقول:

- أنتِ من موطننا الأصلي أيضاً؟..

ابتسمت جولي قائلة:

- نعم.. ألم أتحدث معكِ العربية؟

- صحيح!!... نسيت!!.. هل ستعملين معهما دوماً؟!

- هذا شيء ليس من المفترض أن نتحدث فيه... ويفضل أن نتوقف عن الحديث في هذه الأمور.

تبدو جدية أكثر من اللازم... ليست نوعه المفضل...

هدأت غيرتها غير المبررة بتلك الكلمات..

لتلتزم الصمت في انتظار عودة الموظفة.

التي عادت بالفعل وطلبت منها أن تتبعها... إلى أن وصلت بها إلى حجرة مستطيلة الشكل تتراص على جانبيها أرفف الخزائن... وتتوسطها منضدة حديدية طويلة، اتجهت لإحدى

الخزائن وفتحتها لتسحب منها صندوق ووضعته أمامها وتركتها وحدها، مدت يديها المرتعشتين لذلك الصندوق الكرتوني المغلق، فتحت غطاءه لترى فيه مظروف صغير وعلبة مخملية أنيقة ومبلغ مالي.

مدت يدها للمظروف لتخرج منه ورقة وأول ما وقعت عيناها على ما سطر فيها انهالت دموعها في الحال...

"ابنتي العزيزة حنين

كيف حالك صغيرتي؟... هل أنتِ بخير؟!.. ما دمتِ تقرأين هذه الرسالة فهذا يعني أنني لم أعد بجوارك وتركتك وحيدة وسط هذا العالم الموحش... سامحيني صغيرتي... لكم تمنيت أن أحميكِ طوال حياتك... ولكني لم أعرف كيف أفعل ذلك؟!

تصورت أن بانطوائي وابعادك عن الاختلاط بالآخرين سأبعد عنك الأخطار، لم يخطر ببالي أن الخطر سيأتي إلينا بشكل داهم دون حساب.

لا تسيئي الظن بي ابنتي.. لا أعرف مع أي الأطراف أنتِ الآن... لكني أرجوكِ... لا تخوني وطنك أبداً، حنين.. لا تفعليها ابنتي... لا تفعليها.

وأنا ما كنت لأفعلها... نهرتهم... سبتهم... تمنيت لو أن أصفعهم... لكنهم فقط فعلوا شيئاً واحداً... أروني صورة لكِ... كنتي تبتسمين في سعادة كعادتك.. وقالوا لي.. "أتريد أن نرسلها لأمها؟!"

لم أحتج أن أسمع المزيد... أنتِ حياتي حنين... كيف أتصور حياتي دونك؟... جاريتهم في طلبهم حفاظاً على حياتك وفي نفس الوقت كشفت نفسي للسلطات بشكل غير مباشر... قلت إذا تم القبض عليّ أفضل عندي من أن تقتلين على يد هؤلاء... لكن هذا لم يحدث... ووجدتهم هذه المرة يريدونني أن أخون نفسي... ذاتي.. ووطني.

لم أفعلها حنين... لا يمكن أن أفعلها... كيف يمكن أن أخون حب وشوق سنوات عشتها بعيداً عن وطني... فقررت أن تكون نهايتي في وطني حتى ولو تحت حكم إعدام جاسوس... سرقت معلومات حقيقية وتركت نفس الآثار التي تركتها مسبقاً.. وعرفوا بأمري... كنت أنتظر ظهورهم في أي وقت.. وظهروا... لكنهم يراقبونني فحسب... أعتقد أنهم لا يريدونني أنا فقط بل يريدون من ورائي أيضاً.. أليست فكرة جيدة أن أساعدهم في التعامل مع هؤلاء الأوغاد.... لكنها فكرة صعبة فهؤلاء الأوغاد يراقبونني أيضاً... سيعرفون

أنني تحدثت إليهم... لكني سأفعلها... سأفعلها وأطلب منهم المساعدة... سأتحدث إلى أحدهم وأخبره أني مضطر لما أفعل... ومستعد لفعل أي شيء... أي شيء.

أعلم أن تلك الخطوة قد تعني نهايتي على يد الآخرين... لكني فكرت في حفظ البطاقة هنا.. لكي تأخذيها أنتِ وتعيديها لأصحابها وتخبريهم بأنني ما كنت لأخون وطني قط... أخبريهم بحسن نيتي.. نقي عندهم سريرتي.

وأخيراً... كل عام وأنتِ بخير حبيبتي... لا أعرف هل سأكون هنا يوم ميلادك الذي بقي عليه القليل... فأحضرت لكِ هذه الهدية... في تلك العلبة صليب ذهبي.. هو هديتي لكِ.. أرجو أن يعجبك... وأيضا ستجدي داخله البطاقة التي يبحث عنها الجميع... أبقيها داخل الصليب وارتديه في عنقك حتى تعيدي البطاقة لأصحابها ولا تخبري أي أحد بذلك.

واعلمي أنكِ أغلى ما أملك في هذه الدنيا...

أحبك حنيني."

كانت قد جلست أرضاً وهي تستند على تلك الخزائن المتراصة خلفها ، تبكي بحرقة... وألم... مع بعض السرور لصدق ظنها بأبيها..

أبوها الذي عانى كثيراً من أجلها.. ضحى بسمعته كي تعيش هي...

لم يحتمل أن تتعرض للسوء حتى لو سينال لقب جاسوس!!

همهمت من بين شفتيها:

- أبي.. أتظن أن لقب جاسوس ما كان ليؤلمني؟!... ليتك تحدثت معي... ليتك طلبت مني أنا نغادر البلاد ونذهب بعيداً... وبقيت معي..

ضمت الخطاب لصدرها مردفة:

- أعلم أنك ما كنت لتفعلها أبي... أعلم أنك لست بخائن... أحبك أبي.. أحبك.

مسحت دموعها لتقف على قدميها ثانية.. أمسكت بالعلبة القطيفة لتفتحها بأصابع مرتجفة..

استقر داخلها صليب ذهبي عريض متعلق بسلسلة رفيعة..

ضمته بقبضتها إلى صدرها...

قربته من وجهها تتلمس رائحة أبيها... فهذا آخر ما أراد أن يهديها اياه. تذكرت أمر البطاقة...

فتحت الصليب لتجد بطاقة هاتف صغيرة مستقرة داخله في هدوء...

نظرت للبطاقة لترتسم بسمة ساخرة على شفتيها مرددة:

- أتعرفين كم قلبتِ حياتي رأساً على عقب؟!!

أغلقت الصليب عليها وارتدته حول عنقها كما طلب أبوها...

ستسلم آسر البطاقة وستحتفظ بهدية أبيها.

دست الخطاب في حقيبتها وكذلك النقود التي كانت في الخزينة لتتركها فارغة اتجهت للخارج لتمر بجوار الموظفة التي أومأت لها وطلبت منها أن تنتظرها في المكتب لإلغاء اجراءات حجز الخزينة.

تأكدت من أنها عادت تخفي وجهها بنظارتها وهي في طريقها لجولي، إلا أن أحدهم سحبها من كوفيتها ليزيحها عنها قائلاً:

- آنسة آني!!

كان صوتاً مألوفاً لكنها لم تستوعب مَن صاحبه..

التفتت ليرتفع حاجباها في دهشة مرددة:

- سيد ليون!!

تضاعفت دهشتها حين قال بلهجة بدت غريبة ومتوترة:

- دعينا نخرج من الباب الخلفي بسرعة قبل أن ترانا رفيقتك.

- ماذا تقول؟!

هز رأسه وهو يجذبها من يدها:

- لا يوجد وقت لهذا... لم يمهلني الكثير من الوقت يجب أن أخرج بكِ من هنا..

هل هي صدمة جديد في شخص آخر؟...

هل ليون هذا كان يعمل مع هؤلاء الأوغاد الذين ربما هم من قتلوا أباها.

كانت تحدق به في ذهول استفاقت منه لتجذب يدها:

- دعني... لن أذهب معك إلى أي مكان.

كان صوتها مرتفعاً فلفت لها الأنظار زاد التوتر على ملامح ديفيد:

- أرجوكِ لا تفعلي هذا.. سيقتلون ميا، آني.... سيقتلون ميا.

تجمد قلبها بين أضلعها وهي تردد كلماته:

- سيقتلون مِيا!!.

****

ترقبت جولي عودة حنين، وما أن لمحت الموظفة التي كانت معها حتى نهضت لكنها عقدت حاجبيها لعدم ظهور حنين فأسرعت نحو الموظفة تسألها عنها، فأشارت لنقطة ما في الخلف:

- تتحدث مع أحدهم!

ودون مزيد من التفكير أسرعت نحو المكان الذي أشارت له وهي تلعن نفسها أنها لم تذهب معها لتكون قريبة قدر المستطاع.

****

قلبها يتمزق لأشلاء... عقلها فقد القدرة على التفكير... نظراتها زاغت هنا وهناك...

ماذا يمكنها أن تفعل؟...

كلمات ديفيد تنهال على رأسها لتزيد العتمة فيه..

"لقد اختطفونا أنا ومِيا... والهدف كله أنتِ... يحتجزوننا منذ يومين... فرقوني عنها بالأمس... واحضروني إلى هنا من أجلك.. أنا لا أعرف ما الذي يريدونه منكِ... ما أعرفه أن مِيا معهم الآن... لو لم أخرج بكِ من هنا... سيقتلونها آني.. هل تريدين حقاً تركها تموت؟!!"

مِياَ رفيقتها الوحيدة.. أخر من تبقى لها في هذا العالم...

ذهبت أمها وكذلك أباها.. وآدم أيضاً رحل...

لم يبقَ لها سوى مِيا...

ولكن... كيف؟.. كيف تفعلها؟..

كيف لا تنفذ وصية أبيها الأخيرة وتعيد البطاقة لأصحابها؟؟...

كيف تترك آسر خلفها ليفشل في مهمته...

لم تشعر بديفيد الذي أمسك يدها ليسحبها معه في اتجاه الباب الخلفي للبنك...

سارت معه طواعية أو بمعنى أصح غير واعية!!

****

كان القلق يهدر كعاصفة هوجاء داخل صدره...

ليته كان معها بالداخل... كان يمكن أن يدخل خلفها كعميل مستقل تماماً.. ليراقب من بعيد فقط...

لمَ لم يفكر في ذلك بدلاً من شعوره بالعجز المطلق وهي أبعد ما تكون عن عينيه؟!.

"تبًا لك باسم!!"

قالها وهو يضرب مقود سيارته، هو يعلم أن باسم يفعل هذا لصالح العمل وهو معه كل الحق..

لكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير فيها بشكل مختلف..

أنها حبيبته... حبيبته!!

تحسس سلاحه الذي خبئه خلف ظهره... ثم عاد ليهز رأسه..

هو لن يحتاجه.. سينتهي كل شيء على ما يرام... سيتصل باسم به ليخبره أن حنين والعميلة خرجتا وينطلق خلفهم إلى مبنى السفارة كما اتفقا سابقاً.. وسيرتبون لحنين تذكرة سفر للإقامة بعيداً حماية لها من أذى هؤلاء الأوغاد...

سيفترقان...

هو يعلم هذا...

يكفيه أنها ستكون بخير...

"حنين ستكون بخير".

رددها بصوت مسموع إلى أن توقفت الكلمات في حلقه وقد اتسعت عيناه عن آخرهما وكأنه لا يصدق ما يرى...

أنها هي..

حنين تسير خلف ذلك الرجل... هو يذكره جيداً.. لكن ما هذا؟!...

لمَ هو هنا؟..

وإلى أين يأخذ حنين؟

"تذكر آسر.. لا تشابك جسدي وإذا حدث أي شيء اتصل بي"

وهل يوجد وقت للاتصال؟!!

قالها لنفسه وهو يندفع من السيارة إليها كسهم يشق طبقات الهواء.

****

غمرت وجهها آشعة الشمس التي قلما تظهر في سماء أمستردام في ذلك الوقت من العام..

استفاقت لتتلفت حولها..

إنها في الخارج ومازال ديفيد يجذبها خلفه إلى أن سمعت صوته ليعيد لها الإحساس بما حولها وبعبراتها التي تنهال على وجنتيها لا شعورياً...

التفتت لتنظر إلى عينيّ آسر الغاضبة وهي يعد و نحوها..

وبالفعل نجح في الوصول لهما... فتعلق بذراع حنين وهو يصيح:

- اتركها أيها الوغد.

تعلق بصرها بعينيه تخبره بالكثير لكنه لم يستطع أن يقرأ منها شيء... انتبه ديفيد له فقال:

- اتركها... دعنا نذهب.

وفي الثانية التاليه فوجيء آسر بمن يجذبه من الخلف فاستدار موجهاً لكمه لهذا الذي لم يره بعد لكنه تفادها بسهولة ليرد عليه بركله قوية في بطنه.. لو كان آسر في حالته الطبيعة لتحملها بشكل أفضل... لكن الركلة كانت قريبة جداً من إصابته فتصاعد الألم إلى رأسه بسرعة رهيبة أجبرته على السقوط على ركبتيه وقد وضع يديه مكان إصابته متأوهاً لتصيح حنين:

- آدم... آدم.

مد آسر ذراعه محاولاً التعلق بقدم خصمه كي يوقفه لكن إصابته والآلام التي يشعر بها لم تيسر عليه الأمر ليأتيه صوت حنين:

- سامحني آدم.. سامحني.

رفع بصره إليها وآلامه تغشي بصره.. ليجدهم يحملونها دافعين إياها داخل سيارة فان...

ليكون آخر نظرة يتلقاها منها هي نظرة مليئة بالدموع.

صرخ بما تبقى له من قوة:

- حنيين... لاااا.

اعتدل بصعوبة ليمسك بهاتفه وما أن أتاه صوت باسم حتى صاح:

- تعال بسرعة للباب الخلفي للبنك... أسرع باسم... أسرع.

تحامل على ألمه محاولاً الوقوف إلى أن وجد يد تساعده التفت لتلتقي عيناه بعينيّ جولي فصاح بها:

- أين كنتِ؟... كيف يحدث هذا؟

لا أعذار... قانون ثابت لا يتغير في عملهم.

لذا لم تقل إلا:

- دعنا نلحق بهم مازال لدينا فرصة.

اعتمد على ذراعها واقفاً ليتجه نحو سيارته فظهرت سيارة باسم الذي صاح:

- ماذا حدث؟!

صاح بها باسم وهو يحاول الخروج من السيارة فأشار له آسر بالبقاء ليتجه نحوه بترنح واضح هو وجولي ويركبا السيارة ليقول آسر:

- اسرع باسم... لقد ذهبوا من هنا.. أسرع خلف تلك السيارة.. إنها بالداخل... لقد حصلوا عليها... تباً.. لقد حصلوا عليها.

لم ينتظر باسم ليسأل..

بل انطلق خلف السيارة التي كانت مسرعة جداً...

بينما تقص عليهما جولي ما حدث في البنك ليأخذ منها آسر نهاية كلامها ويحكي ما رآه هو وباسم يستمع بتركيز مصاحب لتركيزه في مطاردة تلك السيارة التي ابتعدت بالفعل.

" يا الهي.. باسم سنفقدها!."

رددها آسر ليقول باسم بحزم:

- ألا زالت ترتدي القلادة؟

برقت عينا آسر وقد فهم سبب سؤال باسم ليجب:

- بلى... لا زالت ترتديها.

- لن نفقدها إذاً.

امسك بهاتفه ليحدث أحدهم:

- الكود ١٠٤... أريد تتبع الجهاز رقم ٥٥٣٧.. اتصل بي فور أن يتوقف.

اختفت السيارة من أمامهما بالفعل ليضرب آسر على الزجاج وقد التصق وجهه تقريباً به وهو يحاول أن يلحق بالسيارة مجدداً بعينيه فقط...

لا يتصور أنه فقدها بتلك البساطة... ألم يكن هو الذي سيحميها؟...

كيف يتركها تذهب معهم هكذا؟..

وضع يده مكان إصابته التي لا زالت تبرحه ألماً.. فلولا تلك الإصابة ما كان سيفقدها قط.

انتبه باسم له ليدس يده في جيبه قائلاً:

- خذ هذا.

أبصر آسر قرصين في كف رفيقه ليقول باسم قبل أن يسأله:

- مسكنات قوية... آخر ما أريده أن تسقط أنت أيضاً في أيديهم.. وأنا أعلم أنك لن تبقى في الخلف.

ابتلعهما آسر ليريح ظهره على مقعده محدقاً في الطريق ومنتظراً مواجهة قادمة وحاسمة.

****

غرقت في الظلام طوال الطريق بعد أن تم احاطت عينيها بقطعة قماش... أغرقتها بعبراتها التي لم تكف عنها...

صورة آسر لا تفارق عينيها...

نظرته الغاضبة ترمقها على الدوام... الألم الذي ارتسم على وجهه لينتقل إلى روحها لم يهدأ.

لقد خسر في النهاية... وهي أيضاً خسرت...

وهؤلاء الأوغاد هم من فازوا بكل شيء... لم يمنحوها حتى الفرصة لكي تعطي الخطاب لآسر لتبيض سيرة أبيها.

حتى هي الآن رغماً عنها أصبحت تعمل ضد وطنها بل وقلبها أيضاً.

أخيراً توقفت السيارة لتجد من يجذبها بقوة مرغماً إياها على النزول... سبت.. ولعنت.. وركلت..

كانت غاضبة.. وضعيفة.. وخائفة.

صعدت درجات ما.. ووصل إلى أنفها رائحة معبقة بالأتربة..

هي في مكان قديم.. هذا ما أحسته...

سارت خطوات أخرى مبعثرة إلى أن وصل إلى سمعها صوت افتقدته كثيراً.

- آني... آني.. أنتِ هنا؟!

وجهت وجهها ناحية الصوت صائحة:

- مِيا.. مِيا.. أنتِ بخير؟.

كانت تبكي وكذلك رفيقتها التي لم تجبها وأخيراً غمرت عينيها الأضواء لتغلقهما وتعيد فتحهما ببطء لتتضح لها الصورة.

أنه مبنى قديم يبدو أنه هجر لفترة طويلة.....

حجرة واسعة لا تحوي إلا بضع أثاث متهالك.. أعمدة تتوسط المكان مما يوحي أنه ليس مبنى سكني... ربما هو مبني تجاري أو مصنع قديم..

نوافذ زجاجية عريضة بعضها محطم.. تسمح لضوء الشمس من أن يملأ المكان..

الأتربة تغلف الجدران والأرضية التي استلقت عليها مِيا مقيدة وبجوارها وقف رجلان أحدهما في المقدمة وبدا عليه أنه الزعيم هنا والآخر خلفه..

ليقول زعيمهم الذي هو نورمان:

- واخيييييييييراً... آني هنا!.

ضمت قبضتيها اللاتين ترتجفان.. في محاولة زائفة للسيطرة على خوفها... وللحظة خطر على عقلها معنى أن تشعر بالأمان لمجرد أن آسر بجوارها..

هل سيعثر عليها؟!.. هل سيساعدها ؟...

حتى ولو من أجل البطاقة فقط....

لا يهمها...

هي فقط تريده هو أن يكون معها وليس هؤلاء.

دفع أحدهم ديفيد ليسقط بجوار مِيا التي قالت:

- احترس.

اعتدل ديفيد متألماً وهو يحدق بآني ففي هذه اللحظة كان الفضول هو المسيطر على تفكيره... الآن فقط سيفهم لمَ يحدث كل هذا؟!

التفتت لهما آني وعيناها يملؤها الأسف...

أرادت الاعتذار لهما... فكل ما هما فيه بسببها..

ابتسمت مِيا لها بسمة حزينة وتحمل بعض الدعم..

لتعد آني ببصرها لمن حدثها قائلة:

- ما ذنبهما؟ أنتما تريداني أنا.. فحرروهما حالاً.

ضحك مستهزئاً:

- أتلقين علينا الأوامر؟.... هنا.. أنا فقط من يفعل.. وتحريركم أمر سهل.. فقد ردي لنا ما نريد.

عقد ديفيد حاجبيه ليتبادل النظرات مع مِيا قبل أن يلتفتا في انتظار رد آني الذي جاء سريعاً:

- ليس لدي شيئا يخصكم.. فدعونا وشأننا.

رسم بسمة ماكرة على شفتيه مردداً:

- تشبيهين أباكِ.... عزيزتي لا داعي للمراوغة.. نعلم أن البطاقة معكِ.. فهاتيها.

هزت رأسها بإصرار:

- لم أعثر عليها... لم تكن في الخزينة.

همست مِيا:

- أي بطاقة؟!

هز ديفيد رأسه بغير فهم..

أشار نورمان بإصبعه فاندفع أحد رجاله إلى مِيا وديفيد ليوقفهما على قدميهما لتتسع عينا حنين وهي تراهما يصوبان أسلحتهما إلى رأسيهما.

- هيا يا صغيرتي.. بأيهما تحبين أن نبدأ؟!... من سيدفع حياته بسببك؟.

شهقت مِيا.. وتصلب جسد ديفيد وعيناه تعلقت بحنين التي هتفت:

- مهلاً... مهلاً... لا يمكنكم فعل هذا... لا شأن لهما بالقصة.. فقط دعوهما وسأبقى أنا... أرجوك.. دعوهما.

اقترب أحد رجاله قائلاً:

- سيدي.. تلك الفتاة تظننا نمزح.

عقد حاجبيه قائلاً بطريقة مصطنعة:

- امممممم.. معك حق... علينا أن نريها إذاً أننا لسنا هنا للهو!.

ألصق الممسك بمِيا سلاحه برأسها فأغلقت عينيها مرتجفة ليصيح ديفيد:

- آني.. ماذا أصابك؟!... أعطيهم ما يريدون ودعينا نخرج من هنا.

الحيرة كانت تعصف بها...

لا تعرف ماهية القرار الصحيح...

هل يمكنها أن تماطلهم حقاً؟...

هم لن يتهاونوا في قتل مِيا... لكنها تعلم أيضاً أنهم قد يقتلوهم جميعا إذا أعطتهم ما يريدون.

نادت بقلبها..

"آدم أين أنت؟!!"

- آني!!..

أيقظها صراخ ديفيد لتقول أخيراً:

- مهلاً.. سأعطيكم ما تريدون.

هدأت الأصوات إلا من نحيب مِيا الخافت، لتردف آني:

- ولكن... ما الذي يضمن لنا.. أنكم ستتركونا بعدها؟... ماذا لو قتلتمونا جميعاً؟.

هز الرجل رأسه قائلاً:

- ما هذه الافكار السيئة؟!.. وما الذي سنستفيده بقتلكم؟.. عزيزتي.. كل ما نريده هو البطاقة؟... ولن نراكم ثانية ولن ترونا ثانية... هيا... أعطينيها.

أطرقت برأسها أرضاً.. طبول تدوي في أذنيها... جفاف حارق أصاب حلقها.. وشعور بالخذلان يملأ جوارحها.

بأنامل مرتعشة تتلمس طريقها إلى صدرها إلى أن اصطدمتا بما تبحث عنه...

صليب ذهبي ضمته بقبضتها بقوة...

جاءها صوته:

- هل هذا وقت الصلاة؟!... أخبرتك أنكم ستخرجون أحياء... لمَ لا تثقي بي؟!

أغلقت عينيها محدثة نفسها..

"لن أثق إلا به"

اقترب أحد رجاله منه قائلاً:

- لم تكن ترتدي هذا حين دخلت إلى البنك؟!

عقد حاجبيه قائلاً:

- متأكد؟.

- تعلم ما هي موهبتي الوحيدة!... قوة الملاحظة.

أشار له فاقترب منها ومد يده يقبض على الصليب فابعدته بيدها قائلة:

- ماذا تريد؟!

أمرها بإعطائه إياه لكنها تشبثت به أكثر مرددة:

- أنه لي... ما شأنك به؟!

أمسك الرجل بقبضتها ليحرر الصليب من أصابعها لكنها صرخت به مجدداً أن يتركه، فلطم وجهها بقوة أسقطتها أرضاً فانشق طرف شفتيها عن الدماء... لتصرخ ميا باسمها ويصيح ديفيد لاعناً اياه.

وفي رحلة سقوطها القصيرة تمكن من ان يقطع سلسلة الصليب عن رقبتها ويأخذه عائداً لزعيمه.

تعلق بصرها بيده التي حملت آخر هدايا أبيها لها ، قلبه بين أصابعه ليتمتم:

- يبدو أنه يفتح!.

قام بفتحه بالفعل لتتسع عيناه في نشوة ويطلق ضحكة منتصرة:

- إنها هنا... يا الهي!!.. أخيراً... تباً لك رفقي... عطلتنا كثيراً.. أنت وابنتك.

أطرقت رأسها أرضاً قهراً ويأساً....

انتهى كل شيء بأسوأ مما قد تخيلت..

كم هي فاشلة... فاشلة!!

رددتها داخلها بلا توقف..

ارتأت لها ملامح وجه أبيها الحزينة... لم تفي بوعدها...

ضحى أبوها من أجلها وها هي تضيع آخر ما كان سينقي سيرته ولو على بعض الأوراق الرسمية في جهاز أمني.

أيقظها مما هي فيه صرخة مِيا:

- لماذا؟.. لماذا؟... قلت أنك ستتركنا نذهب.

انتبهت إلى الأسلحة المصوبة إليهم، لتسمع زعيمهم يقول:

- حقاً قلت هذا!!... لست ممن يحافظون على وعودهم... لا نضمن أفعالكم بعد تركككم.. لا نريد مشاكل.. علينا مغادرة البلدة في هدوء ولن نسمح لكم بعرقلتنا.. فالحل الأفضل عدم ترك أي أثر خلفنا وأنتم أصبحتم هذا الأثر!.

انكمشت مِيا وهي تضم ركبتيها إلى صدرها منتحبة:

- لا أريد أن أموت.. لا أريد.

نظر لها ديفيد وقد تألم قلبه لخوفها فقال:

- لن نكون عائق لكم... لن نتحدث عنكم... فقط دعونا وشأننا.

جاءهم صوت حنين بارداً:

- كف عن استعطافهم فهم بلا قلب.

التفت لها ليرى وجه جامد وعينين تحجرتا فيهما الدموع، فابتسم زعيمهم قائلاً:

- تبدين أذكى من أبيكِ؟... لكنه أيضا كان عبقرياً في مجاله وغبياً معنا.

عقدت حاجبيها ليرتسم بعض الغضب على ملامحها:

- أنتم قتلتموه!!

رسمت السخرية بسمة على شفتيه وهو يقول:

- هو من قتل نفسه حين ظن أنه سيسلم نفسه ويسلمنا معه... أحمق.

رفع القلادة أمام وجهه لتتأرجح بين أصابعه:

- نحن من فاز بالنهاية... نحن... تخلصوا منهم والحقوا بنا.

تحرك مع واحدٍ منهم وبقي اثنان لا زالا يشهران سلاحهما في وجه رهائنهم الثلاث.

****

أوقف باسم السيارة ليقفز منها راكبيها..

عقد باسم حاجبيه وهو يتفحص المكان بعينيه..

يبدو مبنى قديم...

من طابقين فقط لكنه يأخذ مساحة كبيرة عرضاً.

رفع سبابته مشيراً للجهة الشرقية:

- إنها هناك.

انطلق آسر على الفور ناحية المبنى وخلفه باسم وجولي والجميع متشبث بسلاحه...

كان القلق بلغ معه مداه...

أبشع الاحتمالات لا تنفك عن التوالي في رأسه...

هل سيلحق بها؟!... هل سيجدها جثة هامدة؟!... هل يقومون بتعذيبها الآن؟!..

تباً لو مسها أحدهم بسوء سيمزقه إرباً.

توقفت حركته فجأة حين تعلق بذراعه باسم فالتفت له ليقول الأول:

- مهلاً.. علينا الدخول على مهل.. لا نعرف من سنواجه بالداخل.

أومأ آسر برأسه إيجاباً... ليدلفوا إلى المبني بحذر...

مشطوا الطابق الأول بعينيهم فلم يجدوا فيه أحد...

فأشار باسم إلى الدور الثاني.. وليوميء له آسر وتبعتهما جولي...

فلقد اكتفوا باستخدام الإشارة كي لا يسمعهم أحد دون أن يشعروا... صعدوا درجات السلم ببطء وحيطة..

بدت بعض الأصوات تصل لآذانهم فعلموا أنهم اقتربوا كثيراً...

وصلوا إلى الطابق الثاني فمد آسر عنقه ليقع بصره على عدة أشخاص ثلاثة منهم أرضاً واتضح له أنهم حنين وميا وديفيد...

واثنين على أقدامهما يحملان السلاح ليصل لأذنيه قول أحدهما:

- من الخسارة أننا لا نملك الكثير من الوقت... لكنا مرحنا مع تلك الفتاتين قليلاً.

ضحك الآخر قائلاً:

- معك حق.. فهما لا بأس بهما... لكن علينا أن نلحق بالزعيم.

صرخت ميا مستعطفة:

- أرجوكما... نحن لم نفعل شيئاً.. دعونا وشأننا.

- آسف عزيزتي أنها النهاية لكم.

النهاية...

هل هكذا حقاً ستنتهي حياته؟...

وابنه؟.... أليكس...

حرم من أمه والآن سيحرم من أبيه أيضاً... ولماذا؟!.

هو حتى الآن لا يعرف السبب...

لكنه لا يتصور أن تكون تلك النهاية...

نظر لفوهة المسدس المصوبة تجاهه لينتفض نحو حاملها صارخاً:

- أريد أن أربي ابني.

اصطدم بالرجل الأقرب منه ليسقط معه أرضاً وفوجيء الجميع بما حدث إلا أن زميله وجه سلاحه ناحية ديفيد ليصيح:

- ماذا تظن نفسك فاعلاً؟!

صرخت مِيا بقوة مع صوت الطلق الناري الذي دوى في أذنيها:

- ديفيد.. لاااااا.

فوجئت بديفيد يلتفت لها بذهول ليرتطم جسد أحدهم أرضاً ولم يكن إلا الرجل الذي كاد أن يطلق النار على ديفيد وقد تضرج صدره بالدماء.

انتفض الآخر الذي كان لا يزال أرضاً وهو يتعلق برقبة ديفيد صارخاً:

- من أطلق النااار؟؟ من هنا؟.. اخرج فوراً أو نسفت رأسه.

دار الجميع برؤسهم إلى مصدر إطلاق النار ولم يظهر أحد ، برقت عينا حنين وقد ملائتها نشوة الأمل لتهمس:

- آدم!!

هب الرجل واقفاً ساحباً ديفيد معه وهو يلصق فوهة سلاحه برأس الأخير:

- قلت.. من أطلق النار؟... اخرج حالاً.

"حسناً سأخرج اهدأ.. أنا وحدي"

تسارعت دقات قلبها وقد ميزت صوته بسهولة...

لقد لحق بها... لم يتركها..

إنه هنا لإنقاذها.

ظهر آسر وقد رفع ذراعيه لأعلى وهو لا يزال ممسكاً بسلاحه رفعت مِيا حاجبيها بدهشة:

- آدم!!

عقد الرجل حاجبيه مردداً:

- أيها الوغد.. كيف لحقت بنا؟!

لم يعيره آسر اهتمام بل نظر لديفيد قائلاً:

- ديفيد.. افعل مثلما سأفعل بالضبط.

عقد ديفيد حاجبيه وشعر بعدم الفهم أما الرجل فقد توتر أكثر ليقول:

- ما الذي تعنيه بهذا؟!!

هز آسر كتفيه دون رد، فزاد توتر الرجل قائلاً:

- فلتذهب إلى الجحيم.

قالها وهو يوجه سلاحه لآسر الذي صاح:

- الآن ديفيد.

انحنى آسر فتبعه ديفيد لينحني هو الآخر وأُطلِقت رصاصة أخرى اخترقت رأس الرجل الذي شهق بفزع قبل أن يسقط أرضاً..

ليظهر من خلف آسر باسم وجولي ليقول الأول:

- الجميع بخير؟.

بدا أنهم جميعاً توقفوا عن التنفس للحظة قبل أن تتحرك حنين مندفعة ناحية آسر تلقي بنفسها على صدره وهي تردد اسمه باكية، ربت على ظهرها مطمئناً:

- اهدئي حنين... أنا هنا.

تعلقت بقميصه مرددة:

- كنت أعلم أنك ستأتي... كنت أعلم أنك لن تتركني.

جاءه صوت باسم:

- آسر.. البطاقة.

أبعدها آسر عنه وقد أمسك كتفيها قائلاً:

- أين البطاقة حنين؟.. عثرتِ عليها؟.

مسحت دموعها وهي تشير لنقطة ما خلفه:

- في القلادة آدم.. لقد أخذها... هدية أبي الأخيرة... صليب ذهبي وضع أبي داخله البطاقة... اعدها لي آدم... اعدها لي.

عقد حاجبيه وقد فهم كلماتها المتقطعة:

- حسناً... فلتبقي هنا... سأعيدها.. ثقي بي.

التفت لباسم لجولي:

- ابقي معهم...

وأشار لآسر:

- هيا بنا.

انطلقا إلى حيث أشارت حنين التي تعلق بصرها بهما لكنها سرعان ما بدأت في العد و خلفهما لتصيح مِيا التي قام ديفيد بحل قيدها:

- مهلاً.. أيتها المجنونة إلى أين تذهبين... لا تتبعيهما!!

نادتها جولي عدة مرات لكنها لم تلتفت إلى أحد.

وصل آسر وباسم إلى درجات سلم أخرى في الإتجاه لأعلى فقط، ليقول الأول:

- هل صعدوا إلى السطح!!.. لماذا؟

عقد باسم حاجبيه ليردد:

- مروحية... سيهربون بها.. فلنسرع.

****

جلس نورمان بالمروحية يراقب القلادة التي تتأرجح في يده ثم أعاد فتح الصليب لينظر إلى البطاقة متمتماً:

- سند رمن خلفها الكثير من المال... رائع... حقاً رائع.

قال رجله:

- لماذا تأخر هذان الأحمقان؟!

ردد نورمان بضيق:

- ألم نخبرهما أن يلحقا بنا على الفور؟!

فُتح الباب المؤدي للسطح ليلتفت كل من نورمان ورجله ليريا رجلين يندفعان نحوهما بسلاحهما فعقد نورمان حاجبيه لتعرفه عليهما ليصيح:

- تباً.. كيف وصلا إلى هنا؟!

أمر الطيار بالإنطلاق بالمروحية في الحال، ثم أخرج سلاحه وشرع في إطلاق النار ناحيتهما.

انحرفا كلا منهما في اتجاه في محاولة لتفادي الطلقات التي تنهمر ناحيتهما ليقوما بالرد عليه بطلقات من سلاحهما..

فصرخ نورمان:

- أقلع بتلك المروحية أيها الأحمق.

وكأن المروحية كانت في انتظار صرخاته لترتفع عن الارض، فصاح باسم:

- تباً سنفقدهما.

أطلق آسر ساقيه للرياح في محاولة أخيرة للحاق بهما...

بدا من داخله مندهشاً من عدم شعوره بأي الم على الإطلاق.. لكنه لم يركز في هذا كثيراً وإن قال صارخاً:

- باسم.. اطلق على المروحة.

توقف باسم عن العدو ليضع تركيزه على ذلك، لترتفع المروحية أكثر وأكثر وبدأت تبتعد عن السطح فأطلق باسم رصاصاته في اتجاه مروحتها.

ردد الطيار:

- هذا الرجل سيعطل المروحية.

لم ينتظر نورمان المزيد اعتدل هو الآخر وصوب سلاحه ناحية باسم الذي انتبه لهذا متأخراً لتصيبه رصاصة ألقت به أرضاً.

لاحت التفاتة سريعة من آسر لباسم الذي رفع كفه له ليطمئنه أنه بخير.. فعقد حاجبيه غضباً وبدت صورة أحمد أمامه فصرخ:

- لن تفلتوا أبداً.

كان عند حافة السطح فقفز بكل ما أوتي من قوة ليتعلق بيد واحدة بقوائم المروحية التي اهتزت للحظة قبل أن تستعيد توازنها.

كانت حنين تقف في الخلف تراقب كل هذا، وكاد قلبها أن يتوقف وهي ترى آسر يقوم بتلك القفزة الجنونية...

اتسعت عيناها أكثر وأكثر وهي تتمتم باسمه.

تشبث آسر بكلتا يديه بقائمة المروحية، فبدأت الآلام تتصاعد مما نبهه أنه ربما تجاوز الحد.

بذل مجهوداً كبيراً لتثبيت نفسه بينما أخذت المروحية في التأرجح ووصل لأذنه صرير مروحتها، فابتسم متمتماً:

- فعلتها صديقي... دع الباقي علي.

قبل أن ينهي كلمته فوجيء بذراع تمتد من المروحية بغرض إصابته، لكنه لم يمهله الوقت تعلق بتلك الذراع ليجذبه بقوة ملقياً به خارج المروحية.

ليتعلق هو بحافتها محاولاً الدخول إليها وما أن ظهرت رأسه حتى التقت بأعين نورمان الغاضبة الذي صاح:

- لا تحاول.. انتهى الأمر... نحن فزنا.

ارتجت المروحية بشكل مفاجئ ليقول الطيار:

- تباً.. لقد تضررت المروحة... سنسقط... سنسقط!.

استغل آسر لحظة الإرتباك تلك ليقفز داخل المروحية وأول ما فعله تعلقه بقبضة نورمان التي كانت تحتضن قلادة حنين ليقول بصوت صارم:

- هذا لا يخصك.

وقبل أن يبدي نورمان أي ردة فعل كال له آسر عدة لكمات متتالية أفقدته الوعي...

إلا ان المروحية مالت بشكل خطير تعلق آسر بأحد الأحزمة المحيطة بالمقعدين الخلفيين بينما يخلص القلادة من أصابع نورمان.

****

جلس باسم وهو يضغط على إصابة كتفه... وما أن مالت المروحية حتى صاح بكل قوته:

- آسر... اقفز.. آسر... اقفز!!!!!!!!!!!!!!!ز.

استمر ميل المروحية بطريقة مخيفة لتبدأ رحلة سقوط قصيرة حيث أنها كانت بالفعل قريبة من الأرض، لترتطم بالأرض محدثة انفجاراً مدوياً صرخ معه باسم بإسم صديقه..

بينما انهارت حنين فاقدة للوعي بين ذراع رفيقتها التي وصلت لها للتو.

****

العقل...

هذا المفهوم الذي يتحدث عن ماهية ما لا نراه لكننا ندركه ونعلم بوجوده... وهو الذي يحمينا مما قد لا نستوعبه أو يقضي علينا..

ومن أهم وسائله الدفاعية الظلام..

يُسقط صاحبه في الظلام...

يقطع عنه الشعور بما حوله....

في محاول لإنقاذه من الألم...

من الصدمة... وربما من الجنون.

وهذا ما أصابها غرقت في الظلام...

فلقد زادت ضربات قلبها للحد الذي أفقدها الوعي... فلم تتحمل رؤيته يلقى هذا المصير أمام عينيها ، لتجد نفسها كمن يسقط في هوة عميقة مظلمة دون أدني مقاومة منها.

حتى بعد أن فتحت عينيها مازال الظلام هو ما يحيط بها...

دارت بهما في المكان... أو ايا كان تسميته..

لكنها لا زالت لا ترى...

مهلاً.. هناك بقعة ضوء تضيء من بعيد... إنها القلادة..

هدية أبيها.. أحدهم يلوح لها بها...

حاولت الابتسام لكنها لم تستطع فلم يعد لديها القدرة على الحركة.

إنه هو... آدم.

ابتسم لها وجاءها صوته يدوي في عقلها فهو لم يحرك شفتيه حتى..

"سأعيدها.. ثقي بي"

حاولت مد يداها له.. لكنه فجأة استدار.. ابتعد...

أكثر فأكثر...

بذلت مجهوداً مضنياً لتصرخ.. لتناديه..

ولكن أحبالها الصوتية وكأنها في عطلة..

لم تسعفها مطلقاً... فاستمرت في المحاولة..

يجب أن توقفه... يجب أن يسمعها.. يجب أن يبقى معها.

وأخيرا استجاب لها صوتها لتصرخ بكل ما أوتيت من قوة:

- آداااااااام.

الضوء يكتسح عقلها مجدداً..

اتسعت عيناها لتستوعب أين هي...

حجرة بيضاء... سرير صغير يحوي جسدها بشكل جيد...

لا نوافذ... ولا حتى أبواب..

هبت من مكانها... وقلبها ينتفض فزعاً...

ولازال ندائها الأخير يصدح به لسانها.

انشق الحائط ليظهر أمامها احدهم...

التصقت بالجدار خلفها مرتعبة فاقترب منها مردداً:

ـ اهدئي.. اهدئي... فلينادي أحدكم الطبيب.

زاد عدد الداخلين للحجرة وحاولوا الإمساك بها ليغرز أحدهم محقن ما في ذراعها...

ويبدأ جسدها بالاسترخاء رويداً رويداً.. واتضحت أكثر صورة من حولها من أشخاص...

ليميل اليها واحداً منهم قائلاً:

ـ حنين.. حنين هل تسمعيني؟!

تعلق بصرها به لتتعرف عليه وهي تردد اسمه، فأجابها:

ـ نعم.. أنا باسم.. أنتِ بخير؟!.

ـ آدم... آدم.. آدم.

رددتها بلا كلل، ربت باسم على كتفها قائلاً:

ـ اهدئي حنين.. أنتِ في حاله سيئة... لا تفكري في شيء.

تعلقت بذراعه وعيناها تستجديه الإجابة على تساؤلها الذي لا يحتاج لنطقه بالشفتين..

أخفض بصره عنها ووجه يحمل معاني الحزن الشديد.

لينتفض جسده على صرخة مدوية أطلقتها من حنجرتها تحمل كل معاني الألم والأمل الذي تحطم للتو...

لتعود للظلام الذي ينقذها به عقلها من الجنون أو الموت.

****

وقفت أمام مرأتها ترمق ملامح وجهها وكأنها تراه للمرة الأولى..

هي بالفعل تبدلت قليلاً... وجهها ذابلاً.. عيناها مظلمة.. وجسدها منهك.

لا تصدق أنه مر عليها شهراً كاملاً...

لا تذكره تقريباً... لا تذكر عنه إلا صراخ وبكاء صاحبها كثيراً إلى أن تمكنت من استيعاب الأمر..

"آدم مات"

انكمشت عضلات وجهها تلقائياً كلما تذكرت تلك الكلمتين اللتين ظلت ترددهما بلا كلل.. وكأنها تنتظر من يأتِ لينفي هذا الامر.. ولم يأتِ أحد!!

دارت برأسها لتلقي النظرة الأخيرة على منزلها..

فها هي ستغادره.. ربما بغير رجعة...

فبعد كل ما مرت به قبلت بسهولة اقتراح أن تنتقل للعيش في بلدها الأم... على أن يقوم الجهاز الأمني بتوفير أسباب الحياة لها حتى تجد العمل المناسب...

"هذا أقل ما يمكن أن نقدمه لكِ... بالنيابة عن آسر"

أنقذت وجنتيها من فيض جديد يوشك على الهطول من عينيها..

خطت بقدميها عدة خطوات لتقف أمام صورتها العائلية الوحيدة...

تأملتها كثيراً وبرغم أن معها نسخة مصغرة منها لكنها كانت تحفر كل تفصيلها في ذاكرتها.

رن هاتفها لتحرك ذراعها برتابة واضعة اياه على أذنها.

"آني.. كيف حالك؟!.. هل ستسافرين حقاً؟!"

- أهلاً ميا.. أنا بخير.. نعم سأسافر... أنتِ أيضاً سافرتِ ما الداعي للبقاء؟.

وصلتها نبرة مِيا المعتذرة:

- سامحيني رفيقتي... كان يجب أن أكون معكِ....

قاطعتها حنين:

- لا تعتذري ميا... لقد فعلتِ المناسب لكِ وأنا الآن أفعل المناسب لي... كيف حال ديفيد وأليكس؟!

- بخير آني... جميعنا بخير... اتصلي بي فور استقرارك.. اتفقنا؟..

- نعم.. اتفقنا.

نظرت في ساعتها..

اقترب الموعد كثيراً..

نفير في الخارج أكد لها ذلك...

منحت منزلها نظرة الوداع لتجر حقيبة سفرها خلفها.. لكنها لم تودع منزلها فقط بل ودعت نفسها..

فحنين لم تعد آني!!

استقرت في السيارة بجوار مرافقها والذي ظل معها طوال فترة علاجها.. باسم..

قاد السيارة في صمت حتى المطار... ساعدها في إنهاء كافة الإجراءات.. واقتربت لحظة الرحيل.

ابتسم لها قائلاً:

- معي شيء.. يجب أن أسلمك اياه.

ارتسم التساؤل في عينيها وإن ظلت ملامحها ثابتة.

أخرج كتاب ليرفعه لها قائلاً:

- آسر كان ينوي حقاً أن يعطيكِ هذا.

أمسكت الكتاب لتقرأ ما كتب عليه بالعربية..

"القراءن الكريم مع التفسير"

لاحت شبه ابتسامة حزينة ما وهي تتذكر ما اتفقا عليه..

هل عليها الآن أن تقوم بالجزء الخاص بها من الإتفاق.. دونه!!

- وهذا أيضاً.

نظرت لعلبة صغيرة يحملها باسم على أنامله مردفاً:

- خذيها.. هي تخصك.

أمسكتها تقلبها بين أصابعها فقال:

- افتحيها في الطائرة ليس الآن.

رمقته بشك فابتسم قائلاً:

- اهتمي بنفسك... وابتعدي عن المتاعب.. واتصلي بالرقم الذي اعطيتك اياها إذا وقعتِ في مشكلة... عنوان المنزل معكِ أيضاً.. لن يكون الوصول له صعباً... المنطقة معروفة وهو يطل على الشاطيء... أتمنى لكِ إقامة ممتعة فيه... بالتوفيق حنين.

أنهى جملته ماداً يده لمصافحتها ...

صافحته بدورها شاكرة له:

- شكراً لك.. شكراً لكم على كل شيء.. وخاصة المنزل.

قالتها وهي تستعيد كلمات آدم عن البحر وعشقه له... وأمنيته أن يعيش في منزل على البحر...

لذا كان رجاؤها الوحيد أن تسكن في منزل يطل على الشاطيء.

حك باسم رأسه:

- اممم.. اتفقنا أنكِ ستسددين ثمنه على أقساط.

بسمة زائفة رسمت على شفتيها وهي تقول:

- أعلم.. لم أنسَ... وداعاً.

جاءها نداء رحلتها فغادرت بينما وقف هو يتابعها حتى اختفت.

جلست على كرسيها المخصص لها في الطائرة...

أمسكت بالعلبة الصغيرة تتأملها للحظات...

لا تعلم سبب الرهبة التي تشعر بها منذ أعطاها باسم اياها...

ولما أراد لها أن تفتحها هنا.

تنفست بعمق لتفتحها.. لتشهق وقد وضعت كفها على فمها محدقة بالصليب الذهبي الذي استقر داخل العلبة...

"سأعيدها... ثقي بي"

زاغت عيناها...

واختفت الصورة خلف عبراتها...

شهقات متتالية تكتمها قدر استطاعتها...

"آدم... وفيت بآخر وعودك لي... ليتني طلبت منك أنت العودة... ليتك وعدتني بعودتك سالماً"

تأملت القلادة التي بدى عليها بعض الضرر... ضمتها في قبضتها.. اشتمت رائحتها تتلمس عبيره.. لتغرقها بدمعاتها...

تذكرت حين فعلت الشيء نفسه فور أن رأتها وعلمت أنها آخر هدية من أبيها لها...

ها هي الآن تعود لتكن أيضاً آخر اهداء من آدم.

هذه القلادة أصبحت آخر رفيق لأحب من لها على الارض..

أبيها وحبيبها.

لا تعرف متى أقلعت الطائرة ولا كم مر من الوقت عليها وهي تبكي ملتصقة بالقلادة...

رفعت رأسها تتأملها طويلاً لتعلقها حول رقبتها فتجاور القلب الصغير الذي إهداها اياه...

انتبهت إلى الكتاب الذي استقر على حجرها...

مسحته بكفها متمتمة:

- فليكن آدم... سأنفذ الجزء الخاص بي من الإتفاق.

قلبت صفحاته بعشوائية لتتوقف عند إحداها وتقرأ أول كلمات سقطت عليها عيناها..

"ألا بذكر الله تطمئن القلوب"

****

بعد مرور بضعة أشهر....

تضاربت ألوان الطبيعة الساحرة في تلك البقعة من الأرض... حيث تجتمع صفرة الشمس والرمال مع زرقة السماء والبحر... لترسم لنا تلك الصورة الخلابة التي نقف أمامها مدهوشين بعظمة الخالق...

وهكذا كانت هي...

تؤدي طقوسها اليومية تخرج من منزلها الذي ألفته بعد مرور أشهر بين جدرانه ... لتخطو بقدميها الحافيتين على الرمال المخضبة بمياه البحر.. تطالع السماء وهي تستقبل شروق شمس جديد.

طالما أراحها هذا المشهد اليومي.. الذي أدمنت متابعته كل صباح...

لم تنسَ الشعور الذي اعتراها فور أن وطئت هذا المكان لأول مرة... وضعت قدميها على الرمال في انتظار أن تأتي المياه فتدفن قدمها بنعومة ويسر داخل رمال البحر...

أرادت أن تجرب ذلك الشعور الذي تحدث عنه آدم...

أرادت أن تشاركه أمنياته حتى ولو لم يكن بجوارها...

كانت تفعلها وتتراءى لها ابتسامته الهادئة..

لتبتسم هي أيضاً.. ابتسامة تتبعها الكثير من العبرات.

تُكرر نفس الأمر حتى الآن... لكن العبرات قلت كثيراً...

قلت فور أن فعلت ما فعلت...

فورأن دخلت عالم لم تتوقع أن تدخله قط..

فورأن تغيرت أولوياتها وأهدافها... لم تعد الحياة بلا طائل... لم تعد الوحدة تقتلها كما كانت تفعل.. لقد أصبح لديها أكثر من أنيس... وأولهم... الكتاب الذي أهداها اياه آدم عن طريق باسم...

ذلك الكتاب الذي غير لها الكثير من أفكارها...

"صدقت"

تمتمت بها لنفسها كلما قرأت وفهمت وتعلمت...

صدق آدم حين قال لها أن هذا الكتاب سيصل لقلبها..

وهذا ما حدث.

وصلت إلى صخرتها المعهودة... والتي ترافقها طوال فترة تأملها الصباحية...

جلست عليها لتتنفس بعمق تتأمل خلق اللّه...

انقطعت عنها الرؤية فجأة فاعتدلت تلملم حجابها الذي كاد أن ينقلب وهو يغطي وجهها مع نسمات البحر القوية.

تلفتت لتتأكد أن لا أحد قد رآها لتعود جالسة في هدوء.

لكنها لم تنتبه لتلك العيون التي تراقبها من بعيد بمنظار مكبر..

ليبتسم صاحبها قائلاً:

- لمّ لم تخبرني أنها ارتدت الحجاب؟!.. فلقد أخبرتني بإسلامها فقط.

أجابه رفيقه الذي كان يقف جواره:

- لم ترتديه فورإسلامها.. لقد ارتدته منذ أسبوعين فقط.. أما إسلامها فكان منذ شهر... أردت أن أفاجئك.

اتسعت ابتسامته وهو ما زال يراقبها وهي جالسة هناك بلا حركة..

لقد شعر بسعادة كبيرة فورأن أخبره باسم بإسلامها.. لكنه الآن أكثر سعادة حين رأى حجابها عليها.

لتنزوي ابتسامته تدريجياً.. وأصوات صراخها تعاود التردد في ذاكرته.. يخالطها صوت طبيبه..

"هذا جنون!!... كيف يترك فراشه ويأتي إلى هنا؟... لقد كان ينازع الموت منذ أيام فحسب!"

أشار باسم لتهدئة الطبيب:

- اهدأ سيدي الطبيب... لقد حملته بنفسي إلى الكرسي المدولب، لم أسمح له ببذل أي مجهود.

- هل تظن أن فصله عن الأجهزة المتصلة بجسده.. وتحريكه بشكل عشوائي ليس خطراً عليه؟!... عد لغرفتك فوراً وإلا فلن أكون مسئولاً عنك.

- فليكن... أنت لست مسئولاً عني.

قالها آسر برتابه..

ليزفر الطبيب مبتعداً...

فانحنى باسم ليهمس بأذن رفيقه:

- هل أنت بخير؟!

- لا تقلق من كلماته... أنا بخير.

ليثبت عينيه على باب غرفتها التي تخترقها صرخاتها الملتاعة والتي يتخللها اسمه...

كان قلبه يعتصر ألماً عليها...

هو كان بالفعل بين الحياة والموت..

لم يتوقع له أحد النجاة.. لكن اللّه يفعل ما يريد.

حين وصلت لعقله صرخة باسم له بالقفز.. علم أنه لا وقت لديه، وفي اللحظة التالية كان حصل على القلادة فعلاً، ليقفز من المروحية ويحاول الابتعاد عنها قدر المستطاع لكن هذا لم يكن سهلاً فلقد انفجرت المروحية بالفعل لتعطيه دفعة نارية ألقت به بعيداً وضرب جسده الأرض عدة مرات وأظلم كل شيء من حوله.

ليصارع الموت في غرفة العناية المركزة، والجميع حوله لا يتوقعون له النجاة، إلا طبيبه الذي قالها له فورأن فتح عينيه:

"كنت أعلم أنك تقاتل من أجل العودة."

بعدها علم أن حنين تظنه ميتاً، فقررأن يبقى الأمر على ما هو عليه.. فليبقى ميتاً في نظرها إذاً..

ربما ليست هذه هي النهاية التي رسمها لهما... لكنه الحل الأفضل...

لا شيء بعد الموت.. لا شيء..

ستنساه وستكمل حياتها مع غيره كما كان متوقع...

هو لا ينكر أن شيء ما داخله ارتاح لذلك المفهوم أكثر..

أن تتعلق بغيره وتحب وتتزوج وهي تظنه ميتاً يبدو له أقل إيلاماً لرجولته...

ربما ستتعذب قليلاً لكن كل هذا سيصبح مجرد ذكرى.

هدأت صرخاتها رويداً حتى خبت تماماً...

ليخرج من غرفتها طبيبها قائلاً:

- لقد نامت الآن... يمكنكما رؤيتها... ولن تشعر بكما إطلاقاً.

قام باسم بدفع كرسي آسر إلى داخل الغرفة لتتسع عيناه وترتجف شفتاه... لقد كانت شبح حنين وليست حنين التي يعرفها..

هل كانت تحبه لهذه الدرجة؟!!..

هل ما فعله أنانياً وقاسياً؟...

لمَ تصور أنها ستكون أكثر قوة وتماسكاً؟...

هل رؤيتها للأمر جعل وقعه عليها أشد؟... هل تظن أنها السبب بشكل أو بآخر؟!..

هل عليه أن يسرع نحوها ويضمها إلى صدره...

يهمس في أذنيها أنه هنا.. بخير.. على قيد الحياة..

أنه آسف على كل ما سببه لها من ألم؟....

أشاح بوجهه بعيداً قائلاً:

- دعنا نذهب..

ظن باسم أنه أخطأ السمع فلم يمر على دخولهما إلا ثوان...

فسأله:

- ماذا؟!

- قلت اخرجني من هنا.

- حسناً .... حسناً.

سحبه باسم ليغادرا الغرفة..

أراد آسر الهرب قبل الإستسلام لمشاعره ثانية..

لا عودة له في حياتها.. لقد انتهى الأمر هنا...

لا مجال للعودة.

استقر آسر في فراشه لتعود له كل الأجهزة التي فصلها عن جسده..

حدق بالسقف لتتراءى له صورتها.. أغلق عينيه ثانية ليمحو تلك الصورة الباهتة التي تحولت لها حبيبته...

فتحهما بعد محاولة باءت بالفشل...

لقد حُفرت ملامحها الحزينة الشاحبة في ثنايا عقله ولا مجال لتجاهلها.

"نادم؟!!"

قالها باسم بهدوءه المعتاد ، فالتفت اليه آسر مردداً:

- نادم على ماذا؟!

مال بجذعه ناحيته:

- على إقناعها بموتك؟... هل تنوي التراجع؟!

التراجع!!..

وهل يمكنه التراجع؟...

هل ستأتيه الشجاعة للوقوف أمامها وإقناعها أن كل ما حدث غير مقصود؟..

لقد اخبرته أنها ستظل تثق به...

فهل حقاً ستفعل؟!

- لا أعتقد أن بإمكاني التراجع حتى لو أردت... ما هي تبريراتي لمرحلة عذابها تلك؟... لا يوجد.. سيبقى كل شيء كما هو.

منح رفيقه نظرة رجاء:

- كل ما أتمناه... أن ترعاها جيداً لأجلي باسم... يجب أن تخرج حنين مما هي فيه...

أرجوك باسم ساعدها.

ربت باسم على كفه مطمئناً:

- لا عليك... الإدارة نفسها ترعاها وليس أنا فقط.. الطبيب يقول هي لا زالت في حالة صدمة فور أن تتخطاها سيكون علاجها أيسر... لا تقلق... فقط اهتم بنفسك وصحتك...

نريد الرائد آسر أن يعود لسابق عهده وعمله.. أم تنوي الإعتزال؟!

- الإعتزال!!... حينها سأكون ميتاً بالفعل.

- إذاً انتبه لنفسك جيداً... ودعنا نستمع للطبيب... فهو السبب الذي سخره الله لإعادتك لنا.

******

وكزة في كتفه أعادته لواقعه الزمني والمكاني...

فالتفت لباسم الذي قال:

- هل سنبقى نجلس هكذا؟... أردت رؤيتها ورأيتها... هيا يا عزيزي لدينا عمل.

نظر آسر في ساعته قائلاً:

- مازال هناك وقت على الطائرة.

زفر باسم قائلاً:

- فليكن.

عاد آسر يطالعها بمنظاره المقرب كانت تلتفت أحياناً فيتمكن من رؤية ملامحها جيداً..

لقد عادت حنين....

عادت الفتاة ذات الملامح البريئة.. التي تمكنت من تغير مشاعره نحوها بسهولة...

عادت بملامح أكثر براءة ... أكثر نقاءً... وأكثر جمالاً..

تنفس بعمق ليملأ صدره بنسمات البحر التي يعلم أنها تتنفسها معه...

دار برأسه حتى رأى المنزل الذي تسكنه اتسعت ابتسامته متذكراً طلبه من الإدراة أن تمنحها منزله الخاص...

فبعد أن أخبروه أنها تريد ان تسكن على البحر.. علم أنها اختارت هذا الاختيار لأجله...

وبرغم عدم علمها بأنه هو مالك المنزل الأصلي...

لكنه كان يكفيه أن الجدران التي احتوته يوماً هي نفسها الجدران التي تؤيها الآن.

أزال منظاره عن عينيه ليلتفت لباسم الذي التفت له بدوره ليقول الأول:

- هل تعتقد أنني إذا قدمت إلتماس للإدراة ليسمحوا لي بالزواج منها... خاصة بعد إسلامها وكذلك سيرتها النقية وما عرفناه عن اضطرار أبيها لما فعل.. هل تعتقد أن لدي أي فرصة؟!

زم باسم شفتيه متمتاً:

- نعم بالتأكيد لديك فرصة.. فرصة تصل إلى ٥٠ بالمائة.

بدت السخرية واضحة في كلماته فعقد آسر حاجبيه قائلاً:

- وماذا في ذلك؟!... نسبة ليست سيئة.

اعتدل باسم مشيراً إلى حيث تجلس حنين:

- عزيزي.. الفتاة تمكنت من التغلب على أحزانها ونسيتك بالفعل... أمَ تريد الظهور لها ثانية... هل خلقت لتعذبها فحسب؟!

تجهم وجه آسر لكلمات باسم الأخيرة.. وتسرب اليه الألم...

هو بالفعل سبب لها الكثير من العذاب.. وعليه أن يتوقف عن هذا.. ليتمتم:

- معك حق... لن أعذبها ثانية... قلت ما قلت وأنا أعلم باستحالته.

هب باسم واقفاً:

- جيد.. هيا آسر.. لدينا طائرة علينا اللحاق بها... لا يمكننا التأخر عن عملنا.

وقف آسر ليلقي نظرة أخرى عليها.. ثم استدار ليسير مع باسم مبتعداً.. وإن ملأه شعور ما بأنه سيعود إلى هذا المكان ثانية.

******

استمرت جلستها حتى اكتفت...

فوقفت لتقترب من الشاطيء... تنفست بهمة كمن سيقوم بشيء هام... دست يدها في جيبها لتخرج منها شيئاً...

استقر في راحتها لتقبض عليه قليلاً قبل أن تزيح أناملها لتنظر له...

الصليب الذهبي.

ابتسمت لتحدثه:

ـ أعلم أنك ذكرى غالية جداً عندي... فمن أحبهما كانا معك قبل أن يفارقاني... لكني الآن لا أستطيع الإحتفاظ بك.. لم يعد يمكنني.. سأتركك تذهب... وسأحتفظ بذكرى من أحب في قلبي... إلى أن يجمعني ربي بمن أحب في المكان الذي يحب.

مدت ذراعها للخلف قد ر استطاعتها لتلقي به بكل قوتها في البحر... هامسة:

ـ وداعاً.

تمت بحمد اللّه

سارة سيف الدين

٢٠١٥